صابر مولاي أحمد

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

سورة البقرة أنموذجاً

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

مكتبة مؤمن قريش

www.[illegible]

صابر مولاي أحمد

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

سورة البقرة أنموذجاً

صابر مولاي أحمد

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

سورة البقرة أنموذجاً

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم
Manhaj al-Taṣdīq wa al-Haymanah fī al-Qur'ān al-Karīm

Author: Ṣābir Mawlāy Aḥmad
Pages: 344
Size: 17 X 24 cm
Edition Date: 2017
Edition No.: 1st
Subject Classification: 211
ISBN: 978-614-8030-41-3

مكتبة
مؤمن قريش
momenquraish.blogspot.com

تأليف: صابر مولاي أحمد
عدد الصفحات: 344
قياس الصفحة: 24X17 سم
تاريخ الطبعة: 2017م
رقم الطبعة: الأولى
التصنيف الموضوعي: 211
الترقيم الدولي: 978-614-8030-41-3

Publisher
Mominoun Without Borders
for Publishing & Distribution

الناشر
مؤمنون بلا حدود
للنشر والتوزيع

All rights resereved
Mominoun Without Borders Institution

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

Morocco, Rabat, Agdal
11 RUE GABES (CENTRE-VILLE)
P.O.Box 10569
Tel: +212 537779954
Fax: +212 537778827
Email: info@mominoun.com

Lebanon - Beirut
al-Hamra - Maqdisi St. - Balbisi Build.
P.O.Box 113-6306
Tel: +961 1747422
Fax: +961 1747433
Email: publishing@mominoun.com

المملكة المغربية - الرباط - أكدال
تقاطع زنقة بهت وشارع فال ولد عمير
عمارة ب، طابق 4، جانب مسجد بدر
ص.ب 10569
هاتف: 537779954 212+
فاكس: 537778827 212+
Email: info@mominoun.com

لبنان - بيروت
الحمراء - شارع المقدسي - بناء بلبيسي
ص.ب 113-6306
هاتف: 1747422 961+
فاكس: 1747433 961+
Email: publishing@mominoun.com

www.mominoun.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

الموزع المعتمد في المغرب العربي
المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع
المغرب - الدار البيضاء - 6 زنقة التيكر
هاتف: 522810406 212+
فاكس: 522810407 212+
Email: markazkitab@gmail.com

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

الإهـــداء

إلى ابنتي العزيزة أمل

إلى زوجتي الغالية ابتسام

إلى أبي وأمي وإخواني وأخواتي

إلى الذين كرّسوا حياتهم

من أجل بسط سبل النظر في الكون والكتاب والإنسان

أهدي ثمرة هذا البحث

قال تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾

[سَبَأ: 46]

الأصل، في هذا العمل، أنّه رسالة دكتوراه نُوقشت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة المولى سليمان، مدينة بني ملال، المملكة المغربية، بتاريخ 8/ 5/ 2015م.

المحتوى

تقديم 13

مقدمة 19

مدخل 27

موضوع وإشكالية البحث 27

هدف البحث وأهميته 32

المنهج المتبع في البحث 35

الباب الأول: منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم 37

الفصل الأول: البناء المفاهيمي 39

المبحث الأول: دراسة مفهومية 40

تمهيد 40

الكتاب 42

الذكر 43

الفرقان 44

القرآن 45

الحق 46

الباطل 47

التصديق 48
الهيمنة 49
المبحث الثاني: تحديد المفاهيم على ضوء البنائية القرآنية 49
تمهيد 49
الكتاب 54
الذكر 59
الفرقان 65
الحق 67
الباطل 70
بين يديه 71
التصديق «مصدقاً» 73
الهيمنة «مهيمناً» 76
صفة «الكرم» و«البيان» 79
التفسير 88
التأويل 91
وعي القرآن لذاته 100
الفصل الثاني: منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم 101
المبحث الأول: أقوال المفسرين حول كون القرآن مصدقاً ومهيمناً على ما قبله من الكتاب 101
أ- عرض لآراء أهم المفسرين 101
ب- خلاصة واستنتاج 109
ج- السياق الكلي الذي ورد فيه موضوع «التصديق والهيمنة» ... 112

المبحث الثاني: القرآن الكريم مقدمات في المنهج 117
الوحدة البنائية للقرآن الكريم 118
الرؤية الكلية القرآنية 127
العالمية (خطاب يشمل الناس كافة) 133
الكونية (القرآن مفتوح على الكون) 141
الإمامة والخاتمية 147
منهجية القرآن المعرفية 152
التصديق والهيمنة 166
المبحث الثالث: صورة الكتب السماوية في القرآن الكريم 172
الفصل الثالث: القرآن والاسترجاع النقدي لما قبله 179
المبحث الأول: بيان آليات تحريف ما سبق من الكتاب 179
التلاوة ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ 179
تحريف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه (موضع الكلمات، وموضع الموضوع؛ أي السياق) 181
تغييب العقل 185
النسيان 186
الإخفاء 186
الكتمان 186
الكذب 187
المبحث الثاني: علاقة القرآن بالكتب السماوية في الفكر العربي المعاصر 190
محمد أركون 190

نصر حامد أبو زيد 193
محمد عابد الجابري 196
خاتمة 199
الباب الثاني: سورة البقرة على ضوء البنائية القرآنية 201
الفصل الأول: سورة البقرة - دراسة تحليلية 203
المبحث الأول: التعريف بسورة البقرة والسياق التاريخي الذي نزلت فيه 203
حول تسمية السورة 203
الظرف التاريخي المصاحب لنزول السورة 204
المبحث الثاني: الموضوعات الأساسية في السورة 205
أ- القوم المفلحون 206
ب- القوم الخاسرون 207
ت- مهمة الاستخلاف هي الغاية من وجود الإنسان على الأرض 208
ث- الخلافة وتجربة بني إسرائيل 210
ج- ما عهد الله به لإبراهيم ومن تلاه من ذريته 214
ح- بقية موضوعات السورة 216
خ- الأحكام التشريعية في سورة البقرة 217
الفصل الثاني: قراءة موضوعات السورة على ضوء البنائية القرآنية 219
المبحث الأول: قصة الخلق وقضية الاستخلاف 219
1- قصة الخلق والخليقة في العهد القديم 220
2- المفسرون وقصة آدم 227

3- موضوع الاستخلاف في القرآن الكريم وما عهد الله به لآدم . 243
4- الخطاب القرآني والاسترجاع النقدي لموضوع استخلاف آدم 256
المبحث الثاني: ما عهد الله به لإبراهيم ولذريته من بعده 269
1- العهد مع إبراهيم من خلال أسفار العهد القديم 269
2- المفسرون وموضوع ما عهد الله به لسيدنا إبراهيم 275
3- ما عهد الله به لسيدنا إبراهيم من خلال ما جاء في سورة البقرة 284
4- القرآن الكريم والاسترجاع النقدي لموضوع العهد مع إبراهيم عليه السلام 302
المبحث الثالث: من طباع بني إسرائيل في سورة البقرة 311
بنو إسرائيل ونقض العهد 311
بنو إسرائيل وقداسة التاريخ 313
إخفاء الحقيقة وكتمانها 314
سفك الدماء في ما بينهم 316
المبحث الرابع: سورة البقرة والمشترك الإنساني 318
1- الرب الإله الواحد الأحد 319
2- الإنسان 320
3- الأرض (الكون) 324
خاتمة البحث 326
قائمة المصادر والمراجع 329
الفهرس 339

تقديم

لم يأخذ البحث في القرآن المجيد نفَسه التجديدي الإبداعي بعد، فما زلنا، في معظم دراساتنا، عالةً فيه على غيرنا من سلفنا، الذين أدّوا كثيراً ممّا عليهم. فلم نستأنف النظر فيه، كما فعلوا، تدبراً وتفكراً، وفقهاً واعتباراً، وتعقلاً وإبصاراً... كي نضيف لبناتٍ جديدة في صرح هذا البناء، ونحرّكِ مساحات جديدة من منظورات مختلفة في عوالم الفكر، والمعرفة، والقيم، والعلوم، والمجتمع.

لم نستثمر، في تدافعنا الثقافي والحضاري الراهن، الذي تقوده مركزيّات الهيمنة والتوسع، وفلسفات المتعة واللذة، من عطاء القرآن المجيد التقويمي للفكر والسلوك شيئاً، ولا من كونه كريماً معطاءً، ومجيداً متجدداً، وحقاً بيناً، ومصدقاً مهيمناً... شيئاً كذلك يمكنه أن يغير، أو ينقل؛ من حال إلى حال آخر.

كتاب باعث على التجديد حاصرناه بالتقليد، وكتاب باعث على الحركة والفاعلية حاصرناه بالجمود والسكون؛ كتاب حافز على التعلم والتعقل حاصرناه بالجهل والعادة؛ كتاب ممتدّ في الزمان والمكان للعالمين حاصرناه في أزمنة وأمكنة، كتاب مستوعِب للحقائق الوجودية والإنسانية حاصرناه بالمصالح الفئوية والطائفية...

وهكذا، ضاعت وتضيع منّا الإمكانات التقويمية والبنائية، التي يتيحها هذا الكتاب؛ فلا أهله «الحاملون له» استطاعوا الانتفاع به، ولا نَفعَ الآخرين به. ولا خصومه، أو «غير الحاملين له»، استطاعوا النظر بحقّ وتجرّد إليه،

فضاعت حقيقته، وضاع جوهره بين هؤلاء وأولئك إلى أن يقيّد الله من يكشف عنها.

يأتي هذا العمل الجاد والفريد من نوعه ليسلّط الضوء على جانب من الجوانب المغمورة في القرآن المجيد، ويتعلّق الأمر بمحدّد منهاجيّ محوريّ في الخطاب القرآني أعمله القرآن الكريم، وهو يَتَنَزل في عرض حقائقه الإيمانية، والإنسانية، والوجودية، إزاء ما كان سائداً من عقائد، وعادات، وأفكار، ومسلمات؛ محدّد «**التصديق والهيمنة**»، باعتباره محدداً تصحيحياً بنائياً، في علاقته بالديانات التوحيدية التي تقدّمته، وما طرأ عليها، أو بسائر المعتقدات والملل والأفكار، التي لها منظورات مخالفة؛ يصحّح ويقوم مظاهر الاختلال بالحجج والأدلة الدامغة، حتى يأمن الآخذ بها، والمعتنق لها، وذلك من أبرز معاني كونه «مهيمناً»؛ أي: **أميناً**.

ومن هنا، مثلاً، كان انتقاده وحجاجه لمظاهر التشبيه، والتجسيم، وتعدد الآلهة... بإرجاعها إلى الأصل التوحيدي التنزيهي الكلي الواجب في حقّ الخالق سبحانه وتعالى. وفي النبوّة، ينتقد مظاهر الطعن في الأنبياء، أو الغلو فيهم، بإرجاع التصوّر إلى أصله العادي الجامع بين الطبيعة البشرية وبين مقتضيات الاصطفاء والتبليغ. وفي الأحكام نجده، كذلك، مرسخاً للتوسّط في العبادات والعادات بعدم الغلوّ في الإباحة أو في التحريم؛ بل ومنتقداً للغلوّ فيهما، بانياً نموذجه الجامع على اليسر والاعتدال، واللين والسماحة، والمرونة المراعية لتطور واختلاف الأزمنة والأمكنة. ومنتقداً سلوكات وأخلاقيات لا تقيم للإنسان، كلّ إنسان، وزناً، ولا تحفظ له كرامة، أو حقاً، أو حرية.

ثم إنّ محدّد «التصديق والهيمنة» لا يشتغل في منظومة المفاهيم القرآنية مفرداً؛ بل في نسق من العلاقات مع سائر المفاهيم الأخرى إمداداً لها، واستمداداً منها. وهذه مسألة غاية في الأهمية؛ لأنّ كثيرين من دارسي مفردات ومفاهيم القرآن ينتقون آحاداً منها، ويدرسونه وحدة مستقلة، حيث

يتمّ تغييب معانٍ ودلالات أخرى لها علاقة بسائر بنية المفاهيم، ومن ثَمّ يكون عرض ذلك المفهوم، أو تلك المفردة، أبعد ما يكون عن روح الإسلام، وإن زعم صاحبه أنّه يعالجه من منظور إسلامي.

فهذه آفة كثير من القراءات «الإسلامية» ذات التوجه «السلفي» أو «الحركي»، حيث قد تصل بها الانتقائية، وعدم إدراك شبكة العلاقات المفهومية، إلى الخروج عن حدّ التوسط، والاعتدال، واليسر، والسماحة، إلى الإنكار على المخالف؛ بل وتبديعه وتفسيقه، و-لِمَ لا؟- تكفيره، وقتاله كما في حالات الغلو والتشدد القصوى، كما نرى، اليوم، في نماذج «السلفية القتالية».

يؤدي هذا «المنهج»، كذلك، إلى السقوط في فخّ «الشعارات»، التي ليس لها مضامين فكرية، أو واقعية مطابقة، أو إلى ثنائيات متقابلة تعاني في أطرافها اغتراباً في ماضي الأمة، أو في حاضر الآخر، وكلّها اختلالات تُعالج وتُقوّم بالردّ والإرجاع إلى نظام الاشتغال المنظومي لمفردات ومفاهيم الوحي الخاتم.

قريباً من هذا، أيضاً، تشتغل منظورات أخرى لها المقاربة الانتقائية التجزيئية نفسها: «ليبرالية» أو «قومية» أو «يسارية»... تقرأ ما تريد لا ما هو كائن، فتنتهي إلى خلاصات هي أبعد عن روح الإسلام، كذلك، إن لم تكن مناقضة له. وذلك من خلال مقولات هي «شعارات»، أيضاً، ليس لها مقابل فكري أو واقعي يدعمها؛ بعضها يقدم الدين «معنى» بلا التزامات، وإن كان جوهر الدين قائماً على الالتزام أساساً، كما يدلّ عليه اسمه بين دائن ومدين، وبعضها يقدّمه جنساً، أو عرقاً، أو طائفة... مُصادراً أبعاده الإنسانية وآفاقه الكونية، وبعضها يقدّمه «ثورة» أو «نضالاً» فحسب... إلخ.

إنّ الحقيقة الدينية، في شمولها واستيعابها، أكبر من أن تحاصر بفهم أو فهوم، وإنما تُقارب بمنطقها وآلياتها الخاصة، تجنباً للإسقاطات المختلفة،

تماماً كما تُقارب الحقائق العلمية والكونية في نظامها السنني. ولقد تحدّث العلماء قديماً عن التلازم الموجود بين السنن الدينية الشرعية، وبين السنن الكونية القدرية، كما تحدّثوا حديثاً عن المعادلة الموضوعية بينهما ترتيباً ونظاماً في الآيات.

فما أعدل القرآن، وهو **يصدّق** على الإرث المشترك في النبوات كلّها، وعلى الحِكم البشرية أنّى كانت، ومن أيٍّ كانت، **ويهيمن**، في الوقت نفسه، مسدداً ومصوباً كي لا يسلك السالك الطريق الخطأ؛ إذ يضع بين يديه من الآيات والعلامات ما يسعفه على حسن الإبصار، والاعتبار، ولزوم الوجهة.

إن للتصديق والهيمنة علاقة بمحددات أخرى، على رأسها محدد «**التوحيد**» المانح المعنى والغاية من الإيجاد والوجود؛ وبمحدد «**الحفظ**»؛ لأنه لا يصدق ولا يهيمن مَن دخله التعديل والقصور؛ وبمحدد «**الختم**» و«**الإكمال والإتمام**»؛ لأنه لا يصدق ويهيمن مَن هو في طور النمو والتشكّل في الزمان والمكان؛ وبمحدد «**العالمين**» المتماهي مع الحقائق الوجودية والإنسانية لا المنحصر في نماذج منها. وهكذا نجد محددات القرآن ومفاهيمه نسقيّة متكاملة تشكّل بمجموعها المنظور الصحيح، الذي ينبغي الاجتهاد في استخلاصه، أو الاقتراب منه على الأقل.

ولقد حاول هذا البحث استثمار كثير من المعطيات، التي سبقت الإشارة إليها، فأكد على كون «القرآن شاهداً ومستأمناً على الحقائق كلها»، بمقتضى المحددات التي ألمحنا إليها، وعلى «التصور الكلي المؤهل للاسترجاع النقدي»، وعلى «النسق التواصلي من خلال القيم والمبادئ المشتركة»... وغيرها من المداخل المهمة في هذا الباب. كما أن الباحث استثمر، كذلك، تكوينه في «الحوار الديني والحضاري»، واطّلاعه على أنساق من العلوم والمعارف الإنسانية... في مقارنة النصوص المقدسة، وبيان أضرب الهيمنة والتصديق فيها، فكان منه هذا الجهد المقدر في مجالٍ مازالت الدراسات فيه

نادرة. وإن كنّا لا نزعم أنّه بلغ فيه مبلغاً، أو نتّفق معه في كلّ شيء، فإنّه حرك فيه قضايا، وأثار فيه موضوعاتٍ بحاجة إلى مزيد من الدرس والتمحيص، مع احتفاظه بكامل رأيه فيما يمكن الاختلاف فيه، وذلك شأن الباحث المستقلّ بنظره، بعد اطلاعه على منظورات الآخرين.

والباحث الدكتور صابر مولاي أحمد له من القدرة على التتبّع والقراءة، وعلى نظم المفردات والبناء عليها، وعلى النقد والمراجعة، وعلى الامتداد بالوعي وبالمدركات في مجالات المعرفة الفسيحة... ما يجعله مجدداً مبدعاً باستمرار.

د. سعيد شبار
أستاذ التعليم العالي والفكر الإسلامي
في الجامعة المغربية
23/ 7/ 2016م

* * *

مقدمة

من المعلوم أنّ الرسالة الإسلامية ناسخة لما سبقها بفعل تصديق وهيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية؛ أي التوراة بالنسبة إلى الديانة اليهودية (العهد القديم)، والإنجيل بالنسبة إلى الديانة المسيحية (العهد الجديد)، فضلاً عن كون القرآن الكريم، دون غيره من الكتب الدينية الأخرى، يكتنز داخله الكثيرَ من المداخل المعرفية المفتوحة على الكون والإنسان، والتي تجعله يرقى إلى، ويلتحم مع؛ خصوصيات الزمن المعرفي، الذي يظللنا اليوم وما بعده، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفَتْح: 28]؛ فقضية الظهور هذه لا تنحصر في زمن النزول فحسب؛ بل تمتد إلى ما بعده؛ فاليوم نعيش حالة ظهور أخرى للهدى ودين الحق، والحق واحد غير متعدّد، فبه خُلق الكون بأكمله، وبه نزل القرآن، فالعلماء والمتخصصون في العلوم الكونية يرتقون إلى فهم وكشف أسرار كثير من الحقائق التي قد أشار إليها، وذكَّر بها الكتاب المنزل (القرآن) من خلال آياته وسوره. وهذا الانسجام والتكامل بين أسرار الكون وأسرار الكتاب المنزل، من المستبعد جداً أن يحصل مع كتاب آخر غير القرآن. وننبّه، هنا، إلى أنّ حالة الظهور هذه لا تعني إقصاء ونفي الديانات الأخرى، بقدر ما هي دعوة إلى تحرّي الحق، والسعي نحوه، وقد حسم القرآن هذا الأمر بقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البَقَرَة: 256]، فضلاً عن أنّ آيات الله تتجلّى في الآفاق

والأنفس بيّنة وظاهرة لمن تحرى الحق. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلَت: 53].

كما أنّ حالة ظهور الهدى ودين الحقّ لا تنحصر في مجال معرفيّ واحد؛ بل تشتمل على مختلف حقول المعرفة، ما يتطلب من الدارسين، والمتخصّصين في شتى التخصصات العلمية، النهوض بها، بقصد جلب الهدى والرشاد للناس جميعاً من الكتاب المنزل (القرآن). ومن ثم، يحفر هذا البحث في زاوية معرفية تلتصق في فهم العلاقة التي تربط القرآن بما قبله من الكتب، وهي زاوية تنتمي إلى علم مقارنة الأديان.

البحث، الذي نحن بصدده، والموسوم بعنوان (منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم: سورة البقرة نموذجاً) يسلّط الضوء، بشكل منهجيّ، على ما هو وارد داخل البنائية القرآنية حول موضوع منهج التصديق والهيمنة، وهو منهج قد أسّسه القرآن، من خلال سوره وآياته، ليضبط العلاقة بينه وبين الكتب السماوية التي سبقته، وقد جاء الحديث عن هذا الموضوع بشكل مباشر في سورة المائدة. يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]، ولهذا، يُعدّ الوعي بالأبعاد القرآنية للموضوع الذي نحن بصدده، في الوقت ذاته، وعياً بماهيّة القرآن، وبما يتّصف به من الخصوصيات عن غيره من الكتب التي سبقته.

فمن لم يُحِط بالتصوّر الكلي، الذي يضمه القرآن حول موضوع التصديق والهيمنة، سيفوّت على نفسه فهم العلاقة المنهجية، التي تربط القرآن بالكتب السماوية التي سبقته، وقد يُنظر إلى القرآن الكريم مثله مثل باقي الكتب

المقدسة؛ له ما لها، وعليه ما عليها، كما أنه يفوّت على نفسه فهمَ ما قام به القرآن من الاسترجاع النقدي والبنّاء لكثير من الموضوعات التي تضمها الكتب المقدسة. والاسترجاع، هنا، ليس من باب الاسترجاع نفسه؛ بل من باب تثبيت الحق والصواب، الذي تضمّه تلك الكتب السماوية، ونفي ما لحقها من الزيادات والتبديل عبر التاريخ.

إنّ جوهر موضوع التصديق والهيمنة يكمن في كون القرآن الكتابَ الشاهد والمستأمَن على الكتب المقدسة؛ أي ما قبله من الكتاب؛ ولهذا من التعسف بمكان أن يتمّ النظر إلى ما تضمّه الكتب المقدسة، اليوم، بمعزل عمّا يضمّه القرآن الكريم حول كثير من الموضوعات، وهي موضوعات تعني الناس جميعاً؛ مثل: الحث على القيم العليا والفضيلة، من خلال التذكير بتاريخ الأنبياء والرسل، وما كانوا عليه من الحقّ والدعوة إليه، ومثل قصة الخلق وموضوع الاستخلاف، وهو موضوع يعني الناس جميعاً. ونؤكد، هنا، أنّ الإعراض عمّا يضمّه القرآن من هذه الموضوعات وغيرها، والاكتفاء بما هو وارد في الكتاب المقدس، يُعدّ خروجاً عن الفهم الصواب، وعن الحقيقة، التي يصبو إليها الناس جميعاً. كما أنّ فهم وتفسير ما قال به القرآن، حول هذه الموضوعات وغيرها، من خلال ما هو وارد في الكتب المقدسة، يُعدّ تضييعاً للهدى والحق الذي يكتنزه القرآن الكريم.

وتبعاً لمسيرة البحث في هذا الموضوع، تبيّن لنا أنّ هذا الموضوع تنقصه المصادر والمراجع لقلّة من بحثوا وكتبوا فيه؛ ولهذا هو في حاجة ماسة إلى توسيع دائرة البحث فيه، في مجال الفكر الإسلامي. ولكون الموضوع يشتمل على ما هو نظري، وما هو تطبيقي، عملنا على تقسيمه إلى شقّين؛ شقّ نظري في الموضوع، وهو الباب الأول، وشقٌّ تطبيقي، وهو الباب الثاني من البحث؛ إذ اتّخذنا، من خلاله، سورة البقرة نموذجاً، تطبيقياً لما بسطنا القول حوله في الباب الأول.

فالباب **الأول** يضمّ ثلاثة فصول، جاء **الفصل الأول** منه تحت عنوان: «دراسة مفهومية لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]»، وقد جئنا، من خلال المبحث الأول من هذا الفصل، على بيان مدلول المفردات، التي تتشكّل منها هذه الآية، وبيان مدلول المفردات اللغوية الأخرى، التي لها علاقة بالموضوع، من حيث الجانب اللغوي، ومن حيث استعمالاتها الاصطلاحية. كما أننا تتبعنا، من خلال المبحث الثاني لهذا الفصل، مدلول المفردات نفسها، من خلال ورودها داخل البنائية القرآنية، بتتبع وتحكيم سياق الآيات القرآنية الواردة من خلالها. وبهذا، تمكنّا من استجلاء مدلول المفردات، التي تصبّ، من حيث دلالتها ومعانيها في الموضوع الذي نحن بصدده (التصديق والهيمنة في القرآن الكريم).

أمّا **الفصل الثاني**، فقد جاء تحت عنوان: «منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم»، وقد تطرقنا، من خلال المبحث الأول منه، إلى أقوال أهمّ المفسرين حول قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]. كما أننا عملنا على تحليل أقوالهم وآرائهم، مع بيان مدى الأهمية التي أعطوها لهذا الموضوع. كما أننا عملنا على قراءة الآية (48) من سورة المادة، من خلال السياق الكلي، الذي وردت من خلاله داخل القرآن الكريم. وقد أوضحنا أنّه لا ينبغي الوقوف، في التعاطي مع الموضوع، عند ما قال به المفسرون؛ بل ينبغي استحضار الخصوصيات المنهجية للقرآن الكريم في النظر والتعاطي مع هذا الموضوع.

وقد جاء المبحث الثاني من هذا الفصل ليلقي الضوء على الخصوصيات المنهجية، التي اختص بها القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية، وقد تطرّقنا، من خلاله، إلى النقاط الآتية: الوحدة البنائية للقرآن الكريم، الرؤية الكلية القرآنية، العالمية (خطاب يشمل الناس كافة)، الكونية (القرآن مفتوح

على الكون)، الإمامة والخاتمية، منهجية القرآن المعرفية، التصديق والهيمنة. فالقرآن الكريم نصّ يلتحم أوله بآخره، ففهم آياته ينبغي أن يكون من خلال وحدته البنائية، وليس من خلال تجزيء واقتطاع آية وحدها، وعزلها عمّا سبقها، وما يلحقها. كما أنّ القرآن كتاب مفتوح على الكون بأكمله، وهذا ما جعل منه كتاباً يتّصف بمنهج معرفيّ محدد يتميز بالدعوة المنهجية إلى الجمع بين القراءتين؛ قراءة الكون، وقراءة الكتاب المنزل؛ ولهذا، الجزء الكبير من أدلة وحجج التصديق به يستمدّها من الآيات المبصرة في الكون، فهو كتاب يدعو إلى التدبر في آيات الله في الخلق، فلا كتاب، ولا رسول بعد محمد ﷺ، فالرسول الخاتم جاء بالكتاب الخاتم.

أمّا المبحث الثالث من هذا الفصل، فقد بيّنا، من خلاله، صورة الكتب المقدسة في القرآن الكريم، فهو كتاب يَعدّ تلك الكتب وحياً من الله، ولكنه يكشف أنّ أهلها من أهل الكتاب قد بدّلوها وحرّفوها، وهو لا يقف عند هذا الحد؛ بل عمل على تصحيح وإعادة بناء ما تمّ تحريفه وتبديله، لكن جلّ المستشرقين، كما بيّنا -مع الأسف- اتّهموا القرآن بكونه نقلَ ما هو موجود في الكتب السابقة عليه، في غفلةٍ عما يتّصف به القرآن عن غيره من تلك الكتب، من الخصوصيات المنهجية، وفي غفلةٍ تامة، كذلك، عن طبيعة التناقض، والتعارض، والاختلاف، الذي تتصف به نصوص الكتاب المقدّس فيما بينها، نتيجة التبديل والتحريف الذي تعرضت له.

وقد جاء **الفصل الثالث** من الباب الأول تحت عنوان: «القرآن وعملية الاسترجاع النقدي لما قبله»، وقد كشفنا، من خلال المبحث الأول لهذا الفصل، عن الآليات التي وظفها أهل الكتاب في تحريفهم لكتبهم، وقد جاء القرآن على ذكرها، ومن بينها: تحريف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وتغييب العقل في التعاطي مع ما عندهم، ونسيان وكتمان حقيقة ما عندهم من الكتاب، والكذب على الله. وقد خُصِّص المبحث الثاني من هذا

الفصل لبسط القول حول ما هو متداول، في الفكر العربي المعاصر، حول طبيعة علاقة القرآن بالكتب السماوية. وقد توقّفنا عند وجهاتِ نظرٍ ثلاثةِ مشاريع فكرية في الفكر العربي لكلّ من محمد أركون، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد عابد الجابري.

أمّا **الباب الثاني**، فهو تحت عنوان: «سورة البقرة على ضوء البنائية القرآنية»؛ وهو دراسة تطبيقية لما خضنا القول فيه، بشكل نظري، حول منهج التصديق والهيمنة. ويضمّ هذا الباب فصلين؛ جاء **الأول** تحت عنوان: «سورة البقرة دراسة تحليلية» تطرّقنا، من خلاله في المبحث الأول، إلى التعريف بسورة البقرة، وأهميتها، وإلقاء الضوء على السياق التاريخي الذي واكب نزولها، وغير ذلك. أما المبحث الثاني من هذا الفصل، فقد خصصناه لتحديد الموضوعات الأساسية في سورة البقرة، وهي: حديث السورة عن «القوم المفلحون»، وحديثها عن «القوم الخاسرون»، ثمّ حديثها عن موضوع الاستخلاف، وأهمية هذا الموضوع في الوجود الإنساني على الأرض، وقد تطرّقنا، كذلك، تبعاً لما هو وارد في السورة، إلى موضوع تجربة الخلافة، التي خاض فيها بنو إسرائيل. وتبعاً لتجربتهم تلك، تطرّقنا إلى موضوع ما عهده الله به لإبراهيم، ومن تلاه من ذريته، كما أنّنا خصصنا الحديث عمّا انفردت به السورة من الموضوعات التشريعية، ومن بينها: الصوم، والحج، وغير ذلك.

أمّا **الفصل الثاني**، فقد جاء تحت عنوان: «قراءة مواضيع السورة على ضوء البنائية القرآنية»، وقد خصّصنا المبحث الأول من هذا الفصل للبحث في موضوع قصة الخلق، وقضية الاستخلاف؛ إذ عرضنا، من خلاله، ما يضمه العهد القديم من نصوص حول الموضوع، مع تحليل وبيان تلك النصوص؛ إذ اعتمدنا عليها وحدها، دون أن ننظر إلى ما هو متداول في الثقافة الدينية اليهودية في فهمها وتفسيرها لتلك النصوص، إيماناً منّا بأنّ القرآن، في عملية استرجاعه النقدي لما قبله من الكتاب، يتحدّث عمّا حرّف

من الكتاب (التوراة)؛ أي العهد القديم. كما أنّنا تطرّقنا إلى ما قال به جلّ المفسرين حول الموضوع، مع بيان مدى تأثّر بعضهم ببعض، وغير ذلك. كما أنّنا تطرّقنا إلى بسط القول عن الرؤية الكلية للموضوع من داخل القرآن الكريم، وقد استحضرنا منهج المقارنة في ما قال به القرآن حول الموضوع، مع بيان ما صدقه القرآن، وما هيمن عليه، حول موضوع قصة الخلق، وقضية الاستخلاف.

وقد سرنا على الخطا نفسها في المبحث الثاني المتعلق بموضوع ما عهد الله به لإبراهيم ولذريّته من بعده، بعرض النصوص الواردة في الموضوع في العهد القديم، وعرض أقوال أهم المفسرين، وبعده بيان الرؤية الكلية للموضوع، من خلال القرآن الكريم، مع بيان ما صدقه القرآن، وهيمن عليه، في عرضه للموضوع. أمّا المبحث الثالث من هذا الفصل، فقد خصّصناه للبحث حول ما يتعلّق بطباع بني إسرائيل، كما هي واردة في سورة البقرة، بنقضهم العهد، وتقديسهم تاريخَهم، وتاريخَ آبائهم، إلى درجة إخفاء حقيقة ذلك التاريخ. وقد خصصنا المبحث الرابع لموضوع المشترك الإنساني من خلال سورة البقرة، وذلك لكون ربّ الناس رباً واحداً لا شريك له؛ وبهذا هم أمة واحدة متساوية في الخلق للرب الواحد الأحد المعبود، وقد تم -مع الأسف- إخفاء وطمس هذا المعطى من داخل نصوص العهد القديم، وهو الأمر الذي استدركه القرآن، وأكده من خلال سورة البقرة أو من خلال غيرها، فكلّ الناس يعنيهم منهج الإعمار والإصلاح في الأرض بدل الفساد فيها، وهذا لا يتأتّى إلا بالفهم السليم لموضوع الاستخلاف في الأرض.

وننبه، هنا، إلى أننا لم نُغطِّ كلّ الموضوعات الواردة في سورة البقرة؛ بل اكتفينا بالموضوعات الأساسية في السورة فحسب؛ التي نُظّم، من خلالها، الكثيرُ من الموضوعات الفرعية والتابعة لما هو محوريّ وأساسي في السورة.

ونُنبّه، هنا، إلى أننا لم نتطرّق إلى موضوع السنّة النبويّة المطهرة في علاقتها بموضوع التصديق والهيمنة؛ فهذا أمر في حاجة إلى بحث خاصّ به وحده؛ حرصاً منا على حصر الموضوع وضبطه، لعلّنا نوفّق في ما هو قادم في دراسة موضوع التصديق والهيمنة من خلال السنة النبوية الصحيحة المطهرة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

* * *

مدخـــل

موضوع وإشكالية البحث:

تُعدّ النصوص المقدسة (القرآن الكريم، والكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والعهد الجديد) نصوصاً مؤسِّسة للديانات السماوية الثلاث (الديانة اليهودية، والديانة المسيحية، والديانة الإسلامية)؛ إذ يُعدّ كتاب التوراة المُنزل على موسى عليه السلام قطب رحى شكّلت بناء الديانة اليهودية، والأمر نفسه مع كتاب الإنجيل، الذي شكّل النص المرجعي في الديانة المسيحية، وكذلك الأمر مع القرآن، الذي يُعدّ النص الأول في إرساء الدعوة الإسلامية.

وهناك نصوص أخرى، إلى جانب هذه النصوص، ولكن ليس لها الصدارة نفسها، من حيث الأولوية التي للنصوص الأولى المؤسسة. ومن ثَمَّ، العملُ على الإحاطة بـ، وفهم؛ ما عليه الديانات السماوية الثلاث، ينبغي أن يكون، بدرجة أولى، منكباً على التعاطي المباشر مع هذه النصوص، بدل الاشتغال على النصوص الكثيرة والمتعدّدة، التي ترتبط بالعلوم الدينية وغير الدينية، والتي تشكّلت إلى جانب تلك النصوص المؤسسة، وفقاً لمختلف العصور والأزمنة.

ومن الملاحظ أنّ النصوص المؤسسة هذه، التي نحن بصدد الحديث عنها، تشترك في علاج الكثير من الموضوعات، وعلى رأسها قصص الأنبياء والرسل؛ فقد تحدّث القرآن الكريم عن قصة خلق آدم عليه السلام في أكثر من

موضع، وتحدّث، كذلك، عن قصة الخليقة، مع الإشارة إلى موضوع الاستخلاف في الأرض، وما تبع ذلك، مروراً بقصة نوح، وإبراهيم، ويوسف، وموسى، وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- جميعاً؛ وهي الموضوعات نفسها، التي تضمها أسفار العهد القديم المتداول بين أيدينا اليوم. كما أننا نجد القرآن قد تحدّث عن عيسى ابن مريم، وبيّن هويته، وولادته، ووفاته، ومعاناته عليه السلام، وهو الموضوع نفسه الذي عالجه كتاب العهد الجديد.

وقد دفع هذا التشارك في عناوين الموضوعات بعضاً من الدارسين والباحثين إلى القول بأن هذه النصوص (النصوص الدينية) لها الصفات والخصوصيات نفسها، ولا يتفرد بعضٌ منها على الآخر بأيّ شيء. ومن ثَمَّ يسري عليها المنهج والحكم نفسه. ولا مانع من القول: إنّ المتأخر منها قد أخذ من السابق. ولا مانع، كذلك، من القول: إنّ السابق منها أَوْلَى من اللاحق في فهم موضوع من الموضوعات، التي تشترك حولها. ومن ثَمَّ شاع القول بأنّ نصّ القرآن الكريم يصدق عليه ما يصدق على النصوص الدينية، مثله في ذلك مثل الكتاب المقدس وغيره. وفي نظرنا أنّ القائلين بهذا القول لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث في البنى النصية لكلّ نصٍّ من هذه النصوص، بقصد الوقوف على المقومات المنهجية والمعرفية، التي تتصف بها بنية كل نص، والوقوف، كذلك، عند الحركة التوثيقية، التي صاحبت كلّ نص على حدة، فمن بين الهفوات، التي تحيط بكتاب العهد القديم، اليوم، أنه ليس بمقدور أحد أن يحدّد، بالضبط، تاريخ تدوين كلّ سفر من أسفاره، ومن ثَمَّ، بإمكاننا القول: إنّ العهد القديم يعاني من فقدان تاريخ حركته التوثيقية والتدوينية. أمّا العهد الجديد، فانتهى أمره إلى أربع نسخ، وليس نسخة واحدة. أما القرآن، فهو، على العكس من ذلك، لا يُمكن، بحال من الأحوال، أن يُقارن تاريخ حفظه وتدوينه في الصدور والسطور بتاريخ الكتاب المقدس؛ إذ من المعلوم أنّ الرسول الكريم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ترك القرآن

محفوظاً في الصدور، ومكتوباً في السطور. وقد جمع الخليفة عثمان الأمة على مصحف واحد مأخوذ عن الصحائف، التي كُتبت في زمن الرسول الكريم[1]. وبما أنّ موضوعنا، هنا، ليس المقارنة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم، من حيث جانب التدوين والتوثيق؛ إذ هذا يُعدّ موضوعاً مستقلاً وحده، يكفي أن نذكّر، هنا، بهذه الخصوصيات المعلومة والمسلم بها.

ونذكر، هنا، أنّ بنيات العهد القديم والعهد الجديد، وإن كانت تتوافق مع بنيات القرآن الكريم في الكثير من عناوين الموضوعات، التي تتعلق بالأنبياء والرسل، وبقضايا الناس وحاجياتهم الروحية والواقعية، فإنّ بنياتهما النصيّة تختلف عن بنيات القرآن الكريم؛ ففي الوقت الذي يصف القرآن نفسه بكونه كتاباً محكماً خالياً من أيّ شكل من أشكال التعارض؛ قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1]، نجد أنّ العهد القديم، والعهد الجديد، لا يفيان بهذا الشرط المنهجي. وفي الوقت، كذلك، الذي يتصف فيه القرآن الكريم بالدقة المنهجية في استعمال الكلمات والمفردات؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّسَاء: 82]، نجد أنّ نصوص العهد القديم والعهد الجديد لا تتصف بهذا الأمر، وهذا في حاجة إلى أمثلة تطبيقية سيتضمّنها البحث الذي نحن بصدده.

فعندما يصف القرآن الكريم نفسه بالإحكام، وبكونه خالياً من التعارض والاختلاف، فهذه دعوة منه لكي ننظر إليه وفقاً لهذه القاعدة المنهجية، وفي الوقت ذاته دعوة منهجيّة لننضبط لهذه القاعدة في قراءة غيره من النصوص التي سبقت الإشارة إليها. وبهذا، يكون القرآن محفزاً ودافعاً لقراءة النصوص المؤسسة قراءةً منهجيةً بدل إسقاط خصوصيّات بعضها على بعضها الآخر.

(1) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م، (د.ع.ط)، ج1، ص202-203، (بتصرف).

ونشير، هنا، إلى أنّ القصص النبوي، وغيره، أمر يخصّ الناس جميعاً، لارتباطه بجزء كبير من تاريخ الإنسانية؛ فقصة آدم تعني كلّ الناس في الأرض، كما أنّ قصة إبراهيم، وبناء البيت، تعنيهم جميعاً، كما أنّ قصة موسى عليه السلام لا تعني بني إسرائيل وحدهم، والأمر نفسه مع قصّة عيسى، التي لا تعني المسيحيين وحدهم؛ بل كلّ هذا وغيره يعني الناس جميعاً؛ فالإحاطة العلمية بمجمل حقائق هذا التاريخ قد يكون لها أثر في بسط رسالة السلم، والتحاور، والتعارف بين الأمم والشعوب، وكلّ التشوهات، التي لحقت ذلك التاريخ الكبير، قد تكون في حجب الحقيقة، وفي تقويض التعارف، وربّما سبباً في خلق فرص للتصادم دفاعاً عن تصوّرات فريق على حساب فريق آخر؛ فالأنبياء والرسل لم يكونوا متحيّزين لطائفة على حساب أخرى؛ بل كان همّهم همّ إنسانيّ يتمحور حول قيم الفضيلة والدعوة إلى إعمال العقل، وبسط رسالة السلم والأمان، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: 67]».

وما دام الأمر على هذه الحالة، فمن الأولى أن يقترب الناس من الحقيقة، ومن الصورة المكتملة لذلك القصص وغيره. وعليه، ينبغي النظر إلى النصوص المؤسسة للديانات السماوية على أنّها ملك للجميع، وليست حكراً لطائفة دون أخرى، وهي الدعوى التي جاء بها القرآن الكريم، بدعوته إلى الحوار والأخذ بالبرهان في التمييز بين ما عليه الكتاب المقدس من التبديل والتحريف للحقائق والموضوعات، وبين الإظهار والكشف والتقويم والمراجعة، التي جاء بها القرآن الكريم، لتلك الموضوعات والحقائق.

وقد كان القرآن صريحاً في أنّه لا يجبر أهل الكتاب، أو غيرهم، على الأخذ بما جاء به حول الأنبياء، والرسل، وغيرهم، «وقد صرّح، في مواطن عديدة، بأنّ بين الرسالات السماوية نظرة مشتركة لوجود إله واحد لا تتمّ العبودية إلا له، وإيماناً برسل وأنبياء مهمّتهم التبليغ، وإيماناً بالحساب

والعقاب، وقد حثّ أصحاب هذه الرسالات على الرجوع إلى كلمة سواء بينهما، وهي أن لا يشرك بعبادة الله الواحد شيء»[1].

فالقرآن يتضمّن دعوةً صريحة لإعمال العقل، والنظر، والناس، سواء في هذه النعمة؛ نعمة الإدراك والتمييز بين الحق والباطل لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 64]، فمن حقّ كلّ إنسان أن يدّعي ويتمنّى ما يشاء، ولا فائدة من الدعوى والقول إن لم يكن مدعوماً ببرهان، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: 111].

يقول بعض الغربيين (من بينهم غولدتسيهر ت1921م[2]) إنّ القرآن نسخة مهذّبة عن التوراة...[3]. وفي مجمل الأمر، نجد الغرب قد تعامل مع الكتب المنزلة على السوية بالروح النقدية نفسها، مع البناء على المسلمات نفسها، ولا يخفى أنّ في هذا التعميم من الباطل ما لا يقبله عقل[4]؛ إذ من التعسف العلمي والمنهجي أن ينظر إلى القرآن الكريم، وهو يعرض على البشرية قصص الأنبياء والرسل وغير ذلك من الموضوعات، دون استحضار أنّه كتاب يتّصف بخصوصيّة منهج التصديق والهيمنة على ما قبله من الكتب، وهو منهج قد أخصّ الله به كتابه القرآن دون غيره من كتبه لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48].

---

(1) الباش، حسن، القرآن والتوراة، دار قتيبة، دمشق، ط2، 2013م، ص5.

(2) انظر: جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دار الكتب الحديثة، مصر، ط2، 1959م، ص12.

(3) المرجع نفسه، ص17.

(4) عبد الرحمن، طه، بؤس الدهرانية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014 م، ص76، (بتصرف).

وأهمّ ما نفهمه من هذه الآية كون القرآن الكريم ينصّب نفسه خطاباً معيارياً لعملية المراجعة النقدية لما قبله من الكتب. وهذا يعني أنّ تلك الكتب قد لحقها التحريف والتبديل، وجاء القرآن، ليصدق ويكشف، بفعل الهيمنة، عن الهدى والنور، الذي قالت به تلك الكتب، وتمّ تحريفه وتبديله، وإلا فما الفائدة من إعادة القرآن الكريم لتلك الموضوعات، التي سبقه إليها الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)؟!

تبعاً لهذا السياق، يتحدّد موضوع هذا البحث، الذي يمكن اختزال إشكاليّته في إطار استفهامي يأتي كالآتي:

ماذا يعني منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم؟ وما مقومات هذا المنهج؟ وما الغاية والقصد الكامن وراء الأخذ بهذا المنهج في فهم وتحليل ما جاء به القرآن الكريم في علاقته بما سبقه من الكتب؟

هدف البحث وأهميته:

نودّ الإشارة، بدايةً، إلى أنّ هذا الموضوع ينتمي إلى حقل علم مقارنة الأديان، وهو علم «أصبح من العلوم المعترف بها في الغرب، له خصائصه، وميزاته، وتداخلاته مع علم الأساطير(الميثولوجيا)، ومع علم الإنسان (الأنتربولوجيا)، وعلم الاجتماع، وغيرها من العلوم»[1]. ونحن في حاجة ماسّة إلى هذا العلم اليوم أكثر من قبل، وذلك نتيجة الثورة المعلوماتية، التي كانت وراء إزالة الحدود، وأصبحت المعلومات متداولة بشكل غير مسبوق، إلى درجة سار العالم فيها مثل القرية الصغيرة. وبما أنّ النصوص المؤسسة للديانات السماوية، كما أشرنا من قبل، تشكّل محور البناء الثقافي لمجمل الأمم والشعوب في العالم، فمن الضروري بسط النظر من جديد وفقاً للمقتضيات العلمية، التي يتصف بها الزمن الذي نحن فيه، فيما تتضمّنه تلك

(1) القرآن والتوراة، (م.س)، ص7.

النصوص بمعزل عن النصوص الدينية الأخرى، والتفسيرات التي تحيط بها، أخذاً بمنهج التصديق والهيمنة الذي أشرنا إليه سابقاً، بقصد تعميم الصواب والفائدة بدل الخطأ.

وننبّه إلى أنّ موضوع هذا البحث، على الرغم من انتمائه إلى مجال علم الأديان المقارن، لا يسعى إلى البحث في الديانات التوحيدية من حيث أصولها ونشأتها، ومدى التفرعات الحاصلة من داخلها على مستوى الاعتقاد، والتصور، والمذهب، وما رافق ذلك من تحوّلات ثقافية، بتتبّع الظاهرة الدينية بمختلف أنماطها في بعدها الاجتماعي والتاريخي وغير ذلك، كما أنّه لا يسعى إلى البحث في النصوص المؤسسة من حيث نشأتها، ونزولها، وجمعها، وتدوينها، وما تبع ذلك من المباحث، التي تبحث في النصوص الدينية من حيث التشكّل التاريخي؛ بل ينحصر مجال البحث لدينا في العمل على الكشف المنهجي لطبيعة العلاقة، التي تحكم القرآن الكريم، بما سبقه من الكتب، وهي العلاقة التي سماها القرآن، ووصفها بمنهج التصديق والهيمنة.

وتكمن أهمية البحث في هذا الموضوع (منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم) في العمل على استخراج الآليات والمنهج، الذي يستبطنه القرآن الكريم في تصحيحه لكلّ ما حُرِّف في الكتب السماوية، مع العلم بأنّه الكتاب المحفوظ بالعناية الربانية. فلا أحد له القدرة على أن ينسيه، أو يخفي بعضه، ويظهر بعضاً آخر، وهو، كذلك، الكتاب الخاتم، الذي جاء به النبي الخاتم، الرحمة المهداة إلى الناس أجمعين، كما أنّ الهدف من هذا الموضوع يكمن في العمل على تحرير ما عَلِق في الأذهان في تعاملها ونظرتها إلى القرآن، وما توارثه الناس عبر الأزمان، ولم يدلَّ عليه القرآن، وللأخذ بأروع ما استنبطه ذوو الألباب والأفهام من مكنون القرآن في كلّ زمن.

إنّ هذا البحث، في جزء كبير منه، ينطلق من القرآن الكريم، ويعود إليه؛ إذ تقتضي الضرورة المنهجية أن نقف عند الخصوصيات المنهجية والمعرفية، التي اتصف بها كتاب القرآن الكريم دون غيره من الكتب، وذلك بوصفه خطاباً يتّصف بالكونية، والعالمية، والعلمية، ما يجعله يرقى ويتجاوز السقف المعرفي الذي يظلّلنا اليوم، باعتباره خطاباً مفتوحاً على الكون والإنسان. وبقصد استجلاء كلّ هذه الخصوصيات وغيرها، كان من الضروري أن نشتغل على الخطاب القرآني بالعمل على استجلاء مفرداته من داخل سياق الآيات والسور القرآنية، وهذا لا يعني أننا لم نستحضر ما ورد في المعاجم حول الاصطلاحات، التي لها علاقة بالموضوع الذي نحن بصدده؛ بل جعلنا ما خلصنا إليه من تحديد في المفردات والمصطلحات من داخل السياق القرآني غير مرتهن لما هو وارد في معاجم اللغة العربية، وذلك حتى لا تلقي تحديدات المعاجم اللغوية للمصطلحات، التي لها علاقة بالموضوع، بظلالها على ما جاء به القرآن، وما دعا إليه في الموضوع.

وننبّه، هنا، كما أشرنا من قبل في مقدمة البحث، إلى أنّنا لم نتطرّق إلى نصوص السنة النبوية المطهرة في علاقتها بموضوع التصديق والهيمنة؛ فهذا أمر في حاجة إلى بحثٍ خاص به وحده؛ حرصاً منّا على حصر الموضوع وضبطه.

ففي تقديرنا أنّ أول «ما يحتاج أن يشتغل به في علوم القرآن... هو تحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن، في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيَه... وفي كونه من أوّل المعاون في بناء ما يريد أن يبنيَه»[1]، وأهمّ شيء ننبّه إليه، هنا، هو كون الاستعمال القرآني لمفردات اللغة العربية يتفرّد عن الاستعمال المتداول في الشعر العربي وغيره.

---

(1) أبو القاسم، حسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، (د.ت.ط)، ص6، (بتصرف).

فالمفردة القرآنية دقيقة من حيث الاستعمال اللغوي، واسعة المعنى والدلالة، ويزداد معناها اتساعاً في صلة بعضها ببعضها الآخر، بشكل لا حدّ فيه للمعنى والدلالة من داخل السياق الكلي للقرآن الكريم، فضلاً عن أنها تلتقي مع الكثير ممّا توصل إليه العلم من الحقائق في مختلف المجالات؛ فهي تحتوي، في داخلها، على آيات الله المبثوثة في الخلق، وبهذا هي تذكرة لمن شاء التذكرة؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ: 45]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحَاقَّة: 48].

ولا ندّعي أنّ البحث في هذا الموضوع غير مسبوق؛ إذ قال فيه المفسرون برأي، وقد جئنا على ذكر أقوالهم وآرائهم حول هذا الموضوع، كما أوردنا وجهات نظر عدد من المفكرين المحدثين، الذين دعوا إلى الخروج من النظرة التجزيئية في قراءة السور والآيات القرآنية، والعمل على قراءتها من خلال السياق الكلي الذي يحكمها من داخل البنائية القرآنية، وبدعوتهم هذه أقرب إلى الموضوع الذي نبحث فيه.

المنهج المتبع في البحث:

ينهض هذا البحث، وفق ما تقدّم، على شقين؛ الأول نظري والثاني تطبيقي. بسطنا القول في الشق النظري بالعمل على تحديد المفردات المؤسسة للموضوع، والمرتبطة به، كما بينّا فيه الخصوصيات المنهجية، التي يتصف بها الخطاب القرآني عن غيره؛ ممّا جعله كتاباً مختصاً بفعل التصديق والهيمنة على ما قبله من الكتب، كما بينّا، من خلاله، طبيعة العلاقة المنهجية، التي تربط كتاب القرآن بما سبقه من الكتاب، فضلاً عن أننا حددنا ما نعنيه بمنهج التصديق والهيمنة، كما بينّا الآليات، التي تحدث عنها القرآن الكريم، وهو يكشف عملية التحريف والتبديل لما سبقه من الكتب، وقد تدارك القرآن الكريم، بفعل الهيمنة والتصديق، تلك التحريفات التي تحدث عنها.

أمّا الشق التطبيقي، فقد وقع اختيارنا فيه على سورة البقرة، نظراً إلى كونها أطول سورة في القرآن، فضلاً عن أنّها ناقشت أهل الكتاب بشكل كبير في موضوعات وقضايا في غاية الأهمية، مثل موضوع الخلق والخليقة، وغيره من الموضوعات. والغاية من هذا الشق التطبيقي أن نبين أوجه التصديق والهيمنة من داخل القرآن الكريم، وهو يقدم لنا مراجعة نقدية تصحيحية لما سبقه من الكتاب. وقد اعتمدنا في هذا الشق التطبيقي على آلية المقارنة بين الآيات القرآنية، وما هو وارد في أسفار العهد القديم، وقد مكنتنا المقارنة لنقف عند الإضافات والتوجيهات التي قال بها القرآن الكريم.

أما عن المنهج، الذي سنتوسل به للغوص في أغوار هذا الموضوع، فسنحكم السياق في فهم وتجلّي معنى ودلالة المفردات، ودراسة وتحليل الآيات، التي لها علاقة وطيدة بالموضوع الذي نحن بصدده في شقه النظري وشقه التطبيقي، والذي نتوخاه من الأخذ بالسياق في استخراج وتحديد معاني المفردات، ودراسة الآيات وتحليلها، هو السعي المنهجي لفهم المعاني من داخل البنائية القرآنية.

كما أننا سنعتمد آلية المقارنة بين مضمون النصوص المرتبطة بموضوع البحث الواردة في العهد القديم من جهة، وبين الآيات القرآنية، فضلاً عن استحضار آراء أهمّ المفسرين حول بعضٍ من موضوعات البحث، والذي نتوخّاه من آلية المقارنة هذه هو العمل على الاقتراب المنهجي من العمل على إظهار أوجه التصديق والهيمنة في القرآن الكريم المتعلقة بموضوع البحث؛ ولهذا بإمكاننا القول: إنّ المنهج، الذي سنعتمده، يشتمل على الأخذ بالسياق في تحديد المفردات، ودراسة الآيات وتحليلها، مع توظيف آلية المقارنة بين نصوص العهد القديم والآيات القرآنية.

* * *

الباب الأول

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

الفصل الأول

البناء المفاهيمي

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ [المَائدة: 48]. تعد المصطلحات والمفاهيم بمقام اللبنات، التي يؤسس عليها المنهج، بغض النظر عن هوية المنهج وأصوله المعرفية؛ فكل عمل منهاجي قد تنضوي تحته مجموعة من المصطلحات والمفاهيم التي تميزه عن غيره[1].

وكما سبقت الإشارة، إن الآية (48) من سورة المائدة هي وحدها التي ورد فيها الحديث في القرآن الكريم حول موضوع التصديق والهيمنة بالربط الدلالي بين مفردة التصديق ومفردة الهيمنة، ومفردة الكتاب ومفردة الحق، وتدور في سياق الحقل الدلالي لهذه المفردات مجموعة من المفردات الأخرى، سنعمل على تجلية مفهومها ودلالاتها من خلال المباحث الآتية.

ففي المبحث الأول من هذا الفصل، سنروم ضبط هذه المفردات الملتصقة بالموضوع المبحوث فيه، وفقاً لما هو وارد في معاجم اللغة، ووفقاً لما هو متداول من حيث استعمالاتها الاصطلاحية، وفي المبحث الثاني، سنعمل على استجلاء تلك المفردات والاصطلاحات وفقاً للسياق الكلّي الواردة فيه من داخل القرآن الكريم.

---

(1) أبو الفضل، منى، التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1417هـ/ 1996م، ص8.

المبحث الأول

دراسة مفهومية

تمهيد:

تقتضي شروط البحث العلمي ضبط المصطلحات وتحديدها تحديداً علمياً، ولهذا؛ «الطريق الأسلم والمنهج الأحكم إلى أيّ علم من العلوم هو أن يؤتى ذلك العلم من أبوابه، وما من مسلك يتوسل به، إلى فتح أبواب العلم، غير العلم بمصطلحاته»[1]. ومن هذا المنطلق، كان الاهتمام بعلم المصطلح من لدن القدماء. والذي يدلّ على هذا الكثير من الكتب التي تمّ تأليفها من لدن العلماء الأقدمين، والتي عُنيت بموضوع المصطلح، ونجد من بينها كتاب (**الألفاظ المستعملة في المنطق**) للفارابي (ت 339هـ)، وكتاب (**مفاتيح العلوم**) للخوارزمي (ت 232هـ)، وكتاب (**اصطلاحات الصوفية**) لعبد الرزاق الكاشاني (ت تقريباً 730هـ)، وكتاب (**المفردات**) للراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، وغيرها من الكتب. إلا أنّه من الملاحظ أنّ اهتمام الدارسين العرب بالمصطلح، وبالدراسات المصطلحية، بتنوع مجالاتها في الوقت الحاضر، جديد وقليل بالنظر إلى المكتبة العربية الإسلامية الحديثة اليوم. أما فيما يتعلق بالمصطلح في المجال القرآني، فالدرس والبحث فيه مازال قليلاً[2].

فقد تمّ الإعراض عن البحث في المصطلح، بعد جهد الأقدمين، لوقت طويل من الزمن، وهذا ما جعل الفكر العربي والإسلامي يعرف تداولاً واسعاً لمصطلحات عدة، «معظمها قادم من الثقافة الغربية، ومن علوم وأنظمة معرفية مختلفة، من دون محاولة مستمرّة وجادة لضبطها، وتحديدها... الأمر

(1) زمرد، فريدة، مفهوم التأويل في القرآن الكريم، مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، ط1، 2013م، ص21.

(2) المرجع نفسه، ص35.

الذي خلف ظاهرةً يمكننا أن نسميها ظاهرة الرخاوة الاصطلاحية»[1]. ومن المعلوم أنّ الوعي بالمصطلح وأهميّته في التعاطي مع حقول المعرفة قد تشكّل في القرن الثامن عشر الميلادي في أوربا، وتعمّق كثيراً في بداية القرن العشرين بظهور اللسانيات الحديثة، والاهتمام بموضوع اللغة[2]، الأمر الذي جعل الكثير من الدارسين العرب ينبهون إلى هذا الأمر.

والجدير بالإشارة، هنا، أنّ الغاية والهدف من البحث في المصطلحات، سواء من حيث علاقتها بكل علم على حدة، أم من حيث البحث في تطوّرها في علاقة بعضها ببعض وغير ذلك، ليس المصطلحات في حدّ ذاتها، أو لذاتها، فـ: «دراسة المصطلح موثوقة العرا بدراسة النص الذي تنتمي إليه، كما أنّها لا تنفكّ عن المجال المعرفي الذي توجد فيه، وهذا ما يجعل موضوعها ليس المصطلحات فحسب؛ بل النصوص المشتملة على المصطلحات أيضاً»[3]؛ لذا ستكون الدراسات، التي تُعنى بالمصطلحات من حيث موضوعها، أو منهجها، أو إجراءاتها، محكومةً بهذا (الأصل)؛ أي النصوص التي تنتمي إليها تلك المصطلحات، ومن ثَمَّ الغاية من تتبع المصطلحات ودراستها هي النتائج التي فهمت، واستخلصت من نصوص المصطلح وما يتّصل به، وتصنيفها تصنيفاً مفهومياً يجلي خلاصة التصور المستفاد لمفهوم المصطلح المدروس في المتن المدروس[4].

ومن ثَمَّ، سيكون التعاطي مع الخطاب القرآني، من حيث تحديد مصطلحاته ومفرداته، وفقاً لهذا الأساس، بتتبّع مفرداته، وبالوقوف على

(1) الحاج، عبد الرحمن، الخطاب السياسي في القرآن، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص19، (بتصرف).

(2) المرجع نفسه، ص22.

(3) المرجع نفسه، ص39.

(4) الشاهد، البوشيخي، نظرات في منهج الدراسات المصطلحية، بحث مرقون قدم إلى الندوة العلمية التي نظمتها جامعة قطر في الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني، 1999م، ص8. نقلاً عن: مفهوم التأويل في القرآن، (م.س)، ص49، (بتصرف).

العلاقة التي تربط بعضها ببعض بقصد تجلية مفهومها من داخل الخطاب القرآني. ويمكن تعريف المصطلح القرآني بأنّه هو «ما كان لفظه منتمياً إلى نصّ القرآن الكريم المحدّد بالفاتحة ابتداءً، وسورة الناس انتهاءً، وما كان مفهومه مستمداً من التصور القرآني. واشتراط هذين الشرطين يخرج من دائرة المصطلح القرآني ما كان اللفظ فيه غير موجود في القرآن الكريم، وإن حمل دلالة قرآنية»[1]. وسنأتي على بيان الكلمات والمفردات، التي لها علاقة بالموضوع الذي نحن بصدده فيما هو قادم، وفقاً لهذه الطريقة والمنهج، وقبل ذلك سنتوقّف عند تقريب تلك المصطلحات التي لها علاقة بالموضوع المبحوث فيه من خلال معاجم اللغة وغيرها.

الكتاب:

الكتاب من حيث اللغة: «الكتاب اسم لما كتب مجموعاً، والكتاب مصدر... وكتاب الله جائز أن يكون القرآن، وأن يكون التوراة... والكتاب: الصحيفة والدواة»[2]. وجاء في معجم (**العين**) للخليل بن أحمد «كتب: الكَتْبُ: خرز الشيء بسير، والكُتْبَةُ: الخرزة التي ضمّ السير كلا وجهيها... والكَتْبُ: الخرزُ بسيرين، والكِتابُ: الكتابة؛ مصدر كتبت. والمُكْتِبُ: المعلم. والكُتَاب: مجمع صبيانه. والكَتيبةُ من الخيل: جماعة مستحيزة. والكِتْبة: الاكتتاب في الفرض والرزق، واكْتَتَبَ فلان؛ أي: كَتَبَ اسمه في الفرض. والكتِبةُ: اكتتابُكَ كتاباً تكتبه وتنسخه»[3]. و«الكتب: ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة... وفي التعارف: ضمّ الحروف بعضها إلى بعض بالخط. وقد

---

(1) مفهوم التأويل في القرآن، (م.س)، ص62.

(2) أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م، ج5، ص370.

(3) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د.ت)، ج5، ص342.

يُقال ذلك لمضموم بعضها إلى بعض باللفظ؛ فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، ولهذا سُمّي كلام الله، وإن لم يكتب كتاباً لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: 1-2][1].

هذا من حيث اللغة، أمّا من حيث الاصطلاح، فقد أورد السّيوطي أن الكتاب اسم من أسماء القرآن[2]، وهو جامع للسور والآيات، وللمعاني، والحقائق، والحلول، التي يتطلّع إليها البشر. وهو المعنى الذي قال به الشافعي في مثل قوله: «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدّليل على سبيل الهدى فيها»[3]. والسر في تسميته باسم الكتاب كونه مدوناً بالأقلام.

الذِّكْر:

الذكر من حيث اللغة: «الحفظ للشيء نذكره، وهو جري الشيء على لسانك، وهو الصيت والثناء، وهو الشرف. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرُف: 44]؛ أي أنّ القرآن شرف لك ولهم، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشَّرح: 4]؛ أي شرفك. وقيل: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي»[4].

والذكر ذكران: «ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكلّ واحد منهما ضربان؛ ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان؛ بل عن إدامة الحفظ.

فمن الذكر باللسان، قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبيَاء: 10]. وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]. ومن الذكر

(1) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص423.

(2) السيوطي، جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1407هـ/ 1987م، ج1، ص143-146.

(3) الشافعيّ، محمد بن إدريس، الرّسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر، (د.ط)، 1409هـ، ص20.

(4) لسان العرب، (م.س)، ج2، ص464-465.

عن النسيان قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: 63]»[1].

أمّا من حيث الاصطلاح، فعلماء القرآن يرون أنّه اسم للقرآن الكريم. يقول أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، في هذا الصدد: «إنّ للقرآن أسماء أربعة: القرآن، والفرقان، والكتاب، والذكر. وسائر ما يسمّى صفات لا أسماء»[2].

الفرقان:

الفرقان من حيث اللغة: «فرق بينهما فرقاً وفرقاناً بالضم: فصل، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخان: 4]؛ أي يقضى. وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسرَاء: 106]؛ فصلناه وأحكمناه. وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البَقَرَة: 50] فلقْناه. وقوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ [المُرسَلات: 4]، الملائكة تتنزل بالفرق بين الحق والباطل»[3]. ونظير الفرقان «هو الخسران... وفي الحديث: «محمد فَرْقٌ بين الناس»؛ أي فرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه، وتكذيبه. والفرقان: الحجة»[4]. والفرقان «كلام الله تعالى؛ لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق، والكذب في المقام الصالح والطالح في الأعمال، وذلك في القرآن والتوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [البَقَرَة: 53]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ...﴾ [الفُرقان: 1]. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

---

(1) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص179.

(2) أبو القاسم، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، الدار العربية للكتاب، بيروت، (د.ت)، ص5.

(3) الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1420هـ/ 2000م، ج2، ص215.

(4) لسان العرب، (م.س)، ج5، ص121 وحديث «محمد فرق بين الناس» ذكره ابن الأثير في: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (فرق).

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾... [البَقَرَة: 185]، ويوم الفرقان: اليوم الذي يفرق فيه بين الحق والباطل، والحُجّة والشبهة. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفَال: 29]؛ أي نوراً وتوفيقاً على قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل»[1].

أما من حيث الاصطلاح، فالفرقان، عند علماء القرآن، يُعدّ اسماً من أسماء القرآن[2]، وهو مصدر أُطلق على القرآن فأضحى علماً، فكلام الله كلام يفرق بين الحق والباطل، كما أنّه مفروق بعضه عن بعض في النزول والسور والآيات[3].

القرآن:

القرآن من حيث اللغة: سُمي القرآن؛ لأنّه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض[4]. «قارأه مقارأة وقراء: دارسه»[5]. وهو اسم الكتاب الذي أُنزل على محمد ﷺ.

و«القِرَاءَةُ: ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في التّرتيل، وليس يُقال ذلك لكلّ جمع، لا يُقال: قرأت القوم، إذا جمعتهم، ويدلّ على ذلك أنّه لا يقال للحرف الواحد، إذا تفوّه به، قراءة. والْقُرْآنُ، في الأصل، مصدر، نحو: كفران، ورجحان»[6]. يعني: القراءة والاقتران والقارئ

---

(1) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص277- 278.

(2) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، مصر، (د.ت. ط)، ص16.

(3) الصباغ، محمد لطفي، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ص42.

(4) لسان العرب، (م.س)، ج5، ص219.

(5) القاموس المحيط، (م.س)، ج1، ص115.

(6) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، أبو القاسم، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ، ص68.

والقرآن. والأصل في هذه الكلمات هو الجمع، فكلّ شيء جمعته فقد قرأته[1].

أما من حيث الاصطلاح: فهو كلام الله، ووحيه المنزل على محمد بن عبد الله ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المُتعبّد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه[2]. وقد رُوِيَ عن الرسول ﷺ، في وصفه القرآن، قوله: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة ردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي من عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[3] وفي تقديرنا **أنّه** ينبغي التعامل المنهجي والعلمي مع قول الرسول هذا. فقوله، مثلاً: «فيه خبر ما قبلكم»، لا يعني أن القرآن الكريم كتاب في التاريخ، ولكنّه يضم مداخل معرفيّة تتعلق بأصل الخلق والخليقة، كما أنه يضم العديد من الإشارات، التي تذكرنا، وتشكّل لنا مدخلاً في فهم العديد من الحضارات الغابرة مثل: عاد وثمود... وحتى نرتقي إلى تلك المداخل المعرفية، التي يكتنزها القرآن الكريم، لا بُدّ من استحضار العلوم الحديثة بمختلف تخصّصاتها.

الحق:

الحق في اللغة: «نقيض الباطل، وجمعه حقوق... وهو أمر النبي ﷺ، وما أُوتي به من القرآن. وحقّ الأمر يحقّه حقاً وأحقه: كان منه على يقين... وحققتَ

---

(1) حليلي، عبد الرحمن، القراءة والتلاوة والتدبر والتنزيل، دار الملتقى، حلب، سورية، ط1، 2011م، ص7.

(2) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، (م.س)، ص25.

(3) رواه الترمذي، رقم: 2906.

الأمر إذا كنت على يقين منها، والحق من أسماء الله تعالى، وقيل: من صفاته»[1]. وأصل الحق: المطابقة والموافقة، والحق يقال على أوجه «هي:

أ- يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل في الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 62].

ب- يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال فضل الله -تعالى- كله حق، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يُونس: 5]. وقال سبحانه: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البَقَرَة: 147]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾ [البَقَرَة: 149].

ج- في الاعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث، والثواب، والجنة، والنار. قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [البَقَرَة: 213].

د- للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يُونس: 33]، وقوله: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السَّجدَة: 13]»[2].

ومن بين ما عُرف به الحق في الاصطلاح، قول الجرجاني بهذا الشأن: هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال، والعقائد، والأديان، والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل[3]. والحقّ من أسماء الله الحسنى، وقيل من صفاته[4].

الباطل:

الباطل في اللغة: مأخوذ من «بطل: بطلاً وبطولاً وبطلاناً، بضمّهن.

(1) لسان العرب، (م.س)، ج2، ص129.
(2) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص125.
(3) الجرجاني، علي محمد، التعاريف، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ع.ط)، 1405هـ، ص67.
(4) لسان العرب، (م.س)، ج2، ص122.

ذهب ضياعاً... والباطل ضد الحق... ورجل بطال: ذو الباطل، وتبطلوا بينهم: تداولوا الباطل»[1]. ونقيض الحق «هو الباطل، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحَجّ: 62]. ويقال في إفساد الشيء: إزالته حقاً ...قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفَال: 8]»[2].

أما في الاصطلاح، فهو نقيض للحق، ما خالف الحقيقة والصواب كما تقدم.

التصديق:

التصديق في اللغة مأخوذ من الصدق، وهو نقيض الكذب... والمصدق الذي يصدقك في حديثك[3]. «والصدق والكذب أصلهما في الحديث، ماضياً كان أو مستقبلاً، وعداً كان أو غيره. لا يكونان بالقصد الأول إلا في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام».

أما في الاصطلاح، فكون القرآن مصدقاً لما قبله يعني غير مكذب له. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البَقَرَة: 89]. وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: 12]؛ أي «مصدق لما تقدم»[4]. ولكنّ تصديقه هذا تصديق مصحوب بفعل الهيمنة؛ أي مصدق ومهيمن في الوقت ذاته.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّسَاء: 122]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النِّسَاء: 87]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مَريَم: 54]، والتصديق يستعمل في كلّ ما فيه تحقيق. يقال: صدقني فعله وكتابه.

---

(1) القاموس المحيط، (م.س)، ج2، ص1279.
(2) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص50- 51.
(3) لسان العرب، (م.س)، ج6، ص358-359.
(4) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص277- 278.

الهيمنة:

المُهَيْمِنُ والمهيمَن اسمٌ من أسماء الله -تعالى- في الكتب القديمة، وفي التنزيل. ومهيمناً عليه: قال بعضهم معناه الشاهد؛ يعني وشاهداً عليه. والمهيمن هو الشاهد، وهو من أمِنَ غيرَه من الخوف. وأصله أَمَنَ فهو مُؤَأْمَنٌ بهمزتين قُلِبَت الهمزة الثانية ياءً، فصارت مؤيْمنٌ ثم صارت الأولى هاء... وقال بعضهم: مهيمن معنى مؤيمن، والهيمنة: هي القيام على الشيء... المهيمن، المؤتمن... الشهيد... ومهيمناً عليه: قيل قائماً على الكتب»[1]. وقد عرضنا أقوال أهم المفسرين حول فهمهم لموضوع التصديق والهيمنة في القرآن الكريم[2].

المبحث الثاني

تحديد المفاهيم على ضوء البنائية القرآنية

تمهيد:

سيكون عملنا في هذا المبحث، كما أشرنا في السابق، منصباً حول تجلية مدلول العديد من المفردات القرآنية على ضوء البنائية القرآنية، وذلك بالحرص على تجلية المعاني الكلية، من خلال تتبع جزئيات المعاني، التي تصبّ وتجتمع فيما هو عام وكلي، وعياً منا بكون القرآن الكريم يشكّل وحده حقلاً دلالياً[3] مستقلاً عن غيره من الحقول الدلالية الأخرى، التي من بينها الحقل الدلالي للشعر العربي زمن النزول وبعده. فالاستعمال القرآني لكلمات

(1) لسان العرب، ج6، ص358-359.

(2) انظر: المبحث الأول، من الفصل الثاني، من الباب الأول، من البحث الذي نحن بصدده.

(3) عُرف الحقل الدلالي بكونه مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها وتوضع بمادة تحت لفظ عام يجمعها، مثل: كلمة ألوان، فهي تقع تحت المصطلح العام لون، وتضمّ ألفاظاً مثل: أحمر، أزرق، أبيض... انظر: مختار، أحمد، علم الدلالة، دار العروبة، الكويت، ط1، 1982م، ص79.

اللغة العربية نفسها ليس هو الاستعمال نفسه المتداول في الشعر الجاهلي. ونضرب مثالاً في غاية الأهمية على هذا الأمر المنهجي يتعلق باسم (الله)، «فهو لم يكن مجهولاً بتاتاً لدى العرب الجاهليين، وذلك ما تؤكّده حقيقة أنّ هذا الاسم لا يظهر في الشعر الجاهلي، وفي أسماء الأعلام المركبة فحسب؛ بل في النقوش القديمة أيضاً. وإن بعض الناس، أو بعض القبائل في الجزيرة العربية، على الأقل، كانت تؤمن بإله يدعى (الله)»[1]. ولكن هذا الإيمان كان يشوبه الشرك، ولا يعترف بوحدة الخالق، ما يجعل هذه الكلمة، في الشعر الجاهلي، أقل قيمة، وأقل أهمية، وليس لها تأثير في غيرها من الكلمات التي تحيط بها، وهي الكلمة نفسها، التي اكتسبت، في الحقل الدلالي القرآني، المكانة المركزية العليا في التعبير عن وحدة الخالق، ولا تفوقها كلمة أخرى في المكانة والأهمية[2]. والأمر نفسه ينطبق على كثير من الكلمات، من بينها كلمة إسلام، وكلمة إيمان، وكلمة كافر، وكلمة كتاب... ويحقّ لنا القول: إنّ القرآن كان مصدقاً ومهيمناً على مصطلحات اللغة العربية، فوجه تصديقه على مفردات اللغة العربية يكمن في استعماله وتوظيفه لمفرداتها، أمّا وجه هيمنته على اللغة العربية، فيبدو من خلال استعماله الخاص والمتفرد لمفرداتها، وفقاً لنظمه الخاص؛ إذ أخذت مفردات اللغة حمولات معرفية مفارقة عمّا كان متداولاً في لغة الشعر، كما أشرنا من قبل.

ونشير، هنا، إلى أنّ الكلمات من داخل القرآن تتّصف بمستويين من المعنى: المعنى الأساسي، والمعنى العلاقي، فالأوّل يكون أساسياً في معنى الكلمة، أمّا الثاني؛ أي: العلاقي، فهو المعنى الذي تكتسبه الكلمة من داخل الحقل الدلالي القرآني في علاقتها بالكلمات الأخرى[3]؛ فمثلاً كلمة

---

(1) إيزوتسو، توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن، ترجمة محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م، ص35.

(2) المرجع نفسه، ص157.

(3) المرجع نفسه، ص43.

(كتاب) تعني، بصورة أساسية، الشيء نفسه، سواء وُجدت داخل القرآن أم خارجه، فهي لها معنى أساسي معين، ولكنها قد أخذت معنى آخر من داخل الحقل الدلالي القرآني، تبعاً لعلاقتها بالعديد من الكلمات ذات الأهمية، مثل كلمة (الله)، وكلمة (وحي)، وكلمة (أهل)، فهي تعني من بين ما تعني، في الحقل الدلالي القرآني، إذا راعينا علاقتها بكلمة أهل، الناس الذين لديهم كتاب موحى، وهم المسيحيون، واليهود.

إن «القرآن الكريم، وهو يتنزّل، كان يعطي ألفاظه، التي هي عماد الدين، معانيَ محكمة في العقيدة أو الشريعة»(1). ولهذا، المفردة القرآنية دقيقة ومحكمة من حيث الاستعمال اللغوي، وواسعة المعنى والدلالة، ويزداد معناها اتساعاً في صلة بعضها ببعضها الآخر بشكل لا حدّ فيه للمعنى والدلالة، كما أنّها تلتقي مع الكثير ممّا توصل إليه العلم من الحقائق في مختلف المجالات؛ فهي تحتوي، داخلها، على آيات الله المبثوثة في الخلق، وبهذا، هي تذكرة لمن شاء التذكرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحَاقَّة: 48]. وقال أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ: 45].

فالمفردة القرآنية ليست، بأيّ حال من الأحوال، هي المفردة نفسها في الشعر العربي، وغيره، من حيث الاستعمال اللغوي والبلاغي؛ بل لها نظمها الخاص داخل البنائية القرآنية، ولعلّ هذا ما يشير إليه الحقّ سبحانه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿41﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿42﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحَاقَّة: 41-43]؛ فالحق -سبحانه- لا يرضى لنا أن نتعامل مع تنزيله وفق الكيفية والمنهج، الذي نتعامل به مع نظم الشعراء، والكهنة، والرهبان، وغيرهم، كي لا يصبح تنزيله تابعاً بدل أن يكون متبوعاً،

(1) شبار، سعيد، المصطلحات والمفاهيم في الثقافة الإسلامية: بين البناء الشرعي والتداول التاريخي، منشورات المجلس العلمي الأعلى المغربي، ط1، 2010م، ص7.

ومسبوقاً بدل أن يكون سابقاً، وبهذا تضيع التذكرة والتذكير الذي جاء التنزيل من أجله.

إنّ الله يريد منّا أن نرتقي بمستوى الوعي بالمفردة في الاستعمال البشري، إلى الوعي بالمفردة في السياق القرآني؛ قال تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحَاقَّة: 12]. فالآيات، التي سبقت هذه الآية، ذكرت ما لحق القوم الذين لم يعوا آيات الله، وكذبوا بها، من العذاب والمصيبة، كثمود، وعاد، وفرعون، فما حلّ بهم ما هو إلا آيات لنا من الله في زمن ومكان محددين، وبشكل محسوس؛ فالذي يذكرنا بتلك الآيات في الأمم الخالية هي المفردات القرآنية، إن حصل لنا الوعي بمعانيها ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ [الحَاقَّة: 12] خاصة في حالة الارتقاء بالوعي إلى مستواها ﴿تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحَاقَّة: 12]، لكن ما المقصود بالأذن الواعية؟

الواعية، هنا، نسبة إلى الوعاء الذي يحتوي على الشيء، ويحيط به، إلا أنّ الوعي يحتوي على المعاني فحسب؛ فالأذن الواعية هي التي تحتوي على المعاني والدلالات في أبعادها غير المتناهية. والأمر، هنا، يتعلق بوظيفة السمع، كونه يُعد سبيلاً أساسياً في تحقيق طبيعة الإنسان الثقافية والمعرفية، فبالسمع يستطيع الإنسان تعلّم اللغة والرموز الثقافية، وهي أبرز ما يتميّز به الإنسان عن المخلوقات الأخرى؛ ولهذا نجد أنّ الحاسة الأولى، التي يعتمد عليها المولود، هي السمع، وتليها الحواس الأخرى. والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أنّ السمع يأتي، في غالب الآيات القرآنية، سابقاً للبصر[1]، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسَان: 2]، وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: 11]، وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(1) الذوادي، محمود، وعلم آدم الأسماء كلها: في ميزان نظرية الرموز الثقافية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 75، سنة 2014م، ص175-176، (بتصرف).

سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمَان: 28]. ومن ثَمَّ، الأذن الواعية يترتّب عليها تفعيل لملكات العلم والمعرفة. أمّا غير الواعية، فهي عكس ذلك؛ فالوعاء المقطع الأطراف يستحيل أن يحتوي على أيّ شيء. ولنتمعن في الآيات الآتية؛ قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: 76]؛ أي أنّ وعاء أخيه كان محتوياً على صواع الملك المبحوث عنها .قال تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿17﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعَارج: 17-18]. قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿22﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق: 22-23] ؛ أي أنّ الله أعلم بما تحتوي عليه سرائرهم من العناد، والكفر.

ولهذا، يريد الله منا أن تكون لنا آذان، ووظيفتها الأساسية السمع، وهو حاسة من الحواس المسؤولة عن عملية العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسـراء: 36]، وقـال أيـضـاً: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعرَاف: 179]؛ أي آذان واعية تحتوي على معاني ودلالات مفردات القرآن الكريم؛ فالسمع في القرآن لا يكتمل إلا بوعي واحتواء تلك الدلالات والمعاني التي لا حد لها، وذلك لا يتم إلا بالارتقاء نحوها، وبهذا تحصل التذكرة ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحَاقَّة: 48].

فمشكلة المشركين وغيرهم أنّهم لم يعوا المفردة القرآنية من داخل القرآن، واكتفوا بوعي مفردات أشعارهم؛ وهذا من الأسباب، التي دفعتهم إلى القول: إنّ القرآن مماثل للشعر، ورد القرآن عليهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69].

فعلينا ألا نكتفي، في تعاملنا مع القرآن، بوعي مفرداتنا اللغوية المتداولة بين الناس، الخاصة والعامة منها؛ إذ نحن في حاجة ماسة، أكثر من أي وقت مضى، إلى الاهتمام بالمفردة القرآنية، وفق مداراتها داخل البنائية القرآنية،

وفي صلة بعضها ببعضها الآخر، وفي علاقتها بما توصلت إليه العلوم في مختلف المجالات، إلا أنّ هذا يتطلّب منا نوعاً فريداً من المعرفة والمنهج من حيث علم الدلالة، يكون القرآن هو المؤسس له بدل الموروث الثقافي الديني الذي يحيط به، وهذا يعني أن الوعي بالمفردة القرآنية يقتضي الخروج من الفهم الموروث للدين وقضاياه إلى الفهم الملتحم بروح التجديد، وبروح العصر، تماشياً مع الأرضية المعرفية، التي نقف عليها اليوم، استجابة لقول الرسول ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»[1].

وقد يتذرّع البعض، ويقول: إن القرآن نزل بلغة العرب، ولا مفرّ من إخضاع فهمه للغة والألفاظ عينها، التي كانت متداولة زمن نزوله عند العرب؛ ولا يمكن فهمه إلا بلغتهم تلك؛ متجاهلاً أنّ النص له نظمه اللغوي الخاص به؛ ويعطي، بذلك، لغةَ العرب، زمن النزول، السلطةَ على النص. صحيح أنّ القرآن نزل بلغة العرب، ولكنّ الأمر، الذي في غاية الأهمية، والذي لا ينبغي أن نغفل عنه، أنّ القرآن نزل بلغة العرب ليخرجهم، ويتجاوز بهم عالم جاهليتهم إلى عالم آخر، وهو التحوّل الذي يصفه القرآن بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]؛ فهذه الولادة من جديد، والخروج من عالم الظلمة إلى عالم النور، وتجاوز عالم الجاهلية إلى عالم الإيمان والهداية، لا شكّ في أن فيها تجاوزاً للغة العرب نفسها[2].

الكتاب:

أ- الكتاب المقروء:

الكتاب الذي نألفه في حياتنا يعني عدداً من الصفحات، التي تضبط

(1) رواه أبو داود، رقم: 4291.

(2) الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط2، 1993م، ص248، (بتصرف).

عليها طائفة من المعاني، على طريق التخطيط بالقلم، أو الطبع، أو غير ذلك، وهذا هو المعنى العام الذي يحتمله مدلول «الكتاب» في القرآن الكريم. وفي هذا السياق، ورد العديد من الآيات القرآنية، ونكتفي باستحضار بعض منها، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 79]، وقال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 1-2]، وقال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27].

وتعود على الكتاب في سياق القرآن الكريم ثلاثة أسماء: التوراة، والإنجيل، والقرآن، وقد تعود، أحياناً، على التوراة والإنجيل مجتمعين؛ أي: أنّ الله أنزل ثلاثة كتب بثلاثة أسماء (كتاب التوراة لموسى، وكتاب الإنجيل لعيسى، وكتاب القرآن لمحمد ﷺ). قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [التوبة: 111]. وفي هذا تمييز للكتب بعضها عن بعضها الآخر. فقال تعالى القرآن، ولم يقل الذِّكْر، أو الفرقان، وقال التوراة، ولم يقل الفرقان، وقال الإنجيل، ولم يقل شيئاً آخر. فاسم الكتاب، الذي نزل على محمد ﷺ، هو القرآن فقط، فقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 1-4]؛ أي جعل الكتاب مكنّى باسم القرآن. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3]، وجاءت الإشارة إليه بهذا الاسم في مواضع عديدة. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

وعليه، اسم الكتاب، الذي نزل على محمد ﷺ، هو القرآن، واسم الكتاب، الذي نزل على عيسى، هو الإنجيل، وعلى موسى هو التوراة، وتترتّب على هذا التمييز، من حيث التسمية، خصوصيات تميّز كلّ كتاب عن الآخر، من حيث السبق التاريخي؛ إذ يحتضن الكتاب الموالي الكتاب الذي سبقه؛ فكتاب الإنجيل جاء محتضناً ومكملاً لكتاب التوراة، ولم يكن نقيضاً له، أو ما شابه ذلك[1]؛ إذ جاء في القرآن، على لسان عيسى ابن مريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: 6]، فالذي سيأتي به الرسول المبشّر به سيكون كتاباً محتضناً ومكملاً لما قبله من الكتاب.

ولا يعني هذا أنّ مفهوم الكتاب من داخل القرآن الكريم يتساوى مع مفهومه الحسي والمتداول بين الناس عبر الزمن؛ إشارة منهم إلى كتاب فلان، وكتاب فلان؛ بل مفهوم الكتاب، الذي أشار إليه الحق سبحانه، والذي يضمّ مجمل ما أُوحي به إلى أنبيائه، أرقى وأعلى ممّا نتصور. وذلك كونه يعني «المضمون الذي ارتأى الله تكليف الأنبياء بتبليغه إلى البشر، بحثّهم فيه على البر بكل وجوهه، وبرشدهم إلى ما فيه خير حياتهم ومعادهم»[2].

وبهذا المعنى، يمكن أن نفهم توريث الكتاب لمن اصطفى الله من عباده في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

---

(1) جاء في إنجيل متّى، الإصحاح 15، مقطع 17: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل».

(2) الشرفي، عبد المجيد، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، تموز/يوليو 2008 م، ص53.

ٱلْكَبِيرُ﴾ [فَاطِر: 31-32]، فالتوريث، هنا، لا ينحصر في وراثة كتاب من الورق يضمّ مجموعة من الكلمات والأحرف؛ بل يمتد، في جوهره، إلى وراثة البر والفضيلة والأخلاق الإنسانية العالية بالتسابق إلى الخير، وإلى كل ما فيه خير للناس جميعاً ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: 32]. والكتب السماوية كلها تلتقي في هذا المبدأ، وتدعو إليه، وقد جاء القرآن مذكراً بهذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿18﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: 18-19]، وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿2﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿3﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البَيّنَة: 2-4]، فالصحف المطهّرة تشتمل على الكتب القيمة، التي سبق أن آتاها الله رسلَه، وجاء كتاب القرآن مبيناً ومذكراً بالبر الذي سبق أن دعت إليه، لينفي عنها كلّ التحريف والتبديل.

ونضيف، هنا، أنّ أجمل وصفٍ وَصَفَ به الله -جل وعلا- كتاب القرآن، تمييزاً له عن الكتب الأخرى، هو وصف الكرم، ووصف الكرم، هنا، ليس من باب الوصف فحسب، بل ينبغي أخذه وفقاً للمستوى المنهجي في طبيعة علاقة كتاب القرآن بما سبقه من الكتب؛ إذ يرتبط الكرم بالعطاء. وقد جاء اسم ووصف الكرم مقروناً بالله -سبحانه وتعالى- في سياق تذكير الإنسان بكرم الله الذي خلقه في أحسن صورة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿6﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿7﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفِطار: 6-8]؛ فكرم الله، هنا، ينطوي على عملية التسوية والتعديل كرماً منه -سبحانه- في عملية الخلق؛ فعطاء الله، هنا، عطاء كريم لا حدّ له.

إن الكريم كلما سألته أعطاك، فعطاء الله وعطاء كتابه لا ينقطع أبداً. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿77﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿78﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿79﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقِعَة: 77-80]. «وقد صيغت هذه الآية في الربط بين الكرم، والمكنون، والطهر. والكرم يعني العطاء، فإذا انقطع القرآن عن العطاء لم يعد كريماً. والعطاء يرتبط بتكشف المكنون، فما كان مكشفاً في

السابق؛ فهو موروث، وليس عطاء جديداً يضفي على القرآن صفة الكرم، ثم إن هذا العطاء يكون للنفس الطاهرة»[1].

وجرت العادة، منذ القدم، على أنّ كلّ من ألّف كتاباً جعل له عنواناً واسماً يُميَّز به عن الكتب الأخرى، وليُعْرَف به عن غيره. وقد يضمّ الكتاب الواحد كتباً متعددة متداخلة ومتكاملة، وحذف الواحد منها يُضيِّعُ جزءاً من الكتاب، إلا أنّ فهم بعضها فهماً مفصولاً عن بعضها الآخر لن يساعد على تمثّل ما في الكتاب الذي لا يكتمل معناه إلا في قراءته، واستبصاره كلية.

لقد حذّر القرآن الكريم بني إسرائيل من هذه المشكلة، حين قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14].

وعليه، يقتضي المطلب المنهجي التعاطي مع فهم القرآن في كليته، بدل أخذ بعضٍ منه، والإعراض عن بعض، علماً بأنّ كل سوره وآياته تشكّل وحدة عضوية متماسكة، يتوقّف أولها على آخرها، وآخرها على أولها.

ب- الكتاب المنظور:

ينطبق مدلول الكتاب على الكون بأكمله؛ فمن خلال القرآن نقرأ آيات الله الموحى بها حروفاً، ومفردات، وكلمات، وسور؛ وفي الكون نقرأ آيات الله المبصرة في الآفاق والأنفس. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

---

(1) أبو القاسم حاج حمد، محمد، منهجية القرآن المعرفية، ط1، دار الهادي، بيروت، 2003م، ص96.

[الأنعَام: 38]. ومن البين والواضح أن الجزء الكبير من آيات القرآن يأخذ القارئ إلى النظر في الكون بأكمله.

لنتدبر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الـروم: 20-25]. لقد خرج مدلول الآية، من خلال الآيات السالفة الذكر، عن حدود الأحرف والكلمات إلى عالم الحس والطبيعة، فما أخبرت به الآية رقم (20) وغيرها، بكون التراب هو الأصل الأول في خلق الإنسان، يُعدّ مقدمة معرفية في موضوع أصل الإنسان في الخلق. ولاكتمال فهم هذا الموضوع وللإحاطة به، لا مفرّ من دراسة هذا الأصل (التراب) دراسة مختبرية وغير مختبرية في علاقة ذلك بالجانب البيولوجي للإنسان، هذا إن شئنا أن نحيط بمكنون هذه الآية. والأمر نفسه ينطبق على الآيات الأخرى، التي تشير إلى آيات عدة ترتبط بالاجتماع الإنساني فيما يتعلق بموضوع التعدد اللغوي، وتنوع ألوان البشرة الإنسانية... كل هذا وغيره؛ لفهمه والإحاطة به لا غنى فيه عن النظر في أحوال الناس، وتتبع ما هم عليه.

الذِّكْر:

إنّ الغاية القصوى والمقصدَ الأسمى من الكتاب (القرآن) هو التذكير بآيات الله، وبحججه، وبراهينه، وبالحق الذي أُنْزِل به، وهو الحق المبثوث في السموات والأرض والأنفس؛ فعقل الإنسان ليس صفحة بيضاء، فالله

أنعم على خلقه من بني آدم بنعمة السمع، والبصر، والفؤاد؛ تفضيلاً له على جميع الخلق. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. وبهذه النعمة «يتألف العقل البشري من نوعين من المعارف؛ معارف قبلية فطرية سابقة على الخبرة والتجربة وموجّهة لها، ومعارف مكتسبة من التجارب الحسية، والتأملات النظرية، والخبرات العملية»[1].

ولا يخلو العقل الإنساني من الحقيقة، إرثاً أو اكتشافاً. إلا أن تدخل المبطلين وغيرهم ينسيه ذلك، وحتى إذا كان يتذكر شيئاً من الحق، فيختلط له بكثير من الباطل، فهو في حاجة ماسة إلى كتاب يدفعه إلى التذكر، وهذه مهمة القرآن للعالمين؛ أي تذكير لهم بالحق، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفُرقان: 73]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السَّجدَة: 15]. وأنكر القرآن كثيراً على الكافرين، الذين إذا ذكروا لا يذكرون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصَّافات: 13]. وكان إنكار القرآن شديداً على أهل الكتاب؛ إذ نسوا حظاً؛ أي نصيباً من الذي ذُكّروا به، فمقصد الكتاب، الذي ورثوه، هو أن يتذكروا به، بدل نسيان بعضه، أو تحريفه، أو إخفائه. قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المَائدة: 13]. وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المَائدة: 14]. وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعَام: 44]. وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعرَاف: 165].

فالقرآن مذكِّر لهم بكلّ ما نسوه، ومظهر له، كما أنه ميسر للذِّكْر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمَر: 17]، وهو طريق لمن

---

(1) الصافي، لؤي، إعمال العقل، دار الفكر، سورية، ط 1، 1998م، ص17.

أراد أن يتذكر، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: 29].

ففي القرآن ضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25]. وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزُّمَر: 27]. إن القرآن الكريم يُعد بمقام الحاضن والحافظ للذاكرة الجماعية للإنسان في الوجود؛ فهو يذكر الإنسان بقصة الخلق والخليقة، ويذكره، أيضاً، بقصص الأنبياء وتاريخهم، ويذكره بكلّ ما اتصل بالوجود الإنساني ككل؛ ولهذا جاءت مفردة الذكر في القرآن مقترنة بنص القرآن، بينما مفردة النسيان جاءت مقترنة بالشيطان، الذي همه وشغله الشاغل، ومن سار على دربه، أن يدفع الإنسان إلى النسيان والغفلة بدل التذكر.

ولهذا، لم يأمرنا الله -جل وعلا- أبداً أن نتدبّر (الذكر)؛ بل جعل من التدبّر في القرآن طريقاً للتذكر، وجعل منه تذكرة، قال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: 1-3] وأُمِرَ الرسول ﷺ ليذكر بالقرآن؛ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: 45].

والله -جل وعلا- أنزل الكتاب على محمد ﷺ، وسماه القرآن، ومن الغايات الأسمى لهذا الكتاب «التذكير» و«التذْكِرة»، والذين تذكروا بآيات الله وخشعت قلوبهم لما علموا من الحق، سماهم القرآن «الذاكرين والذاكرات». قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزَاب: 35]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هُود: 114]؛ فذكرهم هذا ليس محصوراً بترديدهم اسم الجلالة «الله» وقتاً طويلاً؛ بل إلى أبعد من ذلك في تدبرهم وتمعّنهم لكتاب الله وخلقه جل وعلا.

ولهذا، لم يتوقف حفظ القرآن من العلي القدير على حفظ حروفه فحسب وكلماته (عباراته) قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البُرُوج:

21-22]؛ بل حفظه تعدّى إلى حفظ الغاية الأسمى منه[1]، وهي «الذكر» و«التذكير»... قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: 9]. فالذكر، الذي أنزل الله -جل وعلا- منسوبٌ إلى القرآن؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [صٓ: 1].

سُمِّي القرآن ذكراً؛ لأنّه قول إلهي، ومن أراد ذكر الله وجب العودة إلى قوله المضمن في كتابه، فهو ذكر للعالمين. فالذكر تلاوة لقول إلهي، وكلّما كان الذكر مؤدّى بشكل صحيح، فإنّ الحواس تشتغل جميعها لتخلق نوعاً من الخشوع الذاتي، الذي ينتقل بالإنسان من حالة وجودية إلى حالة غيبية متصوّرة في الأذهان، وراسخة في القلوب، ومن ثَمّ ينتقل الإنسان من حالة الذاكر إلى حالة مدكر؛ أخذ العبرة من الذكر، وتعلّم بخشوعه من الذكر ما ورد في الذكر الحكيم؛ ولذلك العلماء هم أكثر ادكاراً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فَاطِر: 28].

من جهة أخرى، يرتبط الذكر بتذكير المسلمين بأمم سابقة عبر ما ورد في القرآن من قصص، وذلك بقصد الوعي بما جرى لهم؛ لأنّ الوعي بالأمم السالفة يقود إلى الوعي بالذات التي ترتمي في أحضان الإله بوساطة الذكر.

(1) كتب الله لموسى في الألواح (جمع لوح) موعظة من كلّ شيء، عندما اقتضت إرادته أن يأخذه إليه بعض الوقت. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعرَاف: 145]. وهي الألواح التي ألقى بها موسى بعد عودته؛ إذ وجد قومه اتخذوا عجلاً يعبدونه من بعده، وهي الألواح نفسها التي أخذها عندما سكت عنه الغضب. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعرَاف: 150]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعرَاف: 154]. والله -جلّت قدرته- حمل نبيه نوحاً على سفينة ذات ألواح ودسر. قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القَمَر: 13]. فاللوح هو الذي نكتب عليه، وأول الكتابات، التي توارثها الناس، وجدوها منقوشة على ألواح حجرية. فاللوح يمكن أن يكون من الحجارة، أو من الخشب، أو من الورق، أو غيره، ومع التقدم العلمي تحول اللوح إلى شاشة ضوئية.

واقتضت حكمة الله -تعالى- أن يبقى القرآن خالداً تذكرة للناس وللعالمين أجمعين بالحقّ المبين؛ فلا أحدَ من البشر، أو غيره، له القدرة على أن ينسيه، أو يحرّفه، لكون حفظه موكولاً إلى الله جل وعلا.

أما مفردة «مدكر»، التي جاءت مقرونة بمفردة الذكر، فقد جاءت سبع مرات في القرآن الكريم؛ مرة واحدة في سورة يوسف، وستّ مرات في سورة القمر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يُوسُف: 45]. والأمة، هنا، بمعنى فترة طويلة من الزمن، والادّكار أكبر من التذكر؛ لأن الادكار يفيد وضوح صورة الشيء في الذهن دون أيّ غبش، أو غموض. أما التذكر، فهو طريق إلى هذه الدرجة من الوعي والإدراك، فيوسف طلب من الذي نجا من السجن أن يذكره باسمه في حضرة الملك ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: 42]، وهذا لم يحصل لأنّ الشيطان أنساه ذلك، ولكن الذي نجا ادّكر يوسف بدل ذكر اسمه، إلى درجة أنّه ادعى لنفسه التنبؤ بتأويل الرؤيا، وربط هذا الادعاء بأن يرسلوه، بقوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يُوسُف: 45]؛ بمعنى أنه حصل له نوع من الإدراك الذهني والوعي بحقيقة ما كان عليه يوسف من علم تأويل الرؤيا.

ونفهم من هذا كلّه أن الادِّكار حركة ذهنية مفصولة عن الأداء الصوتي بالأحرف، وهذا يعني أن ادِّكار القرآن يقتصر على الحركة الذهنية. أما التذكر، فله صلة بالحركة الذهنية وبالصوت معاً، فذِكر الشيء استحضار ونطق اسمه، أما ادّكاره فله صلة بالحضور الذهني فحسب. وعليه، حين نطق بالقرآن الكريم في صيغته اللغوية، نقوم بعملية الذكر، وفي الوقت ذاته، هذه الأحرف والكلمات غير مفصولة عن الحركة الذهنية، فالذكر هو الصيغة اللغوية للقرآن الكريم مع الحركة الذهنية بدرجة أقل من فعل الدِّكر، فليس هناك أية قيمة لنطق الكلمات فيزيائياً دون استحضار صور ذهنية لها؛ أي علاقة الدال بالمدلول، والحامل المعرفي للكلمات وأحرف القرآن الكريم،

وهنا تأتي أهمية علم اللغة المعاصر، في البحث في الحامل المعرفي لمفردات القرآن الكريم في صلته بالواقع، وفي تشكيل صور ذهنية معاصرة لتلك المفردات، حتى يفضي الذكر إلى التذكير والتذكر بشكل معاصر.

وهذا يعني أن الذكر متجدّد في الصور الذهنية، التي نستحضرها بعد الصيغة اللغوية الثابتة، ولا يمكن بحال أن تكون الصور الذهنية، التي يستحضرها الناس في القرن السابع الميلادي هي الصور الذهنية نفسها التي نستحضرها اليوم في القرن الحادي والعشرين، نتيجة اختلاف الأرضية المعرفية التي نحن عليها اليوم، والتي عليها الناس في القرن السابع الميلادي. كما أن الصور الذهنية، التي يستحضرها عالم كبير، مثلاً، في الفيزياء، أو علم البيولوجيا، أو علم الرياضيات، قد تختلف عن الصور الذهنية التي يستحضرها شخص بسيط.

أما الادّكار، فينحصر في تشغيل وتفعيل الملكة الذهنية فحسب بدل الصيغة اللغوية؛ أي خلق صور ذهنية، وهذا أمر خص الله القرآن به، ومن ثَمَّ التذكر بالقرآن والادكار به يأتي عن طريق البحث في الخلق، وفي سنن التاريخ، وبعد التذكر تحصل الذكرى. وهذا لا يتأتّى إلا عن طريق تشغيل آليات السمع والبصر والفؤاد. لنتمعّن في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [قَ: 7-8]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قَ: 37]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11-12]. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

من خلال الآيتين (7-8)، وكذلك الآية (37) من سورة ق، يتّضح أنّ الذكرى لها صلة بالسمع والبصر، وهذا يعني أن الذكرى باب من المعرفة

والعلم بماهية الأرض الممدودة، والكشف عن نظام الزوجية في الخلق. كما أن الذكرى تأتي بعد التذكير والتذكر كما هو في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: 9-10].

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21-22].

الفرقان:

لم يأمرنا الله -جل وعلا- أن نتدبر (الفرقان)، أو أن نستمع إليه عند قراءته، وننصت، كما تقدم ذكر ذلك مع (الذكر)؛ بل جعل خاصية التدبر خاصة بالقرآن. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]. كما أن فعل القراءة خاص بالقرآن، قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: 20].

إنّ أول حدث تاريخي تواجه فيه جمعُ الذين كفروا وجمع الذين آمنوا بدعوة محمد ﷺ، وبالهدى الذي جاء به، كان غزوة بدر الكبرى، التي وقعت في السابع عشر من شهر رمضان السنة الثانية للهجرة، فكان الذين آمنوا قلة قليلة من العدة، والأنفس، والمال؛ فكان النبي يكثر من الدعاء بالنصر، فأمدّ الله -جل وعلا- الذين آمنوا بنصره وعونه، فكان النصر فارقاً كبيراً بين الكفر والإيمان، وفتحاً كبيراً للمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

هذا الحدث العظيم في تاريخ البشرية، وفي نبوة ورسالة محمد ﷺ، سمّاه الله في القرآن (يوم الفرقان) لكونه اليوم الذي التقى فيه الجمعان؛ جمعان مفترقان من الناس وجهاً لوجه، ونداً لند، وضداً لضد، كلّ جمع له غاياته ونواياه، فسنّة الله في الأرض اقتضت أنّ الزبد يذهب جفاء، وما ينفع

الناس يمكث في الأرض. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرّعد: 17]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: 41]. هذا اليوم، وما أنزل فيه، كان فاصلاً وفارقاً بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين جمع الذين آمنوا وجمع الذين كفروا، ولكون كتاب القرآن الكريم كتاب هداية للناس، لا يتوقف عند الهداية فحسب، بل يتعداها إلى تبيين الهدى للناس؛ أي يفرق بين الهدى وغيره؛ ولهذا يتضمّن الفرقان الذي يفرق الحق عن غيره، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: 185]. والذين اتقوا يجعل الله لهم فرقاناً يفرق بينهم وبين السيئات. قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿28﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 28-29]. وكان دعاء موسى أن يفرق الله بينه وبين القوم الفاسقين، عندما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، التي كتب الله لهم، ورفضوا. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: 25].

الفرقان، إذاً، هو أسمى الغايات التي يتضمنها القرآن؛ فبتدبره ندرك الفرق بين الحق والباطل، وبه يمكن لنا أن نفرق الحق عن الباطل، ونتفرد بالحق، ونرتبط به، فالفرقان مبثوث في القرآن؛ لمن أراد أن يتدبر القرآن. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: 1]؛ أي محذراً، وهذا الأمر ينطبق على التوراة والإنجيل من قبل، فهي بينت الفرق الواضح بين الهدى وغيره. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿1﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿2﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿3﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عِمرَان: 1-4]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 53]. وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: 48]. والقرآن نزل مفروقاً؛ أي

مفرقاً من أجل قراءته على الناس على مُكْثٍ، والله -تعالى- فرق البحر على شطرين، فأنجى الذين آمنوا بموسى، وكان أمر الله للذين آمنوا أن يعتصموا بأمر الله، ولا يتفرقوا.

الحق:

الحق، مفهوم محوري لدوران كثير من المفاهيم الأخرى حوله، وهو مفهوم فاصل بين الصواب والخطأ على المستويات كافة، الحضارية، والفلسفية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية...على مستوى الأفكار النظرية، والواقع العملي، على مستوى الأفراد والجماعات. ويتّصف الحق بالثبات، والصحة، والصدق، وبمطابقته للواقع.

يُعدّ الحق نقيضاً لكلّ أشكال العبث. ومن ثَمّ جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿38﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدّخان: 38-39]، وقال أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: 44]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73]. وقال كذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85]. فالحقّ، الذي خلقت به السموات والأرض؛ أي الكون الإلهي بما فيه، هو نفسه الذي نزلت به الكتب السماوية، وبه بعثت الرسل تدعو إليه.

إن دارس الكون والقارئ له يكشف عن الحق المبثوث فيه، وأن هذا الحق يدل على الله الحق الواحد الأحد الصمد، ويدل على الحق المنزل على محمد ﷺ. ولو اتبع هذا الحق أهواء الكافرين لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ. قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 71]. وقد حذّر الله رسوله من اتّباع أهواء الكافرين، وأن يحكم بينهم بما أنزل الله. قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ

أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المَائدة: 49]؛ فالجزء الكبير المقصود هنا بالفساد يرتبط بالحرب وبسفك الدماء، وهي حجة الملائكة في اعتراضها على استخلاف آدم في الأرض. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 30].

ومن ثم، «الحق هو المعاني الإيجابية المتجسدة في الخلق الكوني من تسخير، ورحمة، ووحدة، وسلام... وليس هذا الحق سراً مغلقاً على الأفهام؛ بل هو حقيقة تتجلّى في طبيعة الخلق الكوني. والعلاقة بين الظواهر المكونة لتعطي المعنى الإنساني، والمُسخَّرة للإنسان، علاقة التسخير، والوحدة، والسلام. قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116]»[1]. فما أوحى الله به إلى خلقه ما هو إلا رسالة توجيه وتذكير للإنسان بقصد التشبّث بطريق السلام بدل طريق الصراع والحرب ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يُونس: 35]. قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المَائدة: 16].

لقد كان إنكار الله شديداً على بني إسرائيل، الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿40﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿41﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 40-42].

---

(1) أبو القاسم حاج حمد، محمد، العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2، 1996م، ج1، ص483.

كما أن عزم كثير من أهل الكتاب أن يردوا الذين آمنوا كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق حسداً من عند أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البَقَرَة: 109]. وكذلك في موضوع القبلة من خلال سورة البقرة. كان أهل الكتاب يعلمون أن القبلة، التي أُمِر بها محمد ﷺ هي الحق من ربه، قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 144]. وحذّر الله أهل الكتاب ألا يقولوا عليه إلا الحقّ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ [النِّسَاء: 171]. والحق يقذف به على الباطل، وينفيه، ويزيله، ويبطله، فالباطل لا يُغْني عن الحق شيئاً، فالذين كفروا يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق. قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: 56]. والله -جل وعلا- يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبيَاء: 18]، والذين أوتوا العلم يرون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق، قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سَبَإ: 6]، فينصرونه، ويرتبطون به.

اتضح، إذاً، من خلال هذه الآيات القرآنية وغيرها، أنّ مفهوم الحق في القرآن يأخذ معنى واحداً؛ فالحق، الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، هو نفسه الذي أُنزِلَت به الكتب، وبُعِثَتْ به الأنبياء والرسل، وأَمَر الله باتباعه، والحكم به، وهو وعد الله للمتقين، والله هو الحق وما دونه باطل، والباطل ضد للحق؛ فالحق واحد، أمّا الطريق إليه فهو متعدد؛ فقد نسلك طريقه بالنظر في آيات الله في الآفاق والأنفس؛ فكلّ آية ما هي إلا مسلك من مسالكه؛ وقد نسلك طريقه بما اهتدينا به من الوحي؛ وقد نسلك طريقه بما حصل لنا من تجارب في الحياة.

إنّ الحق، من جهة الكينونة، أمر ثابت وقائم بذاته، ولكن من جهة البلوغ إليه، وإدراكه. والرأي فيه يكون متعدداً بتعدّد الطرق إليه، «وحيث ما وُجد التعدّد في الطرق، فثمة حاجة إلى قيام حوار بين المتوسلين بها»[1]. فلا غرابة أن نجد القرآن الكريم، في أكثر من موطن، يدعو إلى الحوار، وينص عليه.

الباطل:

يمحو الله -جل وعلا- الباطل ويزيله، ويُظْهِر الحق بكلماته التي لا مبدّل لها. قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشّورىٰ: 24]، وقال أيضاً: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ...﴾ [الكهف: 27]، فكلماته هي ما أوحي من الكتاب. فلا أحد له القدرة على تبديلها، أو تحويلها، أو تحريفها عن مواضعها، كما وقع للكتب السابقة؛ إذ حرّف الكلم عن مواضعه. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاء: 46]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المَائدة: 13]، وقال أيضاً: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ [المَائدة: 41]. كما أنّ أهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل (أي يمزجون بينهما) ويظهرون الباطل، ويجعلون منه حكماً على الحق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 42]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ [آل عِمرَان: 71]، كما أن ما يدعوه الكافرون من دون الله هو الباطل. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحَجّ: 62]، وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العَنكبوت: 52].

---

(1) عبد الرحمن، طه، حوارات من أجل المستقبل، كتاب الجيب، العدد 13، منشورات الزمن، الرباط، نيسان/ أبريل 2000م، ص4.

والله -جل وعلا- هو الحق، وهو مصدر الحق والإيمان، وما دونه هو الباطل، كما أنّ كثيراً من الناس يأكلون أموال الآخرين بالباطل بدل الحق. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النِّسَاء: 29].

فمن خلال الآيات السالفة الذكر، والتي ورد فيها مفهوم (الباطل) يتضح أنّ هذا المفهوم ضد مفهوم (الحق) في القرآن، كما يتضح أنّ إلباس الحق بالباطل يكون إمّا بالافتراء على الله كذباً وزوراً، وإمّا بكتمان وإخفاء ما أنزل الله من الحق، وإظهار غيره.

إذا كان الحق هو المعاني الإيجابية المتجسدة في الخلق الكوني، من تسخيرٍ، ورحمة، ووحدة، وسلام، فالباطل هو الأشكال السلوكية، التي تحاول أن تبطل هذه المعاني، وتزيفها، وتعطيها معاني معاكسة. وبما أنّ هذه الأشكال (الباطلة) تقوم على مقومات التسخير نفسها (مع تعمد نفيها)؛ أي تنطلق بالحق للتزييف، فقد جعل الله معركة جلاء الحق (معركته) التي لا يتهاون فيها. «فالله لا يسلم الكون ليعبث فيه الإنسان بما يخالف حقيقة النهج الكوني، فيقذف الله الحق على الباطل فيدمغه، فهو زاهق»[1].

بين يديه:

جاء في القرآن الكريم، على لسان عيسى عليه السلام، أنّه مصدق لما بين يديه من التوراة، ومبشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: 6]. فإذا أسندنا القول إلى نبي الله عيسى عليه السلام، فسنقول: ومصدقاً لما بين يديه هو، وهذا نفسه هو الخطاب الذي جاء في موضع آخر في القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ

(1) أبو القاسم حاج حمد، محمد، العالمية الإسلامية الثانية، (م.س)، ج1، ص483.

ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: 46]، فالذي كان بين يدي عيسى عليه السلام قبل أن يؤتيه الله الإنجيل هو التوراة. وعليه، الذي بين يدي محمد ﷺ، قبل نزول القرآن، هو التوراة والإنجيل، ولا نقصد من هذا القول إنه كان يتلوها، ويقرؤها، وما شابه ذلك؛ بل القصد من القول أنّ الوحي المتداول قبل نزول القرآن هو كتاب التوراة والإنجيل، ثم أُنْزِل عليه -عليه الصلاة والسلام- القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب؛ أي التوراة والإنجيل. ويمكننا أن نقول على لسان محمد ﷺ: (مصدق لما بين يدي من التوراة والإنجيل بما جاءني في القرآن الكريم)، كما جاء ذلك على لسان عيسى في القرآن: «يدي».

والأمر، الذي في غاية الأهمية هنا، أنّ محمداً ﷺ ليس وحده المصدق، أو هو القائم بعملية التصديق؛ بل القرآن الكريم هو المختص بفعل التصديق والهيمنة؟ فلفظ اليدين يعود على محمد ﷺ، ولفظ الهيمنة والتصديق يعود على القرآن. فبعد تبليغه ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: 67]. وبالتحاقه بالرفيق الأعلى، بقيت مهمة التصديق والهيمنة منوطةً بالقرآن فحسب، وهي مهمة خالدة، فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبيّ بعد محمد ﷺ، فهو الرسول الخاتم، والقرآن هو الكتاب الخاتم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48].

أمّا قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصّلَت: 42]؛ أي لا يأتيه الباطل من بين يدي محمد ﷺ، وهو على قيد الحياة، والصحابة من حوله وغيره من الناس. فالله -جل وعلا- عاصمه منهم. وهذه العصمة تتجلى في معرفة وعلم الرسول ﷺ بكلّ ما أنزل إليه من ربه (القرآن) آية آية، وسورة سورة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿17﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿18﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: 16-19]. فمن مهام الرسول أن يبين للناس ما اختلفوا فيه من خلال كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ...﴾ [النّحل: 64]. كما أنّ أهل الكتاب لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات.

التصديق «مصدقاً»:

بتتبع مفهوم (مصدقاً)، في سياق القرآن الكريم، الذي ذكر ثلاث عشرة مرة، يتّضح أنّ عملية التصديق في القرآن تفيد كون القرآن يعترف ويصدق بما نزل قبله من الكتاب (التوراة والإنجيل)؛ فهو لا ينفي الكتب السابقة؛ بل يقرّ ويعترف بأنّها نزلت قبل نزوله؛ وهنا يعترضنا السؤال الآتي: أيصدّق القرآن تلك الكتب كما هي؛ زمن نزوله في القرن السابع للميلاد، أم كما هي الآن؟ والجواب: أنّ القرآن يصدق تلك الكتب كما نزلت زمن نزولها؛ وهو يقول في حقّها إنها نزلت هدى ونوراً. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المَائدة: 44]، وقال تعالى: ﴿ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المَائدة: 46]. ومن المعلوم أنّها حُرِّفت وبُدّلت بعد زمن نزولها؛ وأُخفي الحق الذي جاءت به؛ وهذا فيه إعراض عن الهدى والنور الذي جاءت به؛ فعملية تصديق القرآن لما قبله من الكتاب تقتضي إظهار الحق، والهدى، والنور، الذي أخفاه أهل الكتاب، ونفي الباطل الذي ادعوه إثماً وزوراً. وبهذا، فعل وعملية التصديق يمتدان إلى فعل الهيمنة، الذي سنأتي على بيانه فيما هو قادم. فمثلاً؛ أظهر القرآن ماهيّة وحقيقة عيسى ابن مريم، من حيث خلقه، ونبوته، ورسالتُه، ومعجزاتُه، ورفعُه إلى الله. وأظهر نبأ حقيقة نبأ موسى وفرعون، وحقيقة نبي الله إبراهيم، وبناء البيت، وحقيقة نبي الله نوح في الطوفان وصنعه الفُلْك، وحقيقة نبي الله آدم وقصة الخليقة واستخلافه في

الأرض، وغيرها من الموضوعات، التي أظهرها القرآن بالحق الذي نزل فيه وبه؛ ولهذا، القرآن مذكِّر لأهل الكتاب بأنّه مصدق ومعترف لما معهم من الحق، ومظهر له، بدل الباطل.

فهو كتاب مصدق للكتب التي قبله، وللحق الذي جاءت به، متجاوزاً كلّ الافتراءات الموضوعة والمنسوبة إليها إثماً وزوراً؛ فتصديقه يتجلى في اعترافه وإظهاره الحق الذي جاءت به؛ فالرسول أمره الله، في مواضع عديدة في القرآن، أن يتلو الحق، ويقوله للناس. مثلاً، أمر أن يتلو على الذين كفروا من أهل الكتاب نبأ ابني آدم بالحق الذي جاءه، وأنّ ما يزعمونه ويدعونه هو الباطل، وما يكتمونه هو الحق. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: 27]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 42]. كما أن النبأ الذي يتلوه أهل الكتاب، في قصة نبي الله موسى وفرعون، مفصول عن الحق، قريب إلى الباطل. فالله -جل وعلا- نسب إلى نفسه تلاوة نبأ موسى بالحق، قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿1﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿2﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص: 1-3]. كما أنّه -جل وعلا- نسب إلى نفسه دون غيره قصص نبأ أهل الكهف بالحق. قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]. كما نسب -جل وعلا- إلى نفسه أحسن القصص، وهو ما قصه -تعالى- على رسوله في كتابه (القرآن)، والذي أخرج محمد ﷺ من غفلته. قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿1﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿2﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يُوسُف: 1-3]. فمن ترك هذا القصص الحق في القرآن، واشتغل بغيره، فهو من الغافلين لا محالة، فأهل الكتاب غافلون عن هذا القصص والنبأ الحق في القرآن، وهو الحق الذي جاءهم من قبل، فخيانةً منهم لأنفسهم بدّلوه، وحرفوه، والله لا يحبّ من كان خواناً أثيماً. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ

ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿105﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿106﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: 105-107].

إنّ مشكلة أهل الكتاب تحريفهم الكتاب الذي جاءهم، وإخفاؤهم الحق الذي جاء فيه؛ فهم يشترون الضلالة به بدل الهدى، كما أنّهم نسوا نصيباً من الذي جاءهم، وجعلوه قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها الآخر. فلو أقاموا التوراة والإنجيل لآمنوا بمحمد، وبالذي جاء به.

وحجة القرآن أن يأتوا بالتوراة، ويتلوها إن كانوا صادقين، وأن يحكموا بها كما أنزلها الله، وأن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، هذه هي دعوة القرآن لهم، إلا أنّهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل. قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 93]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المَائدة: 47].

إنّ علاقة القرآن بما قبله من الكتب لا تتوقّف على تصديقه الحق، الذي جاءت به، ونفيه الباطل الذي لحق بها؛ بل تتعدّى إلى أنه متجاوز لها في أبعادها، فأبعاده لا تنحصر في الزمان ولا المكان، ولا أيّ قوم من الأقوام. فهو خطاب لكلّ الناس أجمعين، ولا كتاب بعده، فهو خاتم الكتب، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزَاب: 40]. فالقرآن مهيمن على ما قبله من الكتب.

مدلول «مصدقاً» مأخوذ من الفعل «صدق»، وصيغته الاسمية «مصدق»، والصيغة المصدرية له «تصديق». والقرآن، عندما يستعمل هذه المادة في سياق تحيّزه للكشف عن الحق والحقيقة، وهو يعرض الكثير من الموضوعات التي تتعلّق بالاجتماع الإنساني ولاسيما ما اتصل منه بتاريخ الأنبياء والرسل،

وبموضوع الخلق، وغير ذلك من الموضوعات؛ لا يطرحها من باب الحطّ من قيمة الكتب المقدسة «العهد القديم والعهد الجديد»، كما هي، اليوم، أو كما كانت عليه زمن نزوله، وإنّما يطرحها في سياق الدعوة إلى الالتحام، والأخذ بالعدة العلمية في فهم هذه الموضوعات، التي تشكّل جزءاً محورياً من المشترك الإنساني؛ بمعنى أنّ القرآن الكريم ينطوي من داخله على الجزء الكبير ممّا ينطوي عليه الكتاب المقدّس، ولكن بمدخل نقديّ مفتوح على الكون، فالقرآن، مثلاً، عندما حدّثنا عن موضوع الخلق (خلق آدم) -وهذا موضوع سبق إليه الكتاب المقدس- نجده، بعد أن بسط في تفصيل نظرته إلى هذا الموضوع، الذي سنتعرض له فيما هو قادم، قد وجهنا إلى مجال واسع هو الأرض بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]. إنّ هذه الآية تنطوي على توجيه منهجيّ يترتّب عليه الأخذ بآليات النظر في التعاطي مع موضوع سؤال النشأة والخلق. وهذا يأخذنا إلى كون موضوع تصديق القرآن ما قبله من الكتاب موضوعاً مؤسساً على العلم والنظر.

الهيمنة «مهيمناً»:

جاء مفهوم «مهيمن» في القرآن الكريم مرّتين؛ الأولى جاء فيها اسماً لله عز وجل، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23]؛ أي الكمال لله في القدرة، والفعل، والتصرف، وهو المؤتمن على كلّ شيء، وهو اسم الفاعل لفعل رباعي لازم متعدٍّ بحرف الأصل هو (هيمن)، ومعناه: القائم على خلقه، الذي يحكم سيطرته بشكل تام على ما نراه وما لا نراه، وعلى ما ندركه وما لا ندركه، وعلى ما نعلمه وما لا نعلمه. وفي المرة الثانية جاء وصفاً للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]. فالله -عز وجل- احتفظ لنفسه بفعل الهيمنة، فلا مهيمن قبله، ولا بعده، لكن خصّ القرآن، فحسب، بهذا

الوصف؛ فالقرآن يتضمّن القدرة الكاملة على هذا الفعل (الهيمنة) في صلته بالكتب التي سبقته؛ وقد بينّا من قبل أنّ فعل التصديق في القرآن يمتدّ إلى فعل الهيمنة؛ إذ تصديق القرآن على ما قبله من الكتاب لا يكتمل إلا بفعل هيمنة القرآن على ما قبله من الكتاب؛ وبهذا ليس من الضروري، في تقديرنا، أن نفصل فصلاً تاماً بين فعل تصديق القرآن وفعل هيمنته على ما قبله من الكتاب[1].

وبعودتنا إلى القرآن الكريم، يخبرنا أنّ ما أوحى الله به إلى أنبيائه؛ موسى، وعيسى، ومحمد، وغيره، كان من الكتاب الذي أمّه (أي أصله) عند الله عز وجل؛ فالكتب السماوية الموحى بها من أصل واحد، ومن أمّ واحدة، فالله -جل وعلا- يمحو ما يشاء ويثبت، وهو العالم وحده، والماسك بأمّ الكتاب. قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: 39]. فالقرآن الكريم هو محوٌ وإثبات لما سبقه من الكتب، ناسخ لها في أحكامها وتشريعاتها، ومثبت للحق الذي جاءت به، ونزلت به، بدل الباطل الذي ألبست به، ولم يتأتّ للقرآن هذا الوصف (الهيمنة) إلا لكون آياته في أمّ الكتاب. قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزّخرُف: 1-4]، وهي آيات محكمات. قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1]، وهي آيات أمّ للكتاب. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [آل عِمرَان: 7]. فأمّ الكتاب (أي أصله) لا تقتصر على كتاب القرآن، فحسب، بل تشتمل على الكتب السماوية السابقة، فالله -عز وجل- خصّ نبيه محمداً دون غيره من الأنبياء بآيات في أمِّ الكتاب، وهي أمُّ الكتاب. فآيات القرآن

(1) وعلى هذا الأساس أدرجنا، في الشق التطبيقي من البحث، خانة تحت عنوان: «ما صدقه القرآن وهيمن عليه».

(أُمٌّ)؛ أي أصل للكتب السماوية السابقة؛ ولهذا هو مهيمن عليها، لإعادة صياغتها، ونسخ أحكامها وتشريعاتها، فبالقرآن الكريم نفهم ما سبقه؛ لأنّه مصدّق لما كان، وناسخ بفعل الهيمنة على ما فات. فما صلة النسخ بالهيمنة؟

لا نريد أن نخوض طويلاً في مفهوم النسخ والناسخ والمنسوخ، بقدر ما نسعى إلى تبيين صلة النسخ بفعل الهيمنة، فقد «أكد الله على نسخ التجربة اليهودية بهيمنة القرآن على ما سبق من كتب سماوية معترف بها «مصدقاً»، والتصديق: هو الاعتراف بها، وليس نفيها. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المَائدة: 48]. فهذه الآية تنصّ على هيمنة القرآن على كلّ الكتب السابقة. وقد جعل الله الشرعة والمنهاج (من) الناس وواقعهم، ولم يجعل لهم الشرعة والمنهاج أمراً (مثالياً) فوق (الواقع)؛ ولذلك جاء نصّ الآية ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ شرعة ومنهاجاً. فتضمن المعنى اختلاف التشريع القرآني عن التشريعات التي جعلت (منهم) أو (من) الأقوام السابقة بما فيها تشريعات التوراة»[1].

فالهيمنة نفي للباطل، وإظهار للحق، وتذكير بأحكام وشرائع فرضها الله من قبل، باستيعابها وتجاوزها إلى ما هو أفضل وأرقى منها بفعل النسخ، فالنسخ هو نسخ الإسلام (القرآن) لرسالات وشرائع مضت أخذاً بشرعة التخفيف والرحمة، وتجاوزاً لشرعة الأسر والأغلال. قال تعالى: ﴿...ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

(1) أبو القاسم حاج حمد، محمد، حرية الإنسان في الإسلام، دار الساقي، ط1، 2012م، ص93.

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: 157-158].

ونخلص إلى كون صفة التصديق والهيمنة، التي يتصف بها القرآن الكريم، تجعل منه كتاباً شاملاً لما سبق عند الأمم السابقة في الكتب السماوية من صحف، وزبور، وتوراة، وإنجيل، فالقرآن الكريم جامع وشامل؛ ولذلك كان رسالة للعالمين.

صفة «الكرم» و«البيان»:

ما دامت رسالة القرآن تخصّ العالمين، فقد أشار الله -جل وعلا- إليه بمجموعة من الأوصاف، منها كون القرآن يتصف بالكرم، والكريم هو الذي لا ينقضي كرمه، فكلما أقبلت عليه أعطاك، فعطاء القرآن لا ينقطع، لكون كرمه من كرم الله، ووصفه كذلك بالمجد؛ فصفة المجد لا تليق معها صفة القدم، أو التجاوز... ووصفه كذلك بالمكنون؛ أي كونه قابلاً للكشف... وفي نظرنا، أهمّ ما وصف الله به كتاب القرآن كونه كتاباً مبيناً.

وقبل أن نتطرّق إلى موضوع مفردة البيان، من خلال السياق الكلي للآيات القرآنية، وجدنا أنفسنا ملزمين بأن نعرض لمفهوم البيان[1] عند أهمّ كبار العلماء الأقدمين، وذلك لكون هذا الموضوع يُعدّ من الموضوعات الأساسية في ثقافتنا الإسلامية، منذ لحظة النشأة والتأسيس، كما أنه موضوع يتّصل، بشكل كبير، ببناء المنهج في فهم وتحليل النصوص المرجعية في الثقافة الإسلامية. ومن أجل هذه الغاية، سنكتفي بعرض وجهات نظر

(1) سبق للمفكر المغربي محمد عابد الجابري أن فصل في موضوع البيان في الثقافة الإسلامية، من خلال كتابه: بنية العقل العربي.

الأقدمين الأوائل، الذين كان لهم دور كبير في تأسيس الثقافة الإسلامية منهجياً. وسنقف عند رأي الإمام الشافعي، وكذلك عند رأي الجاحظ في الموضوع، بغية أن يكون القارئ على علم بكون موضوع البيان في السياق الثقافي الإسلامي لا يعني المدلول نفسه من خلال سياق الآيات القرآنية وحدها فحسب.

من المعلوم أنّ الإمام الشافعي (ت 204هـ) هو أوّل من قعَّد لمفهوم البيان في مجال الثقافة الإسلامية، من خلال كتاب **(الرسالة)** الكتاب المؤسّس لعلم أصول الفقه؛ إذ عرّف البيان بقوله: «البيان اسم جامع لمعانٍ مجتمعة الأصول، متشعّبة الفروع»[1]. جعل للبيان خمس درجات:

1- بيان لا يحتاج الى بيان وهو «ما أبانه الله لخلقه نصاً».
2- بيان في بعضه إجمال، فتكفّلت السنّة ببيان ما يحتاج منه إلى بيان.
3- بيان ورد كلّه في صورة المجمل، وقد تولّت السنة تفصيله.
4- بيان السنة، وهو ما استقلّت به هي نفسها، ومن الواجب الأخذ به؛ لأنّ الله «قد فرض في كتابه طاعة رسوله ﷺ، والانتهاء إلى حكمه، «فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل».
5- بيان الاجتهاد، ويؤخذ بالقياس على ما ورد فيه نصّ من كتاب أو سنة[2].

من البيّن والواضح أنّ العملية البيانية، عند الشافعي، تدور في بيان النصوص بعضها بعضاً، ولسنا، هنا، بصدد التفصيل فيما جاء به الشافعي، وما ترتب على قوله المنهجي في بناء الثقافة الإسلامية من بعده.

أما الجاحظ (ت255هـ)، فهو لا يقلّ أهمية في عصره عن الشافعي، فهو اعتزالي المذهب على الأرجح، وقريب من أهل الرأي، اهتمّ، في كتبه

---

(1) الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث، القاهرة، ط5، 2005م، ص111 وما بعدها.
(2) المرجع نفسه، ص111.

ورسائله، بالتنظير لمختلف عناصر الخطاب: المتكلم، والنص، والمتلقي، وله اهتمام بالغ بالخطاب الإقناعي بدعوته لمناظرة الخصوم بالحجّة. ونرى أن عنوان كتابه (**البيان والتبيين**) ليس من قبيل المصادفة، ونرجح أنّه من باب بسط النظر في موضوع البيان، الذي سبق الشافعي أن قعّد له. لقد حصر الجاحظ أصناف الدلالة على المعنى بقوله: «جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثم الخط، ثمّ الحال التي تسمى نصبة»(1). وبيان هذه الأصناف من الدلالات كالآتي:

1- بيان باللفظ: اللفظ نفسه.

2- بيان بالإشارة: فهي قد ترافق اللفظ، وتساعده أحياناً.

3- بيان بالخط: وهو معروف؛ أي الكتاب. فهو يُقرأ في كلّ مكان، ويدرس في كلّ زمان.

4- بيان بالعقد: وهو الحساب، وأهميّته لا تخفى، فلولا الحساب لما تمكّن الإنسان من تقسيم الزمان إلى سنين، وشهور، وأيام، ولا عرف كيف ينظم تجارته، وأمور حياته.

5- بيان بالنصبة: و«هي الحال الناطقة بغير لفظ، والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كلّ صامت وناطق، وجامد وتام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة، التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان. وبذلك، قال الأول: سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً»(2).

(1) الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7، سنة 1998م، ج1، باب البيان، ص75 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص75-76.

وبهذا، أشياء العالم كلّها دالة تبيّن بذاتها لمن تبيّنها واعتبرها، بأخذ العبرة منها عبوراً إلى ما بعدها، وهذا لا يتأتّى إلا بالفكر والنظر، الذي نصّ عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع.

إنّ البيان لدى الجاحظ له صلة بفلسفة اللغة، وبالقدرات العقلية والذهنية لدى السامع والمتلقي، والكاتب والقارئ، والمرسل والمرسل إليه، على حدّ سواء. فكلا الطرفين يشترك في عملية البيان والتبيين؛ أي الدلالة على المعنى والإيضاح. وهذه العملية لا تكتمل إلا بتوظيف علم الحساب. ومن المعلوم أنّ لهذا العلم بين سائر العلوم أهمية قصوى في تطور الإنسان، وفي بناء الحضارة. فأهمّ الثورات العلمية في تاريخ البشرية تتصل بهذا العلم، فلولا علم الحساب لما تمكّنت البشرية من تبيّن المساحات، والأشكال الهندسية، والمسافات، والمقادير...إلخ، ولما تمكّنت الإنسانية من الإحاطة بجغرافية الأرض. أمّا الإشارة، فتتأتّى من خلال فكّ رموز الأشياء والظواهر. وهذا كلّه لا يصدق إلا بتفعيل الفكر والنظر في الموجودات، وتبقى اللغة هي الحاملة لمعاني الموجودات ودلالاتها، وبهذا، أصل البيان، عند الجاحظ، العقل، والنظر، والرأي.

بعد هذا العرض الوجيز لموضوع البيان كما حدده الأقدمون، نعود إلى تجلية مفردة البيان، من خلال السياق الكلي للآيات القرآنية. فوصف القرآن بالكتاب المبين جاء في القرآن في أكثر من موضع. قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: 1-3]. قال تعالى: ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النَّمل: 1-2]. قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص: 1-3]. قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يُوسُف: 1]؛ وذلك لكون القرآن كاشفاً، مُعبِّراً عن المقصود، وتتمثل فيه أعلى درجات البيان، إلى درجة أنّه لا يتطلّب من يبينه، أو ما شابه ذلك.

في الوقت الذي وصف الله فيه كتاب القرآن بالكتاب المبين، وصف الكتاب الذي جاء لموسى وهارون بالكتاب المستبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿114﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿115﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿116﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿117﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصَّافات: 114-118]. فما الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين؟ إنّ الكتاب المستبين قد أُوحي به في مرحلة لم يكتمل فيها بناء النبوة بعد. كما أنّه جاء لقوم مخصوصين، فاستبانته منحصرة في الذين نزل عليهم فحسب، بينما الكتاب المبين جاء باكتمال النبوّة، فبيانه يشتمل على الناس أجمعين، كما يشتمل على بيان الكتاب المستبين الذي قبله بفعل الهيمنة والتصديق(1). وحتى نجلي هذا الأمر المنهجي سنتتبع سياقات الآيات الآتية التي تصف القرآن بكون آياته بينات:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿15﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿16﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: 15-17].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريَم: 73].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سَبَإ: 43].

(1) عبادي، أحمد، نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية، مجلة الترتيل، التي تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد1، حزيران/ يونيو 2013م، ص19.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحجّ: 16].

إن سياق هذه الآيات يفيد أنّ هناك، في زمن نزول القرآن الكريم، الكثير من الموضوعات المختلف حولها. وقد جاءت الآيات القرآنية لترفع اللبس والاختلاف، وتجعل حداً للجدل العقيم حولها، فما جاء به القرآن من الآيات، التي تخص تلك الموضوعات، يُعدّ بينات؛ أي فيه كشف للمغطى، ورفع للبس والاختلاف. ومن بين الموضوعات المحورية ما يثيره أهل الكتاب من اليهود والنصارى لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]. وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 19].

تبعاً لما سبق، نورد قول أهل الكتاب حول المسيح ابن مريم؛ إذ جاء القرآن ليبيّن الحق من الباطل في قولهم. قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75].

ويُعد موضوع الخمر من بين الموضوعات التي تمّ الاختلاف حولها، كذلك موضوع الإنفاق، وقد جاءت الآيات القرآنية مبيّنة لما فيه مصلحة في هذا الموضوع. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

في سياق الحديث عن كون آيات القرآن آياتٍ بينات، نجد القرآن ينزّه

نفسه عن أيّ نقصٍ كيفما كان، وهو يقدّم نفسه بأنّه بيان للناس، وبأنه تبيان لكلّ شيء. قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: 89]. وجاءت وصية رب العالمين لرسوله الكريم في سورة القيامة من خلال الآيات (16-19)؛ قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿17﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿18﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. والدعوة، هنا، إلى الاتباع مقرونة بالبيان؛ أي على الرسول الكريم أن يتبع البيان الذي جاء به القرآن الكريم لما تمّ تبديله وتحريفه لما نزل من قبله، ومن ثَمَّ بيان الرسول ﷺ هو بيان للناس لما نزل، ولما لم ينزل، وادّعى أهل الكتاب نزوله، وهذا ما تدل عليه الآية (44) من سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وحتى يدرك الإنسان البيان الذي يضمه القرآن، أنعم الله عليه بنعمة علم القرآن وعلم البيان. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿1﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿2﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿3﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرّحمٰن: 1-4]. فكلما سعى الإنسان إلى تدبّر القرآن وتمعنه أفاض عليه القرآن ببيانه. فبالقرآن يتبيّن لنا ما نزل وما لم ينزل من الوحي، وبالقرآن يتبيّن الإنسان الفرق بين الحق والباطل، والفرق بين الجهل والنور... وبه يدرك، كذلك، بيان آيات الله في الآفاق والأنفس، وتتجلّى له حكمته -جل وعلا- في خلقه، ويحصل له التمييز بين ما هو إنساني، وما هو حيواني، ويسعى إلى الارتقاء في ذرا الإنسانية.

إنّ الآية السالفة الذكر وضعتنا بين سياقين أساسيين للبيان:

- بيان القرآن: الكتاب الذي بيّن ما جاء قبله من الكتاب، وبيانه يضمّ تصورات ورؤى عن مواضع تتعلّق بالكون والإنسان، وبعالمي الغيب والشهادة... وقد ألحّ على النظر وتفعيل ملكات السمع، والبصر، والفؤاد.

- بيان الإنسان: القادر دون غيره من الخلق على أن يتبيّن الظواهر والأشياء، ويعي القوانين التي من ورائها، ويوظّف تلك القوانين في حياته، وتتشكّل له تصورات وآراء حول عالم الغيب، وعالم الشهادة.

ولهذا، موضوع البيان هو موضوع جدل بين الإنسان والقرآن؛ إذ احتفظ القرآن ببيان ذاته؛ لكون آياته بينات ومبيّنات، حتى لا يحتكر أحد عملية تبيينه أو ينسبها إلى نفسه، وفي الوقت ذاته، أقرّ بأن الإنسان يتّصف بخاصية البيان دون غيره من الخلق، وقد يعود -إن شاء- إلى القرآن ليعرض عليه تجاربه البيانية، في البحث في أصل الكون، وبدء الخليقة مثلاً، أو في فهم النفس البشرية، وغير ذلك من الموضوعات التي تشغل العلم، وكان للقرآن فيها كلمته. إنّ القرآن لا يريد من الإنسان أن يكون عالة عليه بطمس ملكة البيان لديه، فعملية البيان هذه عند الإنسان، في بعض تجلياتها الكبرى، لا تكون إلا بحثاً في عالم المحسوسات بما قبله وما بعده، مع العلم بأنّ القرآن يجعل من الأشياء، في الحقيقة، آيات الله؛ إذ لا يمكن إدراك طبيعتها الرمزية إلا من قبل العقلاء[1]. فالنظر إلى البيان، من خلال هذا المنظور، سيخرجه من دائرة اللفظ والمعنى ببيان نصّ بنص آخر دونه، إلى دائرة البحث في الظواهر والأشياء... والوعي بسياقات المفردات، ومآلات النصوص.

إنّ الإنسان في حاجة ماسة إلى بيان القرآن، بينما القرآن يرى نفسه أنّه في غنى عن بيان الإنسان؛ لأن كتاب القرآن الكريم أكبر من وعي الأنبياء، وأكبر من الكون والأسرار التي يضمها، فهو كلمة العلي القدير، الخالق لهذا الكون والإنسان، والباعث للأنبياء والرسل، والعليم الخبير بعالم الغيب والشهادة. فالقرآن الكريم مهيمن على الحركة الكونية بما فيها الإنسان .قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ

(1) توشيهيكو، إزوتسو، الله والإنسان في القرآن، (م.س)، ص216.

أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمَان: 27].

ونشير، هنا، إلى أنّ الفاعل المتحرك في موضوع البيان هو الإنسان العاقل. بينما القرآن الكريم خطاب منزل من عند الله، ومن البديهي أنّه صامت كغيره من النصوص[1]. كما أنّ الكون مادة غير عاقلة. فالإنسان هو المعنيّ بعملية تدبّر بيان القرآن للقرآن نفسه، وقد حثّ القرآن على هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: 82]؛ فالتدبر، هنا، شيء آخر غير البيان؛ إذ من خلال التدبر قد يرتقي الإنسان إلى فهم القرآن في كليته، ويدرك يقيناً أنّه نصّ واحد متكامل لا تعارض بين نصوصه وحقائقه. وقد حثّ القرآن على تدبّر آياته في موضع آخر. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محَمَّد: 24].

كما أنّ الإنسان هو المعنيّ بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وقد حثّه القرآن على هذا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: 185]. ومن ثَمَّ يدور بيان الإنسان ما بين الكتاب المسطور والمنشور؛ قال تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطُّور: 2-3]؛ وبين الكون المنظور. ونخلص من كلّ هذا بكون القرآن حثّ الإنسان على تدبر آياته بدل بيانها، وحثّ على النظر في ملكوت السموات والأرض.

يتضح مما سبق، ومن السياق الكلي للآيات، من داخل البنائية القرآنية، كون القرآن ينفرد بتصوّره الخاص عن مدلول البيان؛ فهو كتاب مبين ومبيِّن، وآياته بينات لما قبله من الكتاب ومبيّنات، وهو كتاب ليس في حاجة إلى من

(1) قال علي بن أبي طالب، بصدد حديثه مع فرقة الخوارج: «... القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال...». انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1407هـ، ج3، ص110.

يبيّن آياته وكلماته، فهو يقوم بهذه العملية بدل أن تقام عليه، أو شيء من هذا القبيل؛ إذ جعل من نفسه كتاباً في غنى عن عملية البيان، التي تفيد شرح ما هو مجمل، أو فيه لبس، وغير ذلك، كما جعل من عملية البيان شيئاً لا يخرج عن نطاقه البنائي ككتاب مفتوح عن الكون والإنسان. فإذا كان كتاب القرآن يقول عن نفسه إنّه مبين ومبيِّن، وآياته بينات ومبيّنات، فما مدلول كلمة التفسير وفقاً للآيات القرآنية؟

التفسير:

قبل أن نتطرّق إلى مدلول مفردة التفسير، على ضوء البنائية القرآنية، سنتوقّف عند العلاقة، التي تربط هذه المفردة (تفسير) بعلم التفسير؛ العلم الذي تمّ تعريفه بكونه «يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك»[1]؛ أي بيان معنى ومدلول النص المنزل. فالبيان في اللغة يفيد الإفصاح، والبين من الرجال؛ أي الفصيح؛ وفلان أبين من فلان؛ أي أفصح منه، وأوضح كلاماً، ورجل بين فصيح»[2]. فكلمة «بيان» تدور حول معنى الدلالة، والفصاحة، والوضوح، والكشف، والظهور.

لقد سارت مفردة (تفسير) تحمل معنى مفردة (بيان) نفسه عند المفسرين وأصحاب المعاجم على السواء؛ إذ جاء في **(لسان العرب)** أنّ «الفسر: كشف المغطى، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل»[3]. وبهذا التداخل بين مفهوم البيان ومفهوم التفسير، عند المفسرين، صار القرآن عند هؤلاء موضوع التبيين، والتوضيح، والشرح، وكشف ما هو خفي فيه،

(1) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط3، سنة 2000م، ص335.

(2) لسان العرب، (م.س)، ج12، ص68.

(3) المرجع نفسه، ج1، ص55.

وطريقهم إلى ذلك هو القبض على معاني الألفاظ والكلمات، كما هي واردة في الشعر العربي وغيره، والاعتماد على الرواية والأثر (الحديث). وهذا يعني أنّ الاصطلاح اللغوي لكلمة «تفسير»، في علاقتها بكلمة «بيان» قد انسحب بالكامل على المدلول الاصطلاحي لعلم التفسير.

أمّا مدلول مفردة «تفسير»، على ضوء البنائية القرآنية، فلم ترد مفردة «تفسير» في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الفرقان. قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرقان: 33]. فمن خلال هذه الآية، وكذلك من خلال سورة الفرقان، يتضح أنّ هذه المفردة جاءت من خلال سياقين:

أولاً: وردت في سياق الأمثال، التي يضربها الكافرون كذباً وبهتاناً، ولم تزدهم تلك الأمثال التي ضربوها إلا ضلالاً على ضلالتهم، وبعضها هو الذي ذكرت به سورة الفرقان. قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: 9]. ومن بين هذه الأمثال، التي ضربت في حقّ ما جاء محمد ﷺ من الوحي، القول بأنّ الرسول جاء بالقرآن من تلقاء نفسه بمساعدة قوم آخرين، والتعجب من اختلاط الرسول بالناس في الأسواق، واستغراب ما يفعله من مستلزمات يومية كباقي الناس، بدعوى أنّ الرسول ينبغي أن يفارق ما عليه الناس، وأن يكون من جنس الملائكة... وغير ذلك[1]. وقد وردت هذه الآية، كذلك، في سورة الإسراء، بعد أن ذكّر الله -جل وعلا- بالأمثال، التي ضربت في حقّ ما جاء به الرسول

(1) قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿4﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿5﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿6﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿7﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفُرقان: 4-8].

الكريم؛ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 48]. وورد النهي في القرآن الكريم على أن لا نضرب لله الأمثال لعلة أنّه -سبحانه- يعلم ما لا علم لنا به. قال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النّحل: 74].

ومن المعلوم أنّ الله -جل وعلا- ضرب للناس الأمثال في القرآن ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43] و﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]. ويعقل الأمثال التي ضربها الله لعباده إلا ذوي العلم منهم لقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]. ومن ثمّ الغاية من المثل في القرآن ما هي إلا دعوة إلى إعمال العقل، والفكر، والنظر. قال تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25]. وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

ومن بين الأمثلة، التي ضربها الله لعباده، يكفي أن نورد الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ (24) تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ (26) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 24-27].

قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النُّور: 35].

ثانياً: ورد هذا المفهوم منسوباً إلى الله -تعالى- ومقروناً بمفردة الحق. وهذا يعني أنّ التفسير، هنا، يُعدّ وجهاً من وجوه الحق ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرقان: 33]، فأحسن التفسير هو لله، وليس لغيره. فمن يريد أحسن التفسير للأمثال، التي ضُربت في حقّ ما جاء محمد ﷺ وغير ذلك، سيجده في القرآن الكريم. ولا شكّ في أن هذا ما قام به الرسول الأمين؛ إذ جعل من القرآن الكريم أحسن تفسير للأمثال كيفما كانت، سواء تلك التي يطرحها الكفار نتيجة كفرهم، أم تلك الأمثال التي يضربها الله للناس لعلهم يتفكرون.

فما اشتبه على الناس من أمور البعث، وما اختلفوا حوله من الأنبياء، وحقيقة ما جاؤوا به، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بآيات الله في الآفاق والأنفس... إلا وفي القرآن الكريم أحسن تفسيراً لإشكالاتهم، وقضاياهم، وتساؤلاتهم... فتفسيره هذا يرقى بهم إلى الحق بدل غيره، وبه يصبحون أناساً أحراراً.

وينبغي ألا يُفهم من كلامنا هذا أنّ القرآن الكريم بمقام تفصيلٍ لجميع الجزئيات اللامتناهية في جميع المجالات؛ لأنّ حكمة الله لم تقتضِ ذلك؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]؛ بل هو تذكير بالحكمة الربانية في الجزئيات والكليات في خلق الله، وفي الآفاق والأنفس.

بعد أن تطرّقنا إلى مفردة (تفسير) في القرآن، سنتطرق، فيما هو قادم، إلى مدلول مفردة (التأويل) في القرآن الكريم، وذلك لكون الحديث عن مفردة (تفسير) سيثير في ذهن القارئ -لا محالة- سؤالاً عن مدلول مفردة (التأويل).

التأويل:

من المعلوم أنّ مفردتي (التأويل) و(التفسير) تشتركان في معانٍ لغوية متقاربة؛ فكلمة (التأويل)، في اللغة، مأخوذة من أصل مادة (أول). وهذه

المادة تدور حول معاني الرجوع، والعاقبة، والمصير، والتفسير. قال ابن فارس: «وآل يؤول؛ أي رجع»[1]. غير أنّ الجرجاني (ت816هـ) يفرّق بين المفهومين بقوله: إن التأويل، في الأصل، «هو الترجيع، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة، مثل قوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95]: إن أراد به إخراج الطّير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو العالم من الجاهل، كان تأويلاً»[2].

ونشير، هنا، إلى أن الفرق الإسلامية من سنّة، ومعتزلة، وصوفية، وغيرهم، إضافة إلى أهل اللغة، قد كانت لهم وجهات نظر متباينة حول مفهوم التأويل. وبما أنّ عرض آرائهم ليس من مهمة بحثنا هذا، سنكتفي بالإشارة إلى كون أهل العرفان قد وسعوا المسافة الفاصلة بين مفهوم التّفسير ومفهوم التّأويل، فقرنوا التفسير بالظّاهر، والتّأويل بالباطن. أمّا أهل البيان فضيّقوا المسافة، حين جعلوا التّفسير يتناول اللفظ، والتّأويل يتناول المعنى العام للعبارة تارة، وربطوا التفسير بالحقيقة، والتأويل بالمجاز في اللّغة تارة أخرى، وذلك شرط وجود قرينة دالّة على إمكان تحوّل اللفظ من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي[3].

وللتأويل ثلاثة معانٍ في الاصطلاح: «**أحدها**: أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام، وإن وافق ظاهره، وهذا هو المعنى الذي يُراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي

(1) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ط3، 1418هـ-1998م، ج1، ص159.

(2) الجرجاني، أبو الحسن، التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/ 1983م، ج1، ص50-51.

(3) الخراط، محمد، تأويل التاريخ العربي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، والمركز الثقافي العربي، ط1، 2013م، ص39.

تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53]. ومنه قول عائشة: (كان رسول الله يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك الله ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن)(1).

والثاني: يراد بلفظ التأويل: التفسير، وهو اصطلاح كثير من المفسرين؛ ولهذا قال مجاهد (إمام أهل التفسير): إنّ «الراسخين في العلم» يعلمون تأويل المتشابه، فإنّه أراد بذلك تفسيره، وبيان معانيه، وهذا ممّا يعلمه الراسخون.

والثالث: أن يراد بلفظ (التأويل) صرف اللفظ عن ظاهره، الذي يدلّ عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل منفصل يوجب ذلك. وهذا التأويل لا يكون إلّا مخالفاً لما يدلّ عليه اللفظ، ويبينه. وتسمية هذا تأويلاً لم يكن في عرف السلف، وإنّما سمّى هذا وحده تأويلاً طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله والكلام، وظنّ هؤلاء أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: 7] يراد به هذا المعنى»(2).

نعود إلى البنائية القرآنية لتتبع مفردة (التأويل)؛ إذ سنتتبعها من خلال سياقات ورودها في سورة الكهف، التي أخبرتنا بقصة موسى والعبد الصالح، وكذلك من خلال سورة يوسف، التي أخبرتنا بقصة نبي الله يوسف، وغيرهما من السور. وقبل هذا، نذكّر بأنّ الباحثة المغربية فريدة زمرد خصّت هذا

(1) رواه البخاري، رقم: 4968، ومسلم، رقم: 484، فهو متّفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(2) أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، منشورات مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/ 1995م، ج4، ص69.

الموضوع بدراسة اصطلاحية شاملة، تحت عنوان: (**مفهوم التأويل في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية**)، وقد خلصت إلى أنّ «التأويل في الاصطلاح القرآني: هو ما يصير إليه القول، أو الفعل، من عاقبة، وتحقّق في عالمي الغيب أو الشهادة»(1).

اتّخذ موسى عليه السلام لنفسه صحبة عبد من عباد الله آتاه الله رحمة، وعلمه من لدنه علماً. وكان هدف موسى أن يتعلّم ممّا علمه الله لعبده، فاشترط العبد على موسى ألا يسأله عن شيء، حتى يحدث له منه ذكراً. فلمّا انطلقا لم يستطع موسى الصبر، ويؤجل أسئلته الآنية إلى وقت لاحق. قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿65﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿66﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿67﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿68﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 65-69]؛ إذ لمّا خرق العبد السفينة، التي يركبها أهلها، قال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: 71].

ولما أقدم العبد الصالح على قتل الغلام، قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 74]. ولمّا بنى العبد الحائط، الذي كاد ينقض في القرية، التي طلبوا الطعام من أهلها فأبوا إطعامهما، قال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77].

وفي كلّ حدث، كان العبد الصالح محذراً لموسى بأنّه لا يستطيع معه صبراً نتيجة أسئلته الآنية، وهذا هو سبب فراقهما، وقبل فراقهما ما كان من العبد الصالح إلا أن أخبر موسى بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً؛ أي بالوقوع المستقبلي لكلّ ما أقدم عليه من خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار.

---

(1) مفهوم التأويل في القرآن، (م.س)، ص140.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78]؛ فالوقوع المستقبلي للسفينة، التي خرقها العبد الصالح، هو قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79]؛ أي إن السفينة سيؤول أمرها إلى هذا الوضع، ويقع عليه، فبسبب خرقه لها تبقى في ملك أصحابها، ولا يغصبها الملك منهم.

أما الغلام فلو لم يقتله العبد لآل أمره إلى إرهاق أبويه طغياناً وكفراً؛ أي ستقع حالة أمره على هذه الحالة التي خشيها العبد فقتله. وأما الجدار، الذي بناه دون أن يأخذ عليه أجراً، فوقوع أمره هو حفظ كنز في أسفله لغلامين يتيمين في المدينة حتى يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما، رحمة من الله. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿80﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿81﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 80-82].

إنّ العبد الصالح لم يُقبِل على كلّ هذا انطلاقاً من ذاته، بل لِما علّمه الله من رحمته ومن علمه سبحانه؛ أي القدرة على التنبؤ وإدراك ما سيؤول إليه العديد من الأمور والأحداث، وما ستقع عليه .قال تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

يتّضح مما سبق أنّ السياق، الذي وردت فيه مفردة (تأويل)، من خلال سورة الكهف، يفيد أنّ التأويل يعني: ما يؤول إليه الأمر.

بعد أن رفع يوسف عليه السلام أبويه على العرش، وخروا له سجداً، كان قوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يُوسُف: 100]؛ أي وقوع رؤياه التي رآها في المنام، وهو في الصغر، وأخبر بها أباه. قال تعالى: ﴿إِذْ

قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: 100]. فالله -سبحانه وتعالى- آتاه من الملك، وعلمه من تأويل الأحاديث؛ القراءة المستقبلية للوقائع والأحداث. قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف: 6]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

فلما رأى الملك، الذي كان لديه يوسف، رؤياه التي مفادها سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع بقرات عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، حار في أمره؛ إذ لا علم له بتأويل هذه الرؤيا، فما كان له إلا أن طلب من قومه أن يستفتوه في رؤياه، ولا أحد له القدرة على ذلك. فلمّا استفتوا يوسف في رؤيا الملك أخبرهم بما سيقع في القريب، وبما سيؤول إليه الأمر، وذلك أنّهم سيزرعون سبع سنين تعود عليهم بالنفع الكثير، ويجب أن يدّخروا الكثير مما حصدوه للسنين السبع التالية، التي لا حصاد فيها إلا ما ادخروه من قبل، وبعدها يأتي عام فيه يغاث الناس. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿43﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿44﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿45﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿46﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿47﴾ ثُمَّ يَأۡتِي

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: 43-49].

إن ما أخبر به يوسف هو ما تحقّق في الواقع؛ إذ أشرف هو بنفسه على خزائن الأرض، فهو الحفيظ والرقيب عليها. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿54﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿55﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿56﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 54-57].

وقبل هذا، عندما كان في السجن داخل قصر الملك، قال أحد الفتيين، اللذين دخلا معه السجن: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 36]، وقال الآخر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ [يوسف: 36]. وكان طلبهم من يوسف أن يخبرهم بما سيقع في مستقبلهم، وإلى أيّة حالة يؤول أمرهم، فقال للأول إنه سينجو من السجن، وبعده سيسقي الملك خمراً، وطلب منه أن يذكره عند الملك، لكن الشيطان أنساه ذلك. أمّا الآخر، فمصيره أنه سيصلب، وتأكل الطير منه، وهذا ما آل إليه الأمر، ووقع عليه. قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]. قال تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿41﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 41-42]. يتضح ممّا سبق أنّ السياق، الذي وردت فيه مفردة (تأويل)، من خلال سورة يوسف، يفيد أن التأويل يعني ما يؤول إليه الأمر.

وفي سورة النساء: فبعدما أمرنا الله أن نؤدي الأمانات إلى أهلها، وأن نحكم بين الناس بالعدل، وأن نطيع الله ورسوله، وأولي الأمر منّا، وإن

تنازعنا في شيء نردّه إلى الله والرسول، كان قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النِّسَاء: 59]، بمعنى أنّ حالة أمرنا من الأحسن أن تقع وفق ما أمرنا به، وهذا أحسن الوقوع. وكذلك هو الأمر في سورة الإسراء، بعد نهيه -سبحانه- عن قتلنا أولادنا خشية إملاق، وألا نقرب الزنى، وألا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وألا نقترب من مال اليتيم حتى يبلغ أشدّه، وأن نوفي بالعهد، وأن نوفي الكيل، جاء قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسرَاء: 35]، بمعنى إذا وقعت أفعالنا، وآلت إلى هذه الحالة التي أمرنا بها، فهذا هو الخير، وأحسن الوقوع. كما أنّ القرآن الكريم أخبرنا بما ستؤول إليه حالة هذه الدنيا التي نحياها، وأخبرنا بوقوع يوم القيامة، ويوم البعث، ويوم الحسبان، وغير ذلك من أمور المستقبل، التي لا علم لنا بها إلا ما أخبرنا به -سبحانه- عن طريق أنبيائه عليهم السلام. ولا يعلم زمن ولحظة وقوعها إلا هو سبحانه، إلا أنّ البعض من الناس، إما لجحودهم، وإما لعجالة من أمرهم، أو لتكذيبهم بما لم يحيطوا به علماً، نسوا ما جاءهم من الكتاب، وما أخبرتهم به الأنبياء والرسل، ويستعجلون وقوع ما أُخبروا به. لكن يوم يأتي وقوع (تأويل) ما أُخبروا به ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعرَاف: 52-53]. وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يُونس: 39].

أما الذين في قلوبهم زيغ، فيطلبون وقوع ما أخبر القرآن به من أمور الغيب. ولكن طلبهم وتتبعهم هذا ليس من أجل العلم، ولكن من أجل الفتنة، كما سُئل الرسول من قبل عن الساعة، وعن الروح، وغير ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿42﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿43﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿44﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿45﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 42-46]. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. أمّا الراسخون في العلم، فيقولون آمنّا به كلّ من عند ربنا، فإيمانهم هذا يشتمل على عالم الغيب وعالم الشهادة، وفوق كلّ ذي علم عليم، والله هو السميع العليم.

وبناء على ما سبق، يمكن القول: إنّ الخلاف، الذي كان متداولاً حول مفهوم التأويل بين الأصوليين والمفسرين وغيرهم، وإن كان مفهوم التأويل مرادفاً لمفهوم التفسير أم لا، أو أنّ لفظ التأويل يقتضي صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح، أو أنّ التأويل هو باطن الشيء بدل ظاهره، وغير ذلك من المقاربات والأقوال؛ كلّ ذلك لا صلة له بمفهوم التأويل في سياق القرآن الكريم.

وفي نظرنا، أنّ تأويل الرؤيا والأحاديث بالإمكان أن يكون علماً كباقي العلوم، وقد عرفته الحضارات العريقة في القدم، كالتي عاصرها يوسف وأبوه يعقوب، ومن بعدهم موسى، ولا شك في أنّ له قواعده، وأسسه، وآلياته، التي يتقنها ويجيدها نبي الله يوسف بفضل من الله. والناس، في كثير من الثقافات، ما زالت بيدهم شذرات قليلة جداً من هذا العلم تختلط بكثير من الظن، والباطل، والتكهن، والبهتان، ولا تحتكم إلى سلطان العلم؛ أي السمع، والبصر، والفؤاد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36] كما هو شأن كثير من العلوم، التي يعرفها الناس اليوم؛ أي التي لها أسسها، وقواعدها، وآلياتها الخاصة.

وينبغي ألا يُفهم كلامنا هذا على عكس ما نقصد؛ إذ يظن البعض أنّ هذا العلم باب من معرفة الغيب، الذي لا علم لنا به، إلا بما أخبرنا به، فنبي الله

يوسف وغيره لا دراية ولا علم له بعلم الغيب، إلا بما أوحى الله به إليه. فإخراج هذا العلم وبناؤه من جديد يحتاج إلى جهد كبير جداً.

وعي القرآن لذاته:

يقدّم القرآن نفسه على أنّه هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان؛ من عند الله لا اختلاف فيه؛ موحى وحياً؛ وعده الحق؛ مبيّن؛ عظيم؛ لا يمسّه غير المطهرين؛ يهدي للتي هي أقوم؛ ويبشر المؤمنين الذي يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً؛ شفاء ورحمة للمؤمنين؛ لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ صرف فيه للناس من كلّ مثل؛ فرق ليقرأ على الناس على مكث ونزل تنزيلاً؛ رتل ترتيلاً؛ يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون؛ فرض على محمد؛ ضرب فيه من كلّ مثل؛ قرآن حكيم، مبين؛ ذي الذكر؛ عربي غير ذي عوج؛ قرآن مجيد؛ يذكر به من يخاف وعيد؛ يسر للذكر؛ كريم؛ لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله؛ قرآناً عجباً؛ قابل للترتيل؛ تعهد الله بجمعه وقرآنه، وجعل عليه بيانه عند اتباع قرآنه. وإذا كان القرآن كذلك، فليس من العلم في شيء أن يقع اللقاء معه دون احترام خاصياته التي يعيها[1].

❋ ❋ ❋

(1) الطاهر، ناجي بن الحاج، التأويل في القرآن المجيد رؤية معرفية، مجلة التأويل، منشورات مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة لمحمدية للعلماء بالمغرب، العدد1، أيلول/ سبتمبر 2014م، ص53-54، (بتصرف).

الفصل الثاني

منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم

المبحث الأول

أقوال المفسرين حول كون القرآن مصدقاً ومهيمناً على ما قبله من الكتاب

أ- عرض لآراء أهم المفسرين:

سبقت الإشارة إلى أنّ الحديث عن موضوع التصديق والهيمنة جاء بشكل مباشر من خلال الآية (48) من سورة المائدة من داخل القرآن الكريم؛ ولهذا، ينبغي لتقصي أقوال وآراء المفسرين حول الموضوع، في نظرنا، أن يكون من خلال تقصّي أقوالهم حول هذه الآية، ومن الطبيعي أنّه ليس بوسعنا أن نستعرض جميع أقوال المفسرين كلّهم حول قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]؛ ولهذا سنتتبع أقوال أهمّ المفسرين المشهورين حسب التتابع الزمني، وسنكتفي ببعضها، ولاسيما ما هو متداول منها؛ كما أنّنا سنعرض آراءهم دون أن نتبعها بتعليق، أو ما شابهه، وسنحتفظ بذلك إلى ما سنستنتجه من عرض أقوال هؤلاء.

فقد أورد محمد بن جرير الطبري (في ق 3هـ) في هذه الآية قوله: «وهذا خطاب من الله -تعالى- ذكره لنبيه محمد ﷺ. يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا

محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن، الذي أنزله عليك. ويعني بقوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ولا كذب فيه. ولاشك أنّه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: وأنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها لأنبيائه. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدقاً للكتب قبله، وشهيداً عليها أنّها حق من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها. وأصل (الهيمنة) الحفظ والارتقاء»[1]. كما أوردَ العديد من الآثار، التي تدلّ على أنّ ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ تفيد شهيداً عليه، وأميناً عليه، ومؤتمناً عليه. ومن هذه الآثار التي أوردها: «حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا محمد ابن مفضل قال: حدثنا أسباط السبتي: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: شهيداً عليه.

حدثني بشير بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: 48] يقول: الكتب التي خلت قبله .﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله.

حدثنا محمد بن عبيد المحاربي قال: حدثا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس في قوله ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، قال: مؤتمناً عليه»[2].

وأورد نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (في ق 9هـ) في فهمه للآية قوله: «بأن الله -تعالى- منّ على نبينا ﷺ بإنزال القرآن إليه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب؛ أي جنسه، وهو كلّ كتاب سوى القرآن نازل من السماء. وفي المهيمن قولان: قال الخليل وأبو عبيدة: هيمن على الشيء يهيمن؛ إذا كان رقيباً على الشيء، وشاهداً، ومصدقاً. وقال الجوهري: أصله: أأمن بهمزتين، قُلبت الثانية ياءً لكراهة اجتماع الهمزتين،

(1) الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/ 2000م، ج10، ص377.
(2) المرجع نفسه، ص606-607.

ثمّ الأولى هاء، كما في هرقت وهياك. والمعنى أنه أمين على الكتب التي قبله؛ لأنه لا ينسخ البتة، ولا يحرف لقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: 9]. ومن هنا قرئ: ﴿وَمَهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ فتح الميم؛ أي هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، والذي هيمن عليه عز وجل كما قلنا، أو الحفّاظ في كلّ بلد والقراء المشهود لهم بالإجادة»[1].

ويرى أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي، (في ق 5هـ)، أنّ «قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: 48] يعني القرآن.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المَائدة: 48] يعني لما قبله من الكتاب، وفيه وجهان:

أحدهما: مصدقاً بها، وهو قول مقاتل.

والثاني: موافقاً لها، وهو قول الكلبي.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: يعني أميناً، وهو قول ابن عباس.

والثاني: يعني شاهداً عليه، وهو قول قتادة، والسدي.

والثالث: حفيظاً عليه»[2].

أما محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة (538هـ، ما بين ق 5

(1) القمي النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين، تفسيرغرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1416هـ، ج2، ص600.

(2) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، تفسيرالنكت والعيون، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج2، ص35.

و6هـ)، صاحب تفسير (**الكشاف**)، فقد اكتفى بقوله: «مهيمناً: رقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات»[1].

أما صاحب (**مفاتيح الغيب**) الفخر الرازي، (في ق 6هـ)، فيرى «أن قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المَائدة: 48] فيه مسائل:

المسألة الأولى: في المهيمن قولان: الأول: قال الخليل وأبو عبيدة: يقال قد هيمن إذا كان رقيباً على الشيء، وشاهداً عليه، حافظاً. قال حسّان:

إنّ الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه ذوو الألباب

والثاني: قالوا: الأصل في قولنا: آمن يؤمن فهو مؤمن، أأمن يؤامن فهو مؤأمن بهمزتين، ثم قُلبت الأولى هاء، كما في: هرقت وأرقت، وهياك وإياك، وقلبت الثانية ياء فصار مهيمناً؛ فلهذا قال المفسرون: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾؛ أي أميناً على الكتب التي قبله.

المسألة الثانية: إنّما كان القرآن مهيمناً على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخاً البتة، ولا يتطرّق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أنّ التوراة والإنجيل والزبور حقّ صدق باقية أبداً، فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبداً»[2].

ويرى ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، (في ق7هـ)، أنّ قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من جنس الكتب المنزلة؛ فاللام الأولى للعهد، والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ ورقيباً

(1) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبها وضبطها محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/ 2003م، ج1، ص627.

(2) فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ، ج12، ص371.

على سائر الكتب يحفظه عن التغيير، ويشهد له بالصحة والثبات، وقرئ على بنية المفعول؛ أي هو من عليه، وحوفظ من التحريف، والحافظ له هو الله سبحانه وتعالى، أو الحفاظ في كل عصر»(1).

أما صاحب (**تفسير القرآن العظيم**) ابن كثير، (في ق 8هـ)، فيرى أنّ قوله تعالى: «﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنّه من عند الله، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنّه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، ممّا زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله... وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أي: مؤتمناً عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله»(2).

أما أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف (654-745هـ)، (ما بين ق 7 و8 هـ)، فأهم ما جاء به نقلاً عن ابن عطية «أن لفظ المهيمن أخصّ من لفظ شاهد. ومؤتمن، ورقيب، وأمين؛ لأنّ المهيمن على الشيء هو المعنيّ بأمره، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحامله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والقرآن جعله الله مهيمناً على الكتب، يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها، فيصحح الحقائق، ويبطل التحريف»(3).

---

(1) البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد، تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ترجمة محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، ج2، ص129.

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1999 م، ج3، ص127.
أحمد محمد شاكر، دار الوفاء، ط1، 1424هـ/ 2003م، ج1، ص607.

(3) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق =

وأورد أبو بكر البقاعي، (في ق 9هـ)، قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المَائدة: 46]؛ أي تقدمه.

ولما كانت الكتب السماوية، من شدّة تصادقها، كالشيء الواحد، عبر بالمفرد لإفادته الجمع، وزيادة دلالة على ذلك، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النَّمل: 40]؛ أي الذي جاء به الأنبياء من قبل ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ [المَائدة: 48]؛ أي شاهداً حفيظاً مصدقاً وأميناً رقيباً ﴿عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]؛ أي على كل كتاب تقدمه... وفي هذه الصفة بشارة لحفظه -سبحانه- لكتابنا حتى لا يزال بصفة الشهادة، فإنّ الله -تعالى- استحفظهم كتبهم، فعجزوا عنها، فحرفها محرفوهم، وأسقطوا منها، وأسقط مسرفوهم، فتكفل هو -سبحانه- بحفظ كتابنا فكان قيماً عليها، فما كان فيها موافقاً له فهو حق، وما كان فيها مخالفاً فهو إما منسوخ أو مبدل فلا يعبر؛ بل يحكم بما في كتابنا؛ لأنه ناسخ لجميع الكتب، والآتي به مرسل إلى جميع العالمين، فملته ناسخة لجميع الملل»[1].

يرى شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، (في ق 13هـ)، أن كتاب القرآن الكريم جاء مصدقاً لما قبله من الكتاب، والمقصود هنا بالتصديق هو كتاب التوراة والإنجيل، أما هيمنة القرآن على ما قبله، في نظر الألوسي، فهي تفيد كون القرآن رقيباً على كل الكتب؛ حيث يشهد لها بالصحة والثبات، ويقرر أصول شرائعها، وما يتأبد من فروعها، ويعين أحكامها المنسوخة. وقد أورد الألوسي، في هذا الصدد، قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، قولهم فيما يخص مهيمناً: أي شاهداً عليه بأنه الحق[2].

= عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ، ج3، ص513، (بتصرف).

(1) أبو بكر البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - مصر، (د.ت.ط)، ج6، ص170.

(2) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، تفسير روح المعاني في تفسير =

وقد فصل محمد بن علي الشوكاني، (في ق 13هـ)، في الموضوع، بقوله: «﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المَائدة: 48] للجنس: أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبساً بالحق، وحال كونه مصدّقاً لما بين يديه من كتب الله المنزلة؛ لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله، والأمر بالخير، والنهي عن الشرّ، كما اشتمل عليه قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48] عطف على مصدّقاً، والضمير في عليه عائد إلى الكتاب الذي صدقه القرآن، وهيمن عليه، والمهيمن: الرقيب؛ وقيل: الغالب المرتفع؛ وقيل: الشاهد، وقيل: الحافظ؛ وقيل: المؤتمن. قال المبرد: أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء، كما قيل في أرقت الماء: هرقت، وبه قال الزجاج وأبو عليّ الفارسي. وقال الجوهري: هو من أمن غيره من الخوف، وأصله أأمن فهو مؤأمن بهمزتين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيمن، ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا: هراق الماء وأراقه. يقال: هيمن على الشيء يهيمن: إذا كان له حافظاً، فهو له مهيمن، كذا عن أبي عبيد. وقرأ مجاهد وابن محيصن: «مَهيمناً عليه» بفتح الميم؛ أي: هيمن عليه»(1).

أما صاحب **(تفسير المنار)**، محمد رشيد رضا، (في ق 14هـ)، فبعد أن أورد قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]، قال: «أي وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين... وهو القرآن المجيد، بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه (التوراة)، وكتاب عيسى باسمه الخاص (الإنجيل)... وقوله بالحق... إلخ. معناه: أنزلناه متلبساً بالحق، ومؤيداً به، مشتملاً عليه، ومقرراً له، حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقاً لما تقدمه من جنس

= القرآن العظيم والسبع المثاني، حققه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1998م، ج16، ص320.

(1) الشوكاني، محمد بن علي، تفسير فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق - سورية، ودار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ، ج2، ص43.

الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل؛ أي ناطقاً بتصديق من عند الله... وأما قوله (ومهيمناً عليه) (أي على جنس الكتاب الإلهي) فمعناه أنه رقيب عليها، وشهيد لما بينه من حقيقة حالها، في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها... والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. ومن الغرائب أن بعض المفسرين فهم من هيمنة القرآن على الكتب التي بعدها، أنه يشهد لها بالحفظ من التحريف والتبديل!. واللفظ لا يدل على هذا المعنى، فإذا كان معنى المهيمن: الشهيد، فهل يصح أن يتحكموا في شهادته كما يشاؤون؟ أم الواجب عليهم الرجوع إلى ما قاله في شأن هذه الكتب وأهلها، لأنه هو نص شهادته لها وله...؟ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وَحَسْبُهُمْ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَفْسِهَا فِي كُلٍّ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا﴾ [المَائدة: 14]، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ قَبْلَهَا إِنَّهُمْ ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النِّسَاء: 44]، وَقَالَ فِيهِمَا جَمِيعًا إِنَّهُمْ كَانُوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النِّسَاء: 46][1].

أما صاحب التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (في ق 14هـ)، فمجمل قوله في الموضوع قوله: «أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة إلى ما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع، مقرر له من كل حكم كانت مصلحته كلية لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو، بهذا الوصف، مصدق، أي محقق ومقرر، وهو، أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة، وناسخ لأحكام كثيرة من كلّ ما كانت مصالحه جزئية مؤقتة مراعى فيها أحوال أقوام خاصة»[2].

(1) رضا، رشيد، تفسير القرآن الحكيم -المنار-، دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ/1999م، ج6، ص340- 341.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984م، ج6، ص221.

أما صاحب (**في ظلال القرآن**)، سيد قطب، (في ق 14هـ) فكان قوله: «وأخيراً يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة، والى الشريعة الأخيرة، إنها الرسالة التي جاءت تعرض (الإسلام) في الصورة النهائية الأخيرة؛ ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً، ولتهيمن على كلّ ما كان قبلها، وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله لحياة البشرية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: 48] يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية، وهي الجهة التي تملك حق تنزيل الشرائع، وفرض القوانين، ويتمثل الحق في محتوياته ...﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فهو الصورة الأخيرة، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن... ومن ثم، كل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه»[1].

أمّا صاحب تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي (في ق 14هـ)، فيرى «أنّ المهيمن على الشيء هو: القائم على شؤونه، وله حق مراقبته، وتولي رعايته... فـ: (القرآن مصدق لما تقدمه من الكتب) الإلهية، كالتوراة، والإنجيل، ومهيمناً وشهيداً عليها بما بينه من حقيقة أمرها، وما كان من حال من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها، وتحريف كثير مما بقي منها... والإعراض عن العمل به»[2].

ب- خلاصة واستنتاج:

تتّفق أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48] على أنّ القرآن شاهد على ما قبله من الكتب السماوية، ومؤتمن عليها.

---

(1) قطب، سيد، تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - لبنان، ط17، 1412هـ، ج2، ص879.

(2) المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1998م، ج4-5-6، ص446-447.

إلا أنّ أبا حيان الأندلسي امتاز قوله في الموضوع بالدقّة والوضوح، وفي نظره جعل الله القرآن مهيمناً على الكتب، يشهد بما فيها من الحقائق، وما نسبه المحرفون، فيصحح الحقائق، ويبطل التحريف. وبهذا المعنى، تحدث رشيد رضا كذلك، فالقرآن يبيّن حال من خوطبوا بالكتب السابقة، ويبطل ما حرفوه، وما بدّلوه. وقد حاول الطاهر بن عاشور أن يربط علاقة القرآن بما قبله من الكتاب ببعد المقاصد في التشريع، وهذا أمر جميل، إلا أنه لم يفصل، بشكل منهجيّ كبير، في هذا الرأي، فالقرآن، في نظره، قد أبقى على التشريعات الكلية، التي لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان؛ وبهذا هو مصدق لما قبله. وفي الوقت ذاته، هو مبطل وناسخ للتشريعات الجزئية المتغيرة بتغير أحوال الناس، وبهذا هو مهيمن على ما سبقه، تبعاً لما فهمنا من قوله.

بهذا الفهم المتداول، يتضح أنّ المفسرين على وعيٍ تام بمفهوم التصديق والهيمنة في القرآن، إلا أنّهم - حسب ما نعلم- على الرغم من وعيهم بهذا المعطى، لم يكرّسوا جهدهم في العمل على إظهار القضايا والموضوعات، التي عمل القرآن، من خلال سوره وآياته، على استرجاعها، بمدخل نقدي ينفي عنها ما لحقها من التبديل والتحريف، مع العلم بأنّ هناك العديد من الموضوعات الواردة في الكتاب المقدس قد تعرض لها القرآن مجدداً، مثل: قصة الخليقة وخلق آدم، وقصة نوح، وقصة إبراهيم... ولاسيما ما اتصل بالقصص القرآني، فالسؤال، الذي يعترضنا هنا، هو كالآتي: ما الخصوصيات التي يتفرّد بها القرآن عن غيره وهو يعيد تلك الموضوعات مجدداً؟ وإلا فما الفائدة من ذكرها، والوقوف عندها؟

كما أنّ المفسرين، عند حديثهم عن موضوع التصديق والهيمنة، لم يشغلوا أنفسهم في الكشف عن القواعد التي وضعها القرآن بصدد علاقته بالكتب السابقة؛ أي الكتاب المقدّس كما هو في زمن نزول القرآن؛ إذ

الوقوف عند تلك القواعد، التي حددها القرآن، سيعود بالفائدة على المفسر في الإحاطة بالصورة التي رسمها القرآن لمجموعة من الموضوعات الواردة في الكتاب المقدس، وهذا مدخل، في نظرنا، لا بد منه تماشياً مع كون القرآن مصدقاً ومهيمناً على ما قبله من الكتاب، فالتصديق، هنا، يجعل من الدارس والباحث في مستوى لا مفرّ له من الاطلاع على ما يحتويه الكتاب المقدس. أما الهيمنة فتجعله أمام مهمة البحث والغوص في السياقات الكلية من داخل القرآن الكريم، وهو يعرض ما ينطوي عليه الكتاب المقدس من الموضوعات.

إنه من التعسف بمكان أن يتمّ التعاطي مع النصوص الدينية (الكتاب المقدس، القرآن الكريم) وكأنها نص واحد تنطبق عليه الخصوصيات نفسها، وتسري عليه المميزات نفسها، فالعلمية تقتضي مراعاة الخصوصيات المنهجية والتاريخية... التي تحيط بكلّ نص دينيّ على حدة. وفي إطار البحث العلمي ينبغي الكشف عن الصورة، التي يحملها كلّ نصّ على حدة؛ عن موضوع معين من الموضوعات، إذ سيمكّن هذا الأمر من فرز تصورات كلّ نص عن الموضوع المبحوث فيه، وهذا الأمر ستترتب عليه إمكانية المقارنة بين ما قال به كلّ نص في الموضوع المبحوث فيه. فالغاية المنهجية، هنا، تقف عند الوصول إلى الصورة المتكاملة للموضوع المبحوث فيه، والتي ينبغي ألا تحتمل التعارض بين مكوناتها، وهذا المبدأ المنهجي في القراءة والتحليل مبدأ قرآني بامتياز. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: 82].

إنّ هذا الموضوع، في نظرنا، يأخذ، اليوم، أهميته من خلال العمل والتعاطي العلمي مع النصوص المؤسسة للديانات السماوية بالوقوف عند نقط التلاقي والاختلاف فيما بينها بشكل عام، وبشكل خاص الكشف عن المميزات المنهجية والمعرفية، التي تفرّد بها القرآن الكريم عن غيره من تلك

الكتب، ما جعل منه كتاباً مصدقاً ومهيمناً على ما قبله من الكتاب، وهذا الأمر هو ما سنلقي عليه الضوء في المبحث القادم.

ج- السياق الكلي الذي ورد فيه موضوع «التصديق والهيمنة»:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ
إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ
لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ
فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ
وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ
لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ
فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ
بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن
تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (47) وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿48﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 41-49].

السياق العام، الذي ورد فيه موضوع التصديق والهيمنة، من خلال سورة المائدة، يشتمل على الآية (41) حتى الآية (49) من السورة نفسها؛ إذ جاءت الآية (41) موجهة الرسول الكريم بألا يحزنه ما عليه بعضٌ من أهل الكتاب، اليهود خاصة منهم، وذلك لكونهم يكذبون على الله، ويحرفون الكلام الذي جاءهم من عنده عن مواضعه ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾، وبعد ذلك يعترضون على ما جاء الرسول الكريم، بدعوى أنّ ما جاءه لا يعنيهم في شيء. فهم، من جهة، يحرفون ما جاءهم من عند الله قبل بعثة محمد، ومن جهة ثانية، لا يقبلون بما جاء به محمد ﷺ، وبهذا هم يضيعون الوحي، سواء الذي كان بين أيديهم أم الذي جاء به محمد ﷺ.

فالمشكل، الذي عرضه القرآن، هنا، لا يتعلق بإجبار أو إكراه أهل الكتاب على الإيمان بما جاء به محمد، بقدر ما يتعلق الأمر بمشكلة التزييف والتحريف لما بين يديهم بغية تضليل الرسول، وفتنته عن ما جاءه من الحق؛ ولهذا جاءت الآية (43) بصيغة التعجب ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذ الأولى أن يحتكموا إلى ما عندهم في التوراة، إن لم يقبلوا بما جاء به محمد ﷺ، ونتيجة تحريفهم لما كان بين أيديهم، جاءت الآيات من (44) حتى (46) مظهرة للأحكام التي يضمّها نصّ التوراة، وهي: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾، وقد ذكرت الآيات أنّ التوراة ﴿هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ فكتاب التوراة،

الذي يضم الهدى والنور، قد أُوكِلت مهمة حفظه والشهادة عليه للربانيين والأحبار من اليهود، إلا أنهم، مع الأسف، لم يكونوا في مقام هذه المسؤولية. ونستشفّ هنا استثناء ما جاء محمد ﷺ من هذه القاعدة، فحفظُ ما نزل على محمد ﷺ موكول لله عز وجل: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾. وجاءت الآية (46) لتأكيد أنّ عيسى ابن مريم جاء مصدقاً لكتاب التوراة، الذي نحن بصدد الحديث عنه، فعيسى قد اقتفى آثار اليهود؛ أي كان متبعاً لما في التوراة، ولم ينقض ما جاء فيها: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقد جاءت الآية (47) تدعو أهل الإنجيل، كذلك، للحكم بما جاء في الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾. وإلا فسينطبق عليهم ما كان عليه اليهود من أهل الكتاب.

إنّ السياق العام لكلّ هذه الآيات، التي تطرّقنا إليها، يعرض قضية منهجيّة خطيرة تتعلّق بتبديل وتزييف الكتاب (كتاب التوراة وكتاب الإنجيل)، مع العلم بأنّ مهمة حفظ هذه الكتب موكول لأهلها من اليهود والنصارى، الذين سماهم القرآن أهل الإنجيل. كما تطرق السياق إلى تأكيد أمر في غاية الأهمية، وهو كون كتاب الإنجيل مصدقاً لكتاب التوراة. وما دام أمر الكتاب (التوراة والإنجيل) على هذه الحال، فلا غنى عن مطلب التصحيح وإعادة البناء، وهذا ما سماه القرآن التصديق والهيمنة.

الآن وصلنا إلى الآية (48)، التي نحن بصددها، فخاصيّة التصديق خاصية سابقة لزمن نزول القرآن، وهي سارية المفعول في علاقة الإنجيل بالتوراة، وهذه الخاصية وحدها اقتضت أن تكون مهمة حفظ تلك الكتب موكولة لأصحابها، بينما خاصية الهيمنة إلى جانب خاصية التصديق، ارتبطت بنزول القرآن الكريم وحده، واقتضت أن تتكفل العناية الربانية بمهمة حفظ

الكتاب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. فالكتاب، الذي نزل على مخمد، جاء بالحق بدل الأهواء التي عليها أهل الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]، فعلى الرسول الكريم أن يتبع ما جاءه من الحق في قضية الحكم بين أهل الكتاب ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: 48]، فالحق، هنا، في علاقته بالحكم بين أهل الكتاب، يرتبط بمنهاج الشرعة، فمنهاج وشرعة محمد ليست هي شرعة ومنهاج أهل الكتاب ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: 48]، فإن شاء أهل الكتاب أن يتبعوا شرعتهم ومنهاجهم، فعليهم أن يأخذوا بما ذكرهم القرآن به، وهو ما جاءت الآية (45 و46) على ذكره لكون ذلك هو الحقّ المنزل إليهم من قبل، وإن لم يشاؤوا هذا الحكم الخاص بهم، فعليهم أن يتبعوا ما عليه محمد من شرعة التخفيف والرحمة الناسخة بفعل الهيمنة(1) لشرعة الإصر والأغلال، وهذا الأمر وارد في الآية (157) من سورة الأعراف: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. ويمضي بنا سياق الآيات، ليؤكّد التعددية في منهاج الشرعة، وهذا أمر ينسجم مع القوانين المبثوثة في الاجتماع البشري ككل. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المَائدة: 48].

نخلص، من خلال السياق الكلي، الذي ورد فيه موضوع التصديق والهيمنة، من خلال الآية (48) من سورة المائدة، إلى أنّ زمن نزول القرآن

---

(1) انظر: الفصل الأول من البحث، مبحث تحديد المصطلحات على ضوء البنائية القرآنية، فقرة: الهيمنة «مهيمناً».

الكريم على محمد قد صاحبه نقاش وجدال من طرف أهل الكتاب في علاقتهم بالرسول الكريم، ويتعلق هذا الجدال بمحاولتهم حصر مشروعية الوحي فيما بين أيديهم من الكتاب، الذي أقدموا على تحريفه وتبديله، وقد عملوا على نشر الفتنة بين الناس؛ إلى درجة أنّ القرآن الكريم حذّر الرسول من هذا الأمر ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المَائدة: 49].

ونخلص، كذلك، إلى أنّ القرآن الكريم قد ذكّر بالأحكام والشرعة، التي ينطوي عليها كتاب التوراة، وكذلك كتاب الإنجيل، الذي جاء مصدقاً لكتاب التوراة، بدل الأهواء التي يقول بها أهل الكتاب. وبهذا، القرآن الكريم قد حدّد علاقته المنهجية بما قبله من الكتاب بكونه مصدقاً ومهيمناً على ما سبقه، وتطبيق هذا المعطى المنهجي يكمن في الاسترجاع النقدي، الذي قام بها القرآن الكريم لما قبله من الكتاب، مثل ما تطرّقت إليه الآية (45) و(46) من سورة المائدة، ويضمّ القرآن، في العديد من سوره، جزءاً كبيراً من المواطن، التي اتصفت بهذا المعطى المنهجي، بدءاً من سورة البقرة وغيرها؛ فالقراءة النقدية للكتاب المقدس، اليوم، تقتضي التوسّل بما جاء في القرآن عن تلك الكتب. كما أنّ الإحاطة الكلية بما يضمّه القرآن من قصص الأنبياء وغيرها، التي يضمها الكتاب المقدس اليوم، تقتضي النظر إلى تلك القصص كما هي في الكتاب المقدس لمعرفة المواطن والمواضع والسياقات، التي عمل القرآن على إظهارها واسترجاعها، بعد أن تمّ إخفاؤها من قبل أهل تلك الكتب.

وقد يتساءل السائل عن ماهية الغاية والهدف الذي يبتغيه القرآن من عملية التصحيح والمراجعة؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن في كون هذا الأمر يتعلق بجزء كبير من المشترك التاريخي الإنساني، الذي تشكّل قصص الأنبياء محوراً أساسياً منه بدءاً من آدم إلى محمد ﷺ؛ إذ من الأولى أن نعود إلى هذا المشترك عودةً يحضر فيها الحق بدل الباطل والأهواء.

المبحث الثاني

القرآن الكريم مقدمات في المنهج

يكتنز الخطاب القرآني[1]، داخله، الكثير من الخصوصيات التي تجعله متفرداً عن غيره من الكتب السالفة التي سبقته، فهو، في نظرنا، يضمّ بين طيّاته مقدّمات في المنهج، الذي ينبغي التوسل به لفهم قضاياه ومواضعه، باعتباره كتاباً مفتوحاً على الكون، والإنسان، والتاريخ، والمجتمع، ما يجعله في استجابة مستمرّة لأسئلة العصر، وقضاياه المعرفية.

إننا سنسلط الضوء، من خلال هذا المبحث، على مجموعة من النقاط، التي تتعلق بنقاط حول مقدمات المنهج، الذي ينبغي التوسل به في التعامل مع القرآن الكريم. وقد توقفنا عند القول بكون القرآن الكريم يشكّل وحدة بنائية، في إشارة إلى ما يترتّب على هذا الأمر المنهجي من العمل على فهم مواضع القرآن، وفقاً للسياق الكلي من داخله، بدل الفهم التجزيئي وغيره. وقد توقّفنا عند بيان مفهوم البنية وعلاقة ذلك بالمنهج البنيوي، وعلاقة كلّ ذلك بالقول بالوحدة البنائية للقرآن الكريم. وقد تطرّقنا، كذلك، إلى كون الوحدة البنائية للقرآن الكريم تفترض كون القرآن الكريم يكتنز ما سمّيناه: الرؤية الكلية، التي تحدد فهم الإنسان فرداً، وأمةً، وجنساً، لذواتهم، ولمعنى وجودهم، وللغاية من هذا الوجود، وعلاقاته بالذات، وبالآخر، وبالعالم، وبالكون.

وقد بينّا أنّ الرؤية الكلية للقرآن الكريم تتصف بعالمية الخطاب، فالرسول الخاتم جاء بالكتاب الخاتم، ومن ثمّة رسالة القرآن رسالة عالمية لكلّ الناس أجمعين. وعالمية الخطاب هذه تستمدّ مشروعيتها من مبدأ الكونية

---

(1) «كلمة الخطاب القرآني الواردة، هنا، جاءت بمعنى كون القرآن الكريم يعد تعبيراً لغوياً عن العالم». انظر: الخطاب السياسي في القرآن، (م.س)، ص23، (بتصرف).

(نسبة إلى الكون)، الذي تتصف به الرؤية الكلية القرآنية، وذلك بكون جلّ الآيات الواردة في القرآن تجد مصداقيتها في الكون، فالقرآن يتحدث عن البحار، والسماء، والأرض، وليس من العبث أن يأتي على ذكر اسم مجموعة من الأشجار مثل شجرة التين، وشجرة الزيتون، وشجرة الرمان، والنخيل... وليس من باب العبث، أو المصادفة، أن تسمّى بعض سوره باسم بعض الحشرات؛ مثل سورة النحل، وسورة النمل... والقرآن غنيّ بالكثير من الأمثلة، التي تبيّن كونه كتاباً ملتصقاً بالكون، وقد ألحّ، في أكثر من موضع، على النظر في ملكوت السموات والأرض.

وتبعاً لكلّ هذا، أشرنا إلى كون القرآن الكريم يتصف برؤية منهجية للمعرفة يكتمل من خلالها الوعي بعالم الغيب وعالم الشهادة، فهو، بهذا، مرشح ليلملم شتات المعرفة المعاصرة، التي فصلت في معظمها بين عالم المادة (ما هو محسوس) وبين عالم الغيب (ما هو غير خاضع للحواس)؛ أي ما يسمّيه القرآن عالم الغيب، وعالم الشهادة، فالرؤية الكلية لهذه العوالم من داخل القرآن تنطوي على منهجية معرفية قرآنية ينبغي الوقوف عندها، ولا شكّ في أنّ الأخذ بما توصلت إليه المعرفة المعاصرة سيكون معيناً على هذا الأمر.

تبعاً لهذه المقدمات والخصوصيات المنهجية، توقفنا عند مفهوم الإمامة والخاتمية، التي اتصف بها القرآن الكريم عن غيره من الكتب السالفة، فالإمامة، هنا، تلتصق بالمنهج وبجوهر وروح الرؤية الكلية القرآنية الداعية إلى العقل والنظر، بمعزل عن التقليد والاتباع.

الوحدة البنائية للقرآن الكريم:

بعد أن اكتشف العقل البشري أنّ الكون بنية عضوية موحدة، بهرته هذه الوحدة البنائية في الكون، وأُعجب بمآلاتها المعرفية غير المحدودة، فطفق يصبغ بها الكثير من الحقول المعرفية، كاللغة، وعلم النفس، والآداب،

والفلسفة؛ إذ أصبح التوحيد المعرفي أكثر ميلاً من أيّ وقتٍ مرّ إلى نظم المتفرّقات في نظم موحدة[1].

وذلك أنّ التطور الحاصل في العلوم الكونية قد أفضى إلى إدراك أنّ الكون الذي يحملنا يشكّل وحدة متماسكة ومتداخلة، على الرغم من التنوع والتعدد، الذي تتصف به ظواهره ومكوناته، ففهم الجزء منه يقتضي استحضار ما هو كلّي منه، ومن ثَمَّ الكون خاضع لقوانين الوحدة البنائية المستمدة منه.

وقبل أن نتطرّق إلى موضوع الوحدة البنائية القرآنية، سنلقي الضوء على مفهوم البنية، والمنهج البنيوي في علاقة ذلك بالنقد الأدبي، وبنظريات اللغة في العصر الحديث، وهذا لا يعني كوننا سنعمّق البحث في هذا الموضوع الكبير، والمتشعب، والقريب، في مجمله، إلى قضايا ذات الطابع المنهجي؛ بل المفروض كوننا سنكتفي بما له علاقة ببسط القول حول موضوع الوحدة البنائية القرآنية؛ إذ سنتوقف عند رأي بعضٍ من النقّاد، الذين يرون كون البنيوية لها جذور عند نقادنا القدامى، ولاسيما عند عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم.

اشتقّت كلمة (بنية) من الفعلِ الثلاثيِّ (بنى)، وتَعني البناءَ أو الطريقةَ، وكذلك تدلُّ على معنى التشييدِ، والعمارةِ، والكيفيةِ، التي يكون عليها البناءُ، أو الكيفيةُ، التي شُيّد عليها[2]. ويرى ليفي شتراوس أنّ «البنيةَ مجردُ طريقةٍ، أو منهجٍ، يمكن تطبيقُها في أيّ نوعٍ من الدراسات، تماماً كما هي بالنسبةِ إلى التحليلِ البنيويِّ المستخدمِ في الدراساتِ والعلومِ»[3]. ويرى لوسيان سيف أنَّ مفهومَ البنيةِ، في أوسع معانيه، يعني نظاماً من العلاقات

---

(1) عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم «النظرية والمنهج»، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2007م، ص7.

(2) إبراهيم، زكريا، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، (د.ت.ط)، ص32.

(3) المناصرة، عز الدين، علم الشعريات: قراءة مونتاجية في أدبية الأدب، دار مجلاوي، عمان، ط1، 2007م، ص540.

الداخلية الثابتة، يُحدّد السمات الجوهرية لأيّ كيان، ويشكّل كلاً متكاملاً لا يمكن اختزاله إلى مجرّدِ مجموعة من العناصر، وهذا النظام من العلاقات الداخلية يشير إلى نظام يَحكُم هذه العناصر فيما يتعلّق بكيفية وجودِها، وقوانينِ تطوّرها»[1].

ويرى ليونارد جاكبسون أنّ البنيوية هي «القيامُ بدراسةِ ظواهرَ مختلفة كالمجتمعات، والعقول، واللغات، والأساطير، بوصف كلّ منها نظاماً تاماً، أو كلاً مترابطاً؛ أي بوصفِها بنيات، فتتمّ دراستُها من حيثُ أنساقُ ترابطها الداخلية، لا من حيث هي مجموعات من الوحدات، أو العناصر المنعزلة، ولا من حيثُ تعاقبُها التاريخي»[2].

فالبنيويون يرون أنَّ العلاقة بين الجزءِ والكلِّ ليست مجرّدَ اجتماعِ مجموعةٍ من العناصر المستقلةِ؛ بل إنّ هذه العناصرَ تخضعُ لقوانينَ تتحكّمُ في بناءِ العلاقةِ التي تجمعُ الأجزاءَ، وتُضفي هذه القوانينُ على البنيةِ سماتٍ كليّةً تختلفُ عن سماتِ العناصرِ كلّ منها على حدةٍ، كما تتميزُ عن مجموعِ هذه العناصر. ومن ثَمّ يرتبط الوعي بالبنية، وأهمية مراعاتها في فهم الظواهر والنصوص... بالمنهج البنيوي الذي يعتزم الولوج إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية»[3]. وذلك لكون النص اللغوي تحكمه علاقة المبنى والمعنى؛ فالزيادة في المبنى تترتّب عليها الزيادة في المعنى. فكلُّ تحولٍ في البنيةِ، التي يتشكل منها النص، يؤدي إلى تحوّل في الدلالةِ، لكون البنية موضوعاً منتظماً، له صورتهُ الخاصةُ، فهي تحملُ معنى المجموعِ والكلِّ المؤلِّفِ.

ويعود تاريخ ظهور البنيوية إلى منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، مع رائدها فرديناند دي سوسير، من خلال كتابهِ (**محاضرات في اللسانيات**

---

(1) المرجع نفسه، ص542، (بتصرف).

(2) المرجع نفسه، ص542.

(3) المسدي، عبد السلام، قضية البنيوية: دراسة ونماذج، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991م، ص77.

العامة)[1]، الذي نُشر في باريس سنة (1916م). فاللغة هي الرحم الأوّل لنشأة المعيار البنيوي بالتعاطي مع فهم النص نسقاً[2].

وهنالك من النقاد العرب من يرى أنّ البنيوية لها جذور عند نقادنا القدامى، ولاسيما عند عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم، الذي يرى أنّ اللفظ تابع للمعنى، وملازم له؛ فالنظم هو الذي يرجع إليه تحديد فصاحة اللفظ، أو دون ذلك[3].

أمّا موضوع الوحدة البنائية، الذي نحن بصدده، فكلمة الوحدة تأتي مقابل الكثرة والتعدّد أياً كان نوع الكثرة، وأياً كان إطار التعدد؛ فالوحدة فيها نفيٌ للتعدد، وإضافة وصف البنائية تعني «أنّ القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدّد فيه، أو التجزئة في آياته، أو التعضية، حيث يقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر، فهو مثل الكلمة الواحدة، أو الجملة الواحدة، أو الآية الواحدة. وإذا كانت آياته، وسوره، وأجزاؤه، وأحزابه، قد تعدّدت، فذلك التعدّد ضرورة لا غنى عنها في التعليم والتعلم، والتنزيل لتغيير الواقع وإبداله. فلم يكن في مقدور الإنسان أن يستوعب قرآناً يتصف بكلّ صفات القرآن، ويأخذه الإنسان، أو يتبناه بوصفه ذا وحدة بنائية لا تختلف عن وحدة الكلمة في حروفها، ووحدة الجملة في كلماتها وأركانها، ووحدة الإنسان في أعضائه»[4].

---

(1) ذلك الكتاب الذي انطلق منه المنهج البنيوي، حيث انتقلت البنيوية بسهولة من اللغة إلى الأدب، فهو لا جدال في أنه واضع أسس المنهج البنيوي، ولكن يأتي بعده لُغوي آخر لا يقلّ عنه تأثيراً في النقد البنيوي إن لم يكن أقوى أثراً؛ لأنه اهتم اهتماماً مباشراً بلغة الأدب، وهو رومان جاكوبسون، وله مقالة بعنوان: (علم اللغة وعلم الشعر).

(2) قضية البنيوية: دراسة ونماذج، (م.س)، ص14.

(3) الركابي، جودت، أدبنا والبنيوية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 220-221، 1989م.

(4) العلواني، طه جابر، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 2006م، ص14.

وهذا ما تشير إليه الآية القرآنية. قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هُود: 1]. فموضوعاته وقضاياه متداخلة ومترابطة فيما بينها، وفقاً لناظم التوحيد الذي تتصف به، فمن لم يتنبه إلى هذا الأمر، الذي يتّصف به القرآن، سيسقط في تعضيته؛ أي القراءة التجزيئية، التي ترى كلّ عضو من القرآن مفصولاً عن غيره، وقد نبّه القرآن إلى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ [الحِجر: 91]. فالإحكام، هنا، هو إحكام البناء، حيث يمتنع أيّ اختراق لمتانته وقوته(1)، فالقرآن يستمدّ دليله على أنّه كلام الله من بنائه ونظمه المحكم، فهو كلام منظم بصرامة ودقة تفوقان ما في الكائنات، وهو كذلك حيوي ومترابط يمثل ما في الكائنات من نظام وحيوية، فبرهانه في داخله وفي ذاته(2).

وبعودتنا إلى موضوع البنية، سنجد أنّ أهم ما فيها كونها «نسقاً عقلانياً يحدد وحدة الشيء، وهي القانون الذي يفسره. والنسق العقلاني يُكتشف من خلال مفردات البنية وأجزائها، والقانون الذي يفسرها هو الروابط والعلاقات بين الأجزاء؛ وبهذا الخطاب القرآني يمثل نموذجاً لهذا المعنى؛ بل إنّ القرآن المجيد نفسه يشير إلى ضرورة اكتشافه من خلال هذه الزاوية؛ فسياق حديث القرآن الكريم عن الكلمات يشير إلى انتظام القرآن الكريم كبنية متكاملة ونظام واحد»(3).

يصف المفكر محمد عبد الله دراز (ت 1958م) النظم القرآني بقوله: «أقبل بنفسك على تدبّر هذا النظم لتعرف بأيّ يد وضع بنيانه، وعلى أيّ عين

---

(1) العلواني، طه جابر، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، مجلة الترتيل، تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد1، حزيران/ يونيو 2013م، ص38.

(2) عالم، سبط النيلي، النظام القرآني، إعداد فرقان محمد تقي مهدي الوائلي، ط2، 2003م، ص243 (النسخة الإلكترونية).

(3) حللي، عبد الرحمن، بنية القرآن مدخلاً لإعادة القراءة، مجلة الإحياء، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء في المغرب، ع27، 1429هـ شباط/ فبراير 2008م.

صنع نظامه... ولسوف تحسب أنّ السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كلّ واحدة منها دفعة واحدة، حتى يحدّثك التاريخ أنّ كلها، أو جلها، قد نزلت نجوماً، أو لتقولن إنّها إن كانت بعد تنزيلها قد جُمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرّقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلمّا أُريد نقله بصورته إلى غير مكانه قُدّرت أبعاده، ورُقّمت لبناته، ثمّ فُرق أنقاضاً، فلم تلبث كلّ لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»[1].

إنّ محمد عبد الله دراز، من خلال قوله هذا، يؤكّد الضرورة المنهجية في مراعاة النظم القرآني وحدة بنائية متماسكة المبنى والمعنى «فالمعاني شبيهة باتساق الحجرات في البنيان. وشبيهة، كذلك، بأعضاء جسم الإنسان. فبين كلّ قطعة من الجسم وجارتها رباط موضوعي. فمثلاً، يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين، والعروق، والأعصاب... كلّ هذا يجعل الجسم يأخذ قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء عرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية»[2].

هذه الدعوة المنهجية، التي قال بها محمد عبد الله دراز، سبق للشاطبي (توفي 790هـ) أن نحا منحاها بقوله: «إنّ كلام الله في نفسه كلام واحد، لا تعدّد فيه بوجه ولا باعتبار... وذلك أنّه يبيّن بعضه بعضاً، حتى إنّ كثيراً منه لا يفهم معناه حقّ الفهم إلا بتفسير موضع آخر، أو سور أخرى... فبعضه متوقّف على البعض في الفهم... فالقرآن كلّه كلام واحد بهذا الاعتبار»[3].

---

(1) دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط6، 1405هـ/ 1984م، ص154.

(2) النبأ العظيم، (م.س)، ص155، (بتصرف).

(3) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ت. ط)، ج3، ص420.

وورد عن الإمام السيوطي (ت 911هـ) قوله: إنّ السور في القرآن لها غرض واحد «فالأمر الكلي المفيد لمعرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر الغرض، الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القريب والبعيد من المطلوب»(1).

أمّا صاحب (**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**)، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ/ 1480م)، فأثبت، في كتابه هذا، أنّ القرآن وحدة مترابطة، وأنّ هذه الوحدة تسري بين آياته وسوره(2).

إنّ الدعوة المنهجية، التي دعا إليها محمد عبد الله دراز، والتي أشار إليها المتقدّمون، الذين جئنا على ذكرهم، تجد صداها بشكل تطبيقي على يد المفكر العراقي محمد باقر الصدر (ت 1980م)، من خلال كتابه (**التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية**)(3)؛ إذْ دعا إلى تفسير موضوعات القرآن تفسيراً موضوعياً، تستحضر، من خلاله، نظرة القرآن الكلية، وموقفه النظري من الموضوعات التي عالجها، بدل العكوف عن المقاربة التجزيئية، التي كان عليها جمهور المفسرين، فالنظرية، أو الموقف النظري، لا يتأتى بالمقاربة التجزيئية في تفسير القرآن وفهمه؛ لأن هَمَّ المفسر التجزيئي أن يكشف عن جزء معيّن من القرآن، مفصولاً عن غيره ممّا سبقه في السياق، أو لحقه، والنظرية تقتضي الأخذ بالكليات التي تنتظم من خلالها الجزئيات(4). وقد عمّق الشيخ محمد الغزالي هذه النظرة، من خلال كتابه (**نظرات في القرآن**)، وكتاب (**كيف نتعامل مع القرآن**) التفسير

---

(1) الإتقان في علوم القرآن، (م.س)، ج2، ص138.

(2) المرجع نفسه، ج2، ص16.

(3) باقر الصدر، محمد، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، الدار العالمية، ط1، 1989م.

(4) المرجع نفسه، ص20-25، (بتصرف).

الموضوعي، وغيرها من كتبه. ونستحضر، بهذا الصدد، جهود العالم الياباني توشيهيكو إيزوتسو، صاحب كتاب **(الله والإنسان في القرآن)**؛ إذ يرى أنّ علم الدلالة في القرآن، بوصفه دراسة للمعنى، لا يمكن أن يكون إلا فلسفة من نوع جديد تقوم على تصور جديد كليّ للكينونة والوجود. وذلك نتيجة للدقة المنهجية، التي اتّصف بها القرآن الكريم في توظيف واستعمال مفردات اللغة العربية، إلى درجة يمكن معها القول: إنّ هذه الدقّة لا تختلف عن الدقّة في علم الرياضيات، والكيمياء، والفيزياء[1].

وفي نظرنا، أهمّ المشروعات العلمية المعاصرة، التي عنيت بموضوع البنائية القرآنية بشكل منهجي، هو ما قال به المفكر السوداني حاج حمد؛ إذ يرى أنّ البنائية القرآنية مماثلة للكون برمّته، وذلك أنّ القرآن يحتويْ في داخله منهجيّة معرفية كما هو الشأن بالنسبة إلى الكون. ويحدّد أبو القاسم حاج حمد المنهجية، بوصفها إطاراً مرجعياً لأفكار موحدة، لا تستخلص علمياً إلا من إطار موحد عضوياً[2]؛ فالكون برمته، وبكل مكوناته، لا ينفصل بعضه عن بعضه الآخر، فمن الأولى التعامل مع ما فيه من ظواهر، من أرض، وسماء، وجبال... ضمن رؤية تقوم على وحدة التكوين.

والآن، كما أشرنا في السابق، يتمّ التعامل مع القوانين الكونية في إطار النظريات المتكاملة، التي تأخذ بعلوم الفيزياء إلى علوم الإحياء... إذ يستحيل دراسة وفهم جانب من جوانب الكون بتغييب جانب آخر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى القرآن، فهو يعد إطاراً مرجعياً لأفكار موحدة ومتكاملة فيما بينها. ولم يتسنَّ ذلك للقرآن في نظر أبي القاسم حاج حمد إلا بفعل الترتيب أو التركيب، وقفاً من عند الله، وعلى يد رسول الله، ولم يتبقَّ لمن أتى بعد

---

(1) شحرور، محمد، تجفيف منابع الإرهاب، دار الأهالي، دمشق - سورية، ط1، 2008م، ص32.

(2) منهجية القرآن المعرفية، (م.س)، ص35، (بتصرف).

رسول الله... سوى الاستنساخ، وربط الصحائف[1]. وبهذه العملية، التي قام بها الرسول الموقر بقراءة مع الروح القدس جبريل، تمّ ترتيب القرآن على غير مواضع النزول المتسلسلة زمنياً. وقد ردّ الله على الجاحدين لهذه العملية بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: 101-102].

وبهذا، القرآن نسيج واحد، فإذا سقطت آية، أو أُسقطت، يسقط الحق كله، فليس في القرآن آية ساقطة، أو مرفوعة عن التلاوة، وليس في القرآن ناسخ ومنسوخ، ذلك أنّ صياغة القرآن مماثلة لصياغة الكون، فدقّة مواقع الآيات، والمفردات، والأحرف لا تختلف عن دقة مواقع النجوم. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقِعَة: 75-80]؛ فالله، هنا، لم يقسم بالنجم، ولكنه أقسم بمواقعها في سياق التعريف بخصائص القرآن البنائية[2]، ووجه المماثلة، هنا، يتجسد بأنّه إذا خرج نجم عن مدار المجموعة الشمسية، أو اصطدم بغيره، اختلت المنظومة الكونية كلها، وكذلك الشيء نفسه مع القرآن.

وحتى تكون لهذه المماثلة مصداقية واقعية، يرى حاج حمد أنّ القرآن يُعدّ وحده فحسب، معادلاً موضوعياً للوجود الكوني وحركته. ففي كتاب الكون، يقرأ الإنسان آيات الله المحسوسة، بينما كتاب القرآن يحتوي، في داخله، على تلك القضايا كلها؛ إذ تشكل آياته مداخل معرفية في معرفة نشأة الخلق، والسنن، والنواميس، التي تنبني عليها الحركة الكونية، وإشارات وتوضيحات عن المخلوقات في علاقة بعضها مع بعض، وعن الأرض والسماء، والجبال، والنبات، والشمس، والقمر...

(1) المرجع نفسه، ص93-96، (بتصرف).

(2) المرجع نفسه، ص93-96، (بتصرف).

ويرى الدكتور طه جابر العلواني كون الوحدة البنائية القرآنية كانت من وراء استيعاب القرآن لتاريخ البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك ببيان السنن والقوانين الحاكمة على البشرية وحركتها، والتاريخ وحركته، والغاية التي يتجه الخلق كله إليها وفقاً لتلك السنن الصارمة(1).

وفي نظرنا، التعاطي مع القرآن، من خلال وحدته البنائية، سيأخذنا إلى الرؤية الكلية القرآنية في المجال المعرفي. فالقرآن المجيد، لاتساق وحدته البنائية، سيحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفيّ، وتوحّد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفياً يُمَكِّنه من الخروج من التفرّع الإدراكي، ومرحلة الشركاء المتشاكسين، إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين، فيطفق في السير سوياً على صراط مستقيم(2).

إنّ موضوع وحدة القرآن البنائية يكشف لنا عن مدى التماسك والترابط بين موضوعات القرآن، في بعدها الكلي، في علاقتها بالإنسان، والكون، وعالمي الغيب والشهادة... وهذا ما تشير إليه الآية؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]؛ فالرؤية الكلية لا تستشفّ إلا من خلال البنى المترابطة والخالية من التعارض، وهذا ما يفتقده الكتاب المقدس كما هو بين أيدينا اليوم.

الرؤية الكلية القرآنية:

نعني بالرؤية الكلية القرآنية تلك الرؤية التي تحدّد فهم الإنسان، فرداً، وأمة، وجنساً، لذاته، ولمعنى وجوده، وللغاية من هذا الوجود، وعلاقاته بالذات، وبالآخر، وبالعالم، وبالكون في كلّ أبعاد هذا الوجود ومآله،

(1) الوحدة البنائية للقرآن المجيد، (م.س)، ص15.

(2) عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم النظرية والمنهج، رسالة دكتوراه، قدّمت للمناقشة في السنة الجامعية 1422-1423هـ/ 2001-2002م، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، ص52.

فالرؤية الكلية تُعدّ بمقام الجذور، والتربة، والمنبع، الذي يمثل القوة التصورية الدافعة، التي تحدد القوة الوجدانية لحركة الإنسان والمجتمع[1].

وقد سبق للمفكّر الباكستاني فضل الرحمن (ت 1988م) أن تساءل قائلاً: لماذا لم نستطع، في الفضاء الإسلامي، أن نبلور الرؤية الكلية، التي تصحب معها البعد التركيبي، الذي ينطوي عليه القرآن الكريم في نظرته الخاصة عن الوجود، والعالم، والإنسان[2]، فما لم نكشف عن هذه النظرة، التي تتطلب منا أن نتعاطى مع القرآن بنية نصية متداخلة الموضوعات، وفق نسق التوحيد، الذي يشكل الخيط الناظم لكلّ ما جاء به، لا يمكن لنا أن نفهم قضاياه في كليتها؛ إذ نبقى حبيسي الفهم الذري للآيات والنصوص القرآنية الذي كان عليه علماء التفسير[3]، الذين كان منهجهم، في فهم القرآن وتفسيره، ينبني على التجزيء، بانتزاع الآيات والألفاظ بمعزل بعضها عن بعض، وبمعزل عن السياق النصي والزماني الذي وردت من خلاله، وبهذه الطريقة، فوّتوا على أنفسهم، وعلى من سار على نهجهم، فرصة الإحاطة بالنظرة الكلية، التي يكتنزها القرآن للإنسان وللعالم، وهذه المشكلة شكّلت جزءاً أساسياً في تاريخ الفكر الإسلامي في علاقته بفهم القرآن.

ويرى فضل الرحمن، كذلك، أنّ مفكري الإسلام المتقدّمين، مثل ابن سينا، وبعض المتصوفة كابن عربي، قد حاولوا فهم القرآن وحدة كلية، ولكنّ المشكلة، التي اعترضت هؤلاء، على الرغم من اتساع تأملاتهم وأفقهم الفلسفي، تتجلّى في كونهم جاؤوا إلى فهم وتأويل القرآن، وهم محمّلون

(1) أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، ط1، سنة 2009م، ص25.

(2) فضل الرحمن، الإسلام وضرورة التحديث نحو إحداث تغيير في التقاليد الاجتماعية، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، بالتعاون مع مؤسسة تعزيز الديمقراطية والتغيير السياسي في الشرق الأوسط، ط1، 1993م.

(3) المرجع نفسه، ص10.

بتصوّرات وآراء من خارجه تأثراً منهم بالفكر اليوناني وغيره، وبهذا الشكل فرضوا على القرآن تصوّرات لم يقلْ بها، ولا تتماشى مع خلفيته ونظرته إلى العالم والإنسان، ولم يعكف أحد منهم على إظهار نظرة القرآن وتصوّره من داخله، وسقطوا بذلك في إشكال منهجيّ مفاده التعاطي البراني مع القرآن[1].

لقد شكّل الفكر اليوناني قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، وساهم في توسيع النظر العقلي لدى المسلمين بشكل عام. ولكن إذا دقّقنا في مضمون الدرس القرآني، من جهة، وفي مقالات المتكلمين، من جهة ثانية، على اختلاف مدارسهم، التي نشأت مُلهمة بالفكر اليوناني، فسنقف عند «حقيقة بارزة هي: أنّ الفلسفة اليونانية، مع أنها وسعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، غشت على أبصارهم في فهم القرآن»[2]. فالحمولة الثقافية، التي تميّز بها الفكر اليوناني، تختلف عن فلسفة القرآن للوجود، وللحياة، والإنسان. «وقد فات هذا الأمر المتقدّمين من علماء الإسلام، الذين عكفوا على درس القرآن، بعدما بهرهم النظر الفلسفي القديم، فقرؤوا الكتاب (القرآن) على ضوء الفكر اليوناني»[3].

فترتّب على تلك الغفلة في التعامل غير الممنهج مع الفكر اليوناني، الإغراقُ في موضوعات شتّى من أمور الغيب، وقضايا القضاء والقدر... ما ضيّع طاقات العقل المسلم، واستنزف عقول العلماء، والفلاسفة، والمتكلمين، وأهل التصوف[4].

تستند الرؤية القرآنية، في مجملها، على مبدأ التوحيد، فالتوحيد هو الإجابة الكونية الفطرية السويّة للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته مبتدأً ومآلاً،

(1) المرجع نفسه، ص12.

(2) إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، (د.ت.ط)، ص10.

(3) المرجع نفسه، ص11.

(4) الرؤية الكونية الحضارية، (م.س)، ص35-36، (بتصرف).

وهو سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة، والوجود، وما وراء الحياة والوجود[1]. فكلمة «الله» الواحد الأحد تُعدّ المركز المحوري والمفتاحي داخل الحقل الدلالي للقرآن الكريم، فهي أسمى كلمة صميميّة في المعجم اللغويّ للقرآن، لكونها مهيمنةً على الميدان كلّه. وهذا المظهر الدّلاليّ يعني أنّ عالَم القرآن مرتكزٌ أساساً على الله، وهذا ما صدم العرب زمن النزول، وأثر فيهم[2]، لكونهم أدركوا معنى غير مألوف لديهم، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون هذه الكلمة؛ فالمعنى الذي أدركه العرب، لأول مرة، ومن تلاهم، هو معنى التوحيد، فالله الواحد الأحد في القرآن ليس هو الإله المتعالي فحسب؛ «بل هو الموجود الوحيد الذي يستحق أن يسمى موجوداً بكلّ ما في الكلمة من معنى، والذي لا يمكن لأيّ شيء في العالم كلّه أن يضادّه... إنّ الله يقوم في مركز عالم الوجود بالذات. وكلّ الأشياء الأخرى، الإنسانية وغير الإنسانية، مخلوقات له»[3] سبحانه. قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 1-3].

إن القرآن الكريم، وهو يبسط مبدأ التوحيد (وحدة الخالق)، المفصل المحوري داخل الحقل الدلالي القرآني، يستند على الكون، الذي يحمل بين ثناياه (وحدة الخلق)؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

(1) المرجع نفسه، ص115.
(2) الله والإنسان في القرآن، (م.س)، ص31-32، (بتصرف).
(3) المرجع نفسه، ص127.

ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 16-22]. ومن ثَمَّ، وحدة الخلق دليل على وحدة الخالق «فالعلم السنني، وما يكشفه للإنسان من عظيم إبداعات الكون على وجه الأرض، وفي أعماق البحار، وفي آفاق السموات، ومجرات الفضاء المذهلة الفسيحة في دقة نظام الكون، وتكامله، واتساق تكوينه وسننه، تعين الإنسان على إدراك أبعاد (الوجود المادي)، وهذا الإدراك يعطي الوجود (ما وراء المادي) بعداً آخر، بمنطق آخر مختلف عن منطق المادة»[1]. قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

فمنهج التوحيد ورسالته، التي يكتنزها القرآن الكريم بين مفرداته «وحدة الخالق» هو المنهج نفسه، الذي انبنى عليه الكون برمّته «وحدة الخلق»، ومن ثَمَّ ينبغي التعاطي مع موضوع الحقيقة بمدخل يحصل فيه نوع من الجمع والتكامل بين حقيقة الكتاب (القرآن)، وحقيقة (الكون)، التي تُعدّ حقيقة واحدة. وهذا الأمر يأخذنا إلى الموضوع، الذي سبق أن عالجناه سابقاً، وهو مفهوم الحق. فالحق الذي أنزل به الكتاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: 105]؛ هو الحق نفسه، الذي خلق به الكون، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73].

والمقابل، في نظرنا إلى الرؤية الكلية، هو الرؤية المقطعة، والمبعثرة، والآلية، والاختزالية، والعازلة للحقائق ولنظم المعرفة بعضها عن بعض، التي لا ترى سبيلاً إلى الربط والجمع بين حقائق الوحي وحقائق الكون. إنّ هذه الرؤية تقوم على تصور «تشتيت مركب العالم إلى قطع مفصولة بعضها

---

(1) الرؤية الكونية الحضارية، (م.س)، ص119.

عن بعض، وبتجزيء، وبفصل ما هو مرتبط، وبإضفاء الطابع الأحادي على المتعدد الأبعاد...»[1]. وهنا، يُطرح مشكل إبستمولوجي؛ إذ من المستحيل تصوّر الوحدة المركبة للإنسان بوساطة فكرٍ يقطع إنسانيّتنا، ويجزئها إلى جزر معرفية مفصولة تحت اسم التخصّصات العلمية؛ إذ سارت حقول المعرفة العلمية، بشكل مجمل، منفصلة بعضها عن بعض إلى درجة انغلاق كلّ تخصص على ذاته؛ «حيث تختصّ شعبة البيولوجيا بدراسة البعد البيولوجي، بما في ذلك الدماغ، وشعبة العلوم الإنسانية بالأبعاد النفسية، والاجتماعية، والدينية، والاقتصادية المعزولة بعضها عن بعض، وشعب الآداب والشعر بالقضايا الذاتية، والوجودية، والشعرية، ويتمّ سجن الفلسفة، التي هي، بطبيعتها، تأمل في الإنساني داخل الأسوار المغلقة لشعبة الفلسفة»[2]، ما يكون سبباً في فقدان الرؤية الكلية للإنسان وللعالم.

يعلق إدغار موران على الرؤية المقطعة والمبعثرة للمعرفة بقوله: «إنها رؤية قصيرة النظر، غالباً ما تتحوّل إلى رؤية عمياء؛ فهي تقتل في المهد إمكانات الفهم والتأمل، وتقلل من فرص بناء الأحكام السديدة، أو الرؤى البعيدة النظر... إنّ عجز الرؤية العمياء عن تمثّل السياق والمركب... هو الذي جعل كلّ واحد غير واعٍ، وغير مسؤول تماماً»[3]. وغياب الوعي بدور الإنسان ومسؤوليته في هذا العالم غالباً ما يكون من نتائج تغييب التصور، الذي يأخذ بالرؤية الكلية في فهم العالم والوجود، ففهم سؤال: من نحن؟ يستحيل فصله عن سؤال: أين نحن؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ هذه الأسئلة وغيرها تقتضي أن نرى الإنسان داخل الكون لا أن نفصله عنه[4]، وهو الأمر

(1) موران، إدغار، تربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، منشورات اليونسكو، دار توبقال، ط1، 2002م، ص41.
(2) تربية المستقبل، (م.س)، ص39.
(3) المرجع نفسه، ص41.
(4) المرجع نفسه، ص45.

الذي نبّه إليه القرآن الكريم في أكثر من موضع بدعوته إلى الأخذ بمبدأ التوحيد في فهم العالم. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

إنّ القرآن الكريم يكتنز بين طياته نظرته الخاصة إلى العالم. وينبغي استحضار هذا المعطى المنهجي في قراءة وفهم وتدبر سوره وآياته. ويمكن تعريف «النظرة إلى العالم» بأنّها «طريقة لوصف الكون والحياة... النظرة إلى العالم تحدّد ما يمكن أن يعرف، أو أن يفعل في العالم، وكيف يمكن أن يعرف، أو أن يفعل. إضافة إلى تحديد الأهداف، التي يمكن الطموح إليها، النظرة إلى العالم تحدّد الأهداف التي يجب العمل على تحقيقها»[1]. وتتكوّن النظرة إلى العالم من ثلاثة موضوعات أساسية هي: تصوراتنا للموجودات في العالم، وتصوّراتنا لأسلوب المعرفة، وتصوّراتنا للقيم المجتمعية، التي تحدّد كيفية عملنا في المجتمع[2]. ولا شك في أنّ الرؤية الكلية القرآنية تتضمّن تصوّرات لكلّ هذه الموضوعات الثلاثة التي جئنا على ذكرها.

العالمية (خطاب يشمل الناس كافة):

لم يولِ كبار مفسري القرآن عناية خاصة لتحليل مسألة عالمية الرسالة المحمدية؛ بل اقتصر جهدهم، حين كانوا يتعرضون للآيات المتصلة بما كان يسمى عموم الرسالة إلى المكلفين، على تقرير أنّ محمداً ﷺ لم يبعث لأمة بعينها، خلافاً لكلّ الرسل السابقين[3]. كان هذا موقف محمد بن جرير الطبري بقوله، في تفسيره للآية (158) من سورة الأعراف، التي مفادها:

(1) أبو زيد، سمير، العلم والنظرة العربية إلى العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1، 2009م، ص84.

(2) المرجع نفسه، ص94، (بتصرف).

(3) النيفر، احميدة، النبوة والعالم: عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، مجلة الإحياء، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العدد27، شباط/ فبراير 2008م، ص25.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فذكر أنّ محمداً رسول الله مبعوث من الله إلى خلقه، يدعو إلى توحيده وطاعته، فرسالته تشتمل على الناس جميعاً[1]. وأورد ابن كثير في الموضوع قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنّه خاتم النبيين، وأنّه مبعوث إلى الناس كافة[2]. وقد سار عموم المفسرين على هذا النحو من بعد الطبري، ومن بعد ابن كثير كذلك.

والذي يؤكّد كون المفسرين لم يشغلوا أنفسهم بالتقعيد لمفهوم العالمية، وهو مفهوم يحضر معه كون الناس، في مختلف البقاع، على خصوصيات متعددة ومتنوعة تتعلق بالدين، والثقافة، والعرف، وغيره، سواء آمنوا بالإسلام ديناً أم لم يؤمنوا به، وفقاً لسنة الله في الخلق، وهي سنّة الاختلاف؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الرُّوم: 22]، هو كون قدماء الفقهاء، ومن سار على نهجهم، من مفسرين وغيرهم، قد قسموا العالم إلى دار الإسلام، ودار الحرب[3]، وهو تقسيم فيه استجابة للأوضاع السياسية، التي أحاطت

---

(1) جامع البيان في تفسير القرآن، (م.س)، ج13، ص170.

(2) ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (م.س)، ج3، ص439.

(3) تمّ تعريف دار الإسلام، عند الفقهاء، بكونها الدار التي يغلب عليها ظهور شرائع الإسلام، ويحكم فيها المسلمون بحكم الإسلام وتعاليمه، وإن كان غالب سكان تلك البلاد غير مسلمين. ودار الكفر بكونها الدار التي لا يحكم فيها المسلمون، ولا يظهر فيها تطبيق لتعاليم الإسلام، أو أن يكون المسلمون فيها أقلية غير حاكمة. «وقع خلاف بين الفقهاء المسلمين، فيما يخصّ هذا التقسيم للعالم، ومع أنّ الغالبية قبلته كأمر واقع، فإنّ فئة منهم (ولاسيما فقهاء المذهب الشافعي) افترضت وجود دارٍ ثالثةٍ هي دار الصلح، أو دار العهد. وبحسب هذا المذهب، اعترف الإسلام بالشعوب غير الإسلامية، التي أبرمت معاهدة أو صلحاً مع المسلمين على أن تدفع الجزية. =

بقدماء المفسرين[1]. وهذا أمر يتعارض، في مجمله، مع التصوّر الكلي لمفهوم عالمية الرسالة المحمدية وفقاً للنصوص القرآنية، فالرسول بُعث للناس جميعاً برسالة الرحمة، التي تشتمل على الجميع؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبيَاء: 107]، والرحمة لا تقتضي الجبر والإكراه. فعالمية الإسلام، في المنظومة القرآنية، تقوم على مبدأين أساسيين:

أ- وحدة الأصل الإنساني، التي تعني تأكيد أنّ الناس جميعاً، مهما كان اختلافهم، يرجعون إلى أصل واحد، وهذا الأمر يتجسّد، بشكل جلي، من خلال العديد من الآيات القرآنية.

ب- الحضور الإلهي في التاريخ المتمثّل في العناية الموصولة، التي تتابع صيرورة العالم، وتتدخل فيها عند الاقتضاء. وقد صرح القرآن بهذا في أكثر من مناسبة[2].

وقد انتظم الحقل الدلالي للقرآن الكريم في تعبيره عن العالمية، من خلال مفردة «الناس» (وردت في القرآن 241 مرة)، وكذلك مفردة «الإنسان». فمفردة «الناس» ذات دلالة عامة تشتمل على كل الناس، والأمر نفسه مع مفردة الإنسان، ونورد، بهذا الصدد، قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

= لكنّ فقهاء الحنفية لم يقبلوا بهذا، وما اعترفوا أبداً بالصلح، وحجّتهم أنه متى عقد سكان الإقليم معاهدة سلام، ودفعوا الجزية؛ فإنّهم يصبحون، بذلك، ضمن دار الإسلام، وعلى الإسلام أن يضمن لهم الحماية. وكانت دار الإسلام، من ناحية نظرية، في حالة نزاع مع دار الحرب؛ لأنّ الهدف الأخير للإسلام هو أن يكون العالم بأسره تحت سيطرة المسلمين». انظر: إبراهيم، عبد الله، دار الإسلام بحث في المفهوم، مجلة التسامح، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، تصدر الآن باسم مجلة «التفاهم»، العدد17، سنة 2007م.

(1) النبوة والعالم: عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، (م.س)، ص27.

(2) المرجع نفسه، ص28.

تَسَاءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: 1]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

في العصر الحديث، لم يتمكّن المفكرون المسلمون، بشكل عام، من الخروج من الطوق الذي رسمه القدماء في نظرتهم للعالم، إذ يواجه المسلمون اليوم العالمية المادية المكتسحة بتروس الحمولات الثقافية الكامنة في الموروث الديني الإسلامي. بينما الأمر يقتضي العمل على إعادة التفكير في مفهوم العالمية في الخطاب القرآني، ومدى أهمية الخصوصيات المحلية في نحت توجّه عالمي للرسالة المحمدية[1].

لقد شاءت حكمة الله -جل وعلا- أن يبعث الأنبياء والرسل لأقوامهم فحسب، بدءاً بآدم، ونوح، وإبراهيم، مروراً بموسى، وعيسى، عليهم السلام، وهذا أمر واضح وجلي من خلال آيات القرآن وسوره، التي تعرض كون دوائر الخطاب الإلهي لمن سبق محمد من الرسل والأنبياء -عليهم السلام- تنحصر في أقوامهم فحسب، ولا تمتد إلى غيرهم[2]. بينما دائرة الخطاب الإلهي، الذي جاء محمد ﷺ، لا تنحصر في قومه؛ بل تشتمل على الناس جميعاً، فبعثة محمد بعثة للناس كافة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سَبَإ: 28]. فخطاب القرآن الكريم لا يقتصر على أمة دون أخرى، فهو للعالم أجمع، فرسالته رسالة عالمية وكونية، فهي تعكس مرحلة الظهور الكلي لما جاء محمد ﷺ على الدين كله؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التّوبَة: 32]. فالقرآن منهج يرقى كلّ المناهج، ونور نافذ إلى كلّ

(1) النبوة والعالم: عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، (م.س)، ص27، (بتصرف).
(2) منهجية القرآن المعرفية، (م.س)، ص56.

التفاصيل، وساطع على كلّ الأرجاء... قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التّوبَة: 32].

«فالعالمية تعني مرحلة الإنسانية، التي تلاحمت فيها مراحل تكوين الإنسان كافة؛ لتكون دوائر من القربى، والانتماء من الفرد إلى العائلة، إلى القربى والجوار، إلى العشيرة والقبيلة، وإلى القوم، وإلى اللغة واللون، وإلى الجنس، لينتهي كلّ ذلك إلى الدائرة الأصل الكبرى، وهي الإنسان والإنسانية»[1]. وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم فسنجده، من خلال سورة الفاتحة، يبتدئ بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: 2]؛ فمفهوم «العالمين» مأخوذ من العالم، وهو كلّ ما كان موضوعاً للعلم، وبهذا هو يشتمل على الجماعة البشرية بصفتها عالماً من عوالم مخلوقات الله، فالله -جل وعلا- رب جميع المخلوقات بما فيها الإنسان[2]. ونجده يختتم بمفردة (الناس)، من خلال سورة سُمّيت بهذا الاسم، وهي سورة الناس؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: 1-3]. وهناك ربط في القرآن الكريم بين المفهومين، من خلال التذكير باليوم، الذي يقوم الناس فيه جميعاً لرب العالمين؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفّفِين: 6]. وفي هذا الربط دلالة على عالمية الخطاب القرآني، فملك الناس وإلههم -سبحانه- هو ملك يوم الدين، كما ورد في سورة الفاتحة، وإليه سيقوم الناس جميعاً، فهم متساوون في قيامهم لربهم جميعاً، بغض النظر عن ما يختلفون فيه، أو ما يختلفون حوله، فهو الحكم بينهم جميعاً في ذلك اليوم.

إنّ العالمية تتعارض مع مبدأ التمركز حول ثقافة على حساب أخرى، أو لون على حساب لون آخر، أو عرق على حساب عرق آخر... وما شابه ذلك؛

(1) الرؤية الكونية الحضارية، (م.س)، ص161.

(2) الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم، (م.س)، ص72.

إنّها تأخذ بالمشترك الإنساني، الذي يبعد الإقصاء، أو العنصرية، أو الأفضلية. فالتعدّد والتنوع في اللغة والثقافة واللون... كلّ ذلك يُعدّ آية من آيات الله في خلقه؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الرُّوم: 22]. فكلّ الناس من آدم، وآدم من تراب. وكلّ الناس شركاء على هذه الأرض، التي تُعدّ بمقام بيت للجميع، فالصلاح فيها يعود على الناس جميعاً، والفساد فيها يعود عليهم كذلك.

ويبقى مسلك الحوار والجدال بالتي هي أحسن هو السبيل الوحيد في تدبير المختلف حوله، ولهذا نجد القرآن يدعو إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النّحل: 125]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: 46].

فالعالمية تقتضي الانفتاح على العالم ومكوناته، مع الحفاظ والاعتراف المتبادل بين الشعوب والثقافات، أخذاً بمبدأ حوار الحضارات بدل تصادمها[1]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرات: 13]. والتعارف، هنا، في سياق الآية (13) من سورة الحجرات، قد يفضي إلى جلب المعرفة المبنية على العلم بدل الظن؛ إذ حذرت الآية رقم (12) من السورة نفسها من آفة الظن، الذي يتعارض مع مسلك العلم في التعارف بين الناس، والشعوب، والثقافات؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ

(1) نجد من بين الداعين إلى حوار الحضارات، المفكر الفرنسي روجيه جارودي، والمفكر المغربي المهدي المنجرة، والمفكر الألماني صاحب نظرية التواصل هابرماس، والرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي.

ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: 12]. أما الآية (14) من السورة نفسها، فقد نبّهت العرب إلى أنّ الإسلام أوْلى من الإيمان، والإسلام، في مداراته في القرآن الكريم، يأخذ مفهومه من السلم والسلام قاعدة أساسية في بسط مقصد التعارف بين الشعوب ذات الخصوصيات الدينية والثقافية المتعددة؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: 14].

كما أنه من الطبيعي أن يفضي التعارف بين الناس إلى جلب المنفعة بين الناس بعضهم لبعض، وقوام هذا التعارف وأساسه هو التقوى، التي تقتضي التقوّي بالله بالتقرب إليه، وليس هناك من مسلك في التقرب إليه -سبحانه- إلا مسلك خلقه ومخلوقاته، وهي موطن الفعل والعمل (الإنسان والكون بما فيه)، أخذاً في الاعتبار أنّ الله غني عن عباده، فهم في حاجة إليه وليس العكس. وبهذا، التعارف المبنيّ على العلم بدل الظن، والذي قوامه التقوى، لا يحصل معه التحيز لمعرفة دون أخرى، أو لجنس، أو لون، على حساب آخر... لكون ذلك يتعارض مع مبدأ التقوى والتقوّي بالله رب العالمين. وعليه، ينبغي للتعاطي مع موضوع سؤال الهوية في الفكر الإسلامي أن يأخذ بمدخل العالمية والكونية التي يتّصف بها الخطاب القرآني.

إنّ عالمية الخطاب القرآني تنفي الإكراه في الدين ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 256]. وقوله أيضاً: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]. وهذا يعني أنّ عالمية الخطاب القرآني تقرّ بالتعددية الدينية وفقاً لمبدأ الحرية.

إلا أنّ الإقرار، هنا، بالتعددية الدينية ليس إقراراً من باب العبث؛ بل هو إقرار غائي ومقصدي، فالإنسان هو المخلوق الوحيد، الذي يتصف بالحرية والمسؤولية عن أفعاله؛ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ...﴾ [البَقَرَة: 286]؛ فقوة الحرية لديه تكمن في ذاته القادرة على التفاعل مع الكون والوجود بأكمله بمقوّمات السمع، والبصر، والفؤاد. وعلى هذا يترتّب موقفه من الغيب والدين والدنيا[1]؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿78﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 78-79]. فكلما أخذ الإنسان بمقومات السمع والبصر والفؤاد اقتربت تصوراته، ومواقفه، وأفعاله من الحقّ، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البَقَرَة: 255].

وننبّه، هنا، إلى كون «العالمية» ليست «العولمة» فهما نقيضان، فالعالمية تواصل، وإخاء، وتراحم، وتبادل عادل للمنافع، وسلام بين بني الإنسان، على العكس من العولمة؛ إذ تنحو هذه الأخيرة منحى الاستعلاء، والسيطرة، والاستغلال...[2]، وإغلاق العالم على نموذج واحد هو النموذج الغربي في صيغته الأمريكية، الذي يعمل على تعميم فكره وثقافته ومنتوجاته على العالم؛ فالعولمة، في أسوأ تجلياتها، تنفي الاعتراف بتعدد الهويات والخصوصيات الإنسانية، وليس لهذا الطرح إلا التبشير بأفق الحرب بين الثقافات والحضارات، وفقاً لما قال به الأمريكي صامويل هنتنغتون، في

---

(1) حرية الإنسان في الإسلام، (م.س)، ص41.

(2) الرؤية الكونية الحضارية، (م.س)، ص163.

مقالته المشهورة بعنوان (**صراع الحضارات**)، التي نشرها سنة 1993م. فما يمكن الأخذ به بديلاً للعولمة، التي لا ترى في العالم إلا مادة قابلة للاستعمال والتوظيف؛ هو العالمية.

الكونية (القرآن مفتوح على الكون):

الكون مفهوم يدلّ على الحجم النسبي لمساحة الفضاء الملتحم بالزمان والمكان، والذي يوجد فيه كلّ شيء، كالأرض، والنجوم، والمجرات، وكلّ الكائنات الحية... وتختلف الآراء والفلسفات والعقائد حول تصوّرها للكون، وقد كان للعلم الحديث دور محوريّ في بسط تصوّرات حول الكون، بالوقوف عند الكثير من حقائقه، وفهم طبيعة التحولات والتغيرات التي تقع فيه. ومن البديهي أن الكون الفسيح يضمّ، داخله، مجموعة من القوانين والنواميس أشار إليها القرآن الكريم بمفردة (السنن)، التي لا تبديل لها، ولا تحويل إلا بإذنه؛ قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: 43]؛ فالقوانين الطبيعية هي قوانين كونيّة سعى الإنسان جاهداً إلى معرفة رموزها، وتبنِّي قواعدها؛ لتكون عوناً له على معرفة نفسه، وسرِّ وجوده.

عندما نأتي إلى القرآن الكريم، نجده كتاباً مفتوحاً على الكون بأكمله، فآياته تشتمل على الحديث عن السموات، والأرض، والجبال، والبحار، والشمس، والقمر، والظل، والنور، والحرور... وتشتمل آياته، كذلك، على الحديث عن الخلق والخليقة، فضلاً عن إشارته إلى العديد من المخلوقات من الحيوان والحشرات.... ونجد أنفسنا، هنا، في غنى عن أن نورد الآيات الواردة في ذلك؛ لنستدلّ على هذا الأمر البديهي لدى كلّ قارئ لآيات القرآن وسوره.

وليس من العبث أو المصادفة، اليوم، أن يتوافق ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق تتعلّق بالكون، وما تكتنزه الآيات القرآنية من معانٍ

ودلالات معرفية. فالقرآن الكريم، عندما يتعرّض إلى كثير من الظواهر، التي تتعلّق بالكون والإنسان، يشير إليها بكونها آيات للذين يتفكّرون، وللذين يعقلون ولأولي الألباب... ومن بين الآيات القرآنية، التي تكتنز هذا البعد المنهجي، ما ورد في سورة [الرُّوم: 20-24]: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿20﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿22﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿23﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ فالقرآن الكريم يستقي حججه وبراهينه من المنظومة الكونية، ويسمي تلك الحجج بالآيات؛ ممّا يجعلنا أمام سؤال مفاده: ما مدلول الآية من داخل البنائية القرآنية في علاقة بالظواهر الكونية؟

فالآية، في اللغة، تفيد العلامة، وتفيد العبرة، وتفيد، كذلك، المعجزة. وفي الاصطلاح قد سُمّيت الجمل القرآنيّة بالآيات، لـ: «أنّ إيقاع [فواصلها...] مؤثّر في اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه في النّفس تأثيراً عظيماً»(1). والآية جزء من السورة لها مبدأ ونهاية، وآخرها فاصلة، والمناسبة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة؛ لأنّها علامة على نفسها بانفصالها عمّا قبلها وما بعدها؛ أو لأنّ فيها عبراً ودلائل لمن أراد أن يتذكّر، أو لأنّها، بانضمامها إلى غيرها، تكون معجزة دالة على صدق الرسول. نترك هذا التعريف الاصطلاحي جانباً، ونعود إلى القرآن.

وردت مفردة الآية في القرآن الكريم بصيغ متعدّدة، نذكر منها مفردة «آية» 84 مرّة، و«آيات» 148 مرة، و«آياتنا» 92، و«آياته» 37 مرة... ومن الواضح

(1) البرهان في علوم القرآن، (م.س)، ج1، ص60.

أنّ هذه المفردة، بكلّ صيغها، تعود على الله فحسب؛ فالآيات كلّها له ومن صنعه، فالكون، بما فيه، كله آيات من الله لمن يتفكّر، ويتذكّر، ويعقل؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12-13]، فآياته لا تخلو من أيّ زمان ومكان.

ومن خلال تتبّع هذه المفردة، وما ارتبط بها من صيغ في سياق القرآن الكريم، اتضح أنّ مفردة الآية يستنبط منها البرهان، والدليل، والحجة القاطعة على صحّة ما جاء به الأنبياء والرسل؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 96]. وقد جاء على لسان عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49]؛ فالقرآن يخبرنا بأنّه -سبحانه- قد أيّد أنبياءه ورسله بآيات بينات، فالقرآن، وهو يتحدث عن الآيات التي أيّد بها أنبياءه ورسله، يضم بداخله أقساماً وأصنافاً عن تلك الآيات، فليست بالضرورة الآيات التي أيّد الله بها رسوله موسى هي الآيات نفسها، التي أيد بها غيره من الرسل، ومن ثَمّ علينا أن نتنبه إلى التقسيم والتصنيف، الذي يضمه القرآن الكريم في حديثه عن الآيات التي أيّد بها رسله. وعليه بإمكاننا تقسيم الآية في القرآن الكريم إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: يتعلّق بالآيات المتلوة، والمقروءة لفظاً وحروفاً، وتجري عليها قواعد الكتابة (أي النسخ والتدوين)، وهي ما أنزله الله في كتبه، ومنها التوراة، والإنجيل، والقرآن.

القسم الثاني: يتعلق بالآيات المبصرة؛ أي المحسوسة، والمشهودة، والمبثوثة في كلّ ما خلق الله في الكون، نبصرها ونكشف عنها بالنظر إلى

سنن الله في خلقه، التي لا تبديل لها، ولا تحويل إلا بإذنه. وقد تمّ خرق سنن الله بإذنه في زمان ومكان معلومين، وهذا أمر خاص بأنبياء الله ورسله قبل بعثة محمد ﷺ، ومن ذلك مثلاً: عصا موسى، وما أيّد الله به نبيه عيسى، من إبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك ممّا قصه القرآن الكريم من آيات مفادها خرق الله لسننه، آية منه للناس لعلهم يهتدون، وقد انتهى هذا الطور والقسم من الآيات ببعثة محمد ﷺ.

إنّ محمداً ﷺ، بنصّ القرآن الكريم، لم يؤتَ شيئاً من آيات خرق السنن؛ بل آتاه الله خيراً، وأفضل من ذلك بكون آيات القرآن تضمّ التذكير بالقانون الناظم لسنن الله في خلقه، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلَت: 53]؛ فصدقية ما أُوحِيَ إلى محمد ﷺ لا تنحصر في الأحرف والكلمات؛ بل تتعدّاها إلى آفاق الكون والإنسان. فكلّ ما يضمّه القرآن من مداخل معرفيّة تتعلّق بالعديد من الظواهر الكونية (سقوط المطر... الرياح...) يجد صدقيته في الكون بالنظر فيه. فلا خرق لسنن الله ببعثة محمد ﷺ، فالآيات الدالة على صدقه، وصدق ما جاء به، تُؤخذ بالنظر في الخلق، وقد وصف الله الكون الطبيعي بما فيه بالكتاب الذي تقرأ فيه آيات الله المبصرة، والقراءة تعبير يتسع لمعرفة أسرار الأشياء، وفحصها، وملاحظتها، وكشف علاقة بعضها مع بعض[1].

ودليلنا على ما ذهبنا إليه كون المشركين، وأهل الكتاب، وغيرهم، طالبوا محمداً ﷺ بأن يأتيهم بصنف آيات خرق السنن، التي جاءت الرسل قبله؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿90﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿91﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿92﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ

(1) منهجية القرآن المعرفية، (م.س)، ص84-92، (بتصرف).

وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 90-93]؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118]. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 37-38]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124]. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرّعد: 7-9].

والله -جل وعلا- لا يعجزه أن يأتي بهذا الطلب، وقد وجّه الله أصحاب هذا الطلب إلى كون القرآن الكريم حجة رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 88-89]. والحكمة من هذا يشتمل عليها قوله سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

وأما قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]؛ فذلك يعني أنه -سبحانه وتعالى- سجل (نسخ)[1] تلك الآيات، التي مفادها خرق السنن، والخاصة

---

(1) النسخ من الآليات المعتمدة في تفسير القرآن عند جمهور المفسرين، وكذلك الأصوليين، والفقهاء، وغيرهم، ويُعدّ من القواعد المنهجية الأساسية، التي انبنت عليها العلوم الشرعية، وقد عرّف الأقدمون النسخ بأنّه رفع حكم شرعي بدليل شرعي =

بالرسل، قبل محمد ﷺ، وأثبتها حروفاً وكلمات إخباراً لنا في القرآن، ولولاه لما كان لنا أن نستيقن أنّ الله أيّد رسوله موسى بآية العصا، وعيسى بآية إحياء الموتى، وغير ذلك. أمّا لفظ النسيان، فهو يعود على هذه الآيات (آية خرق السنن)، التي لم يعد لها وجود ببعثة محمد ﷺ. أما لفظ المثلية، فهو يعود على القسم الأول من الآيات، الذي أشرنا إليه سابقاً؛ أي الآيات المدوّنة (المنسوخة) كتاب التوراة، وكتاب الإنجيل، ونسخة القرآن. فوجه المثلية، هنا، يتجلّى في كونها كلّها نصوصاً لغوية إلا أنّ كتاب القرآن مصدّق مهيمن على ما قبله فضلاً عن أنّ الله -جل وعلا- تكفّل بحفظه.

نخلص ممّا سبق إلى أنّ الجزء الكبير ممّا يشتمل عليه القرآن يجد مصداقيته في الوجود الكوني وحركته؛ «فالقرآن يشبه الكون الكبير الذي نعيش فيه؛ بل إنّ اعتبار القرآن كوناً معنوياً يضارع الكون المادي الذي خلقه الله. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: 75-80]. إنّه قسم بعظمة أحد الكونين على عظمة الآخر»[1]، إلا أنّ «القرآن أوسع من ذلك، وأكبر بكثير؛ إذ يحتوي

= آخر، فالحكم المرفوع يسمى المنسوخ، والدليل الرافع للحكم يسمى الناسخ. وجعلوا للنسخ شروطاً هي: أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً، أن يكون الدليل على نسخ الحكم دليلاً شرعياً، ألا يكون الخطاب المنسوخ حكمه مقيداً بزمن ووقت معين.

كما أنّهم قسموا النسخ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نسخ التلاوة والحكم معاً، القسم الثاني: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، القسم الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة. وقد ذهب البعض إلى القول بأنّ القرآن يُنسخ بالسنّة، وإلى غير ذلك من الأقوال المتعلقة بموضوع النسخ.

ومن المعلوم أنّ الكثير من الدارسين اليوم (منهم محمد الغزالي، وطه جابر العلواني، وأبو القاسم حاج حمد) قد اعترضوا على موضوع النسخ بالمعنى الوارد به عند جمهور العلماء، إذ لا نسخ بين نصوص القرآن الكريم.

(1) الغزالي، محمد، كيف نتعامل مع القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ط1، 1992م، ص84.

الكونَ كلَّه، وليس المكانَ الأرضيَّ فقط، ويحتوي الزمان مع المكان أيضاً، وما من آية تعرف هذا المحتوى الكوني للقرآن في بُعْدِه وامتداده الزماني أكثر من تلك الآية، التي مَنَّ الله بها على النبي الموقر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿85﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿86﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحِجر: 85-87]، فالخلق قد خلق بالحق، والحقّ مبثوث في الخلق وكيفيته، والمعاني المتولّدة عنه، فالله كما هو خالق فهو عليم، وحين تتم المقابلة بين الخلق والعلم على مستوى العطاء الإلهي للإنسان، فتكون المنّة الإلهية بقرآن عظيم يقابل، بالوعي، الخلق السباعي العظيم... فالسبع المثاني هي السموات السبع، وفي مقابلها السبع أرضين، والقرآن هو المعادل، بالوعي، لهذا الخلق الكوني»[1].

الإمامة والخاتمية:

الإمام في اللغة كلّ من اقتُدِيَ به، وقُدّم في الكثير من الأُمور، والنبي إمام الأئمّة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين، والمصحف، الذي يوضع في المساجد، يسمى الإمام[2]. لقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ الله جعل من نبيّه إبراهيم إماماً للناس لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124]. وقد انطوت إمامته على ما عهد الله له به من تطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، فالتطهير، هنا، لا ينحصر في معناه الحسي؛ بل يتعدّاه إلى المعنى المجرد، الذي يحضر معه تطهير النفس والقلب من كلّ الشوائب والعلل: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: 125]، والمقصود بالبيت، هنا،

(1) منهجية القرآن المعرفية، (م.س)، ص86.
(2) كتاب العين، (م.س)، ج8، ص429.

هو بيت الكعبة في مكّة المشرفة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 96]؛ إذ يُعدّ هذا البيت معلماً من معالم الهدى، التي يتحقق من خلالها العبور إلى معانٍ وقيم مفادها الإعراض عن عمل الشيطان بالسعي لترسيخ ثقافة السلم والأمن بدل الحرب، وسفك الدماء... فالبيت يُعدّ معلم الهداية للناس أجمعين، فعلى الناس أن يهتدوا به لغيره، وليس لذاته، فهو بمقام المؤشر الدال على فعل الخير؛ إذ يدلّنا على المقام الذي كان عليه إبراهيم، فدعوة الناس كافة للطواف به، هي دعوة من باب تذكيرهم بالأصل المشترك في الخلق والكون المشترك والرب الواحد الأحد. قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 97]. والشيء نفسه بالنسبة إلى الكتب التي جاءت الرسل، فهي تذكرنا بمعالم الهدى والهداية.

وقد امتدت إمامة إبراهيم عليه السلام في الصالحين من ذريته، وهم إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، ومن تلاهم من الأنبياء. وقد تطوّرت الإمامة مع موسى عليه السلام من الشكل الذي كانت عليه مع إبراهيم إلى إمامة كتاب يضمّ الهدى والنصح والتوجيه للناس، وهو الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام هدى ورحمة لبني إسرائيل، فالأنبياء، الذين جاؤوا من بعد موسى، كانوا من ورثة كتاب التوراة، بمن فيهم عيسى عليه السلام الذي جاءه كتاب الإنجيل مصدقاً لما جاء في كتاب التوراة لقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12]. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصَّف: 6].

ويخبرنا القرآن، كذلك، بأنّ بني إسرائيل بدّلوا وحرّفوا ما جاء موسى، وكذلك ما جاء عيسى، ولم يأخذوا بالحظ الذي ذكروا به من الكتاب؛ قال

تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المَائدة: 13].

وقد جاء كتاب القرآن مصدقاً لإمامة إبراهيم، وللكتاب الإمام، الذي جاء موسى، وكذلك عيسى، مذكراً بتجارب النبوات بعد وقبل إبراهيم؛ فالقرآن لا يكتفي بالتصديق، كما حصل مع الإنجيل، الذي جاء مصدقاً لما قبله؛ بل خصّه الله بخاصية الهيمنة، ولم يختص كتابٌ غير القرآن بهذه الصفة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: 48]. وهو، بهذا، يتصف بالإمامة، فالرسول الخاتم ترك بعده الكتاب الخاتم، الذي نهتدي بمنهجه المعرفي، وهو المنهج الذي ينبغي أن نعيه، ونحيط به.

حيث يشكّل القرآن في مجمله، زمن الختم، المرجع الذي يمكّن الإنسان من مواصلة مشروع النبوة، وتحقيق دوره في هذا الوجود في مستواه الفردي والاجتماعي. فالنبوة زمن الختم هي تحقّق في المستوى الفردي لغاية خلق الإنسان، ووجوده داخل عالم الشهادة. فالقرآن، وحياً، مكتملٌ يشكّل مرجع الوجهة، الذي يستمدّ منه الاجتماع البشري، زمن الختم، ما يحتاج من معنى يهدي به حركته، وهو يتحرك نحو الأعلى[1].

والختم في اللغة معناه الإتمام، والوصول إلى الانتهاء؛ فختم الشيء إذا بلغ آخره، وختم العمل إذا فرغ منه، وختام كلّ مشروب آخره، وختام الوادي

---

(1) الطاهر، ناجي بن الحاج، الإنسان والقيم العليا: رؤية معرفية، بحث قدم في أعمال الندوة العلمية، التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء في موضوع: (سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر)، التي أقيمت أيام: 21 و22 و23 جمادى الثانية 1432هـ الموافق لـ 25 و26 و27 أيار/مايو 2011م، في مدينة الدار البيضاء - المملكة المغربية، سلسلة الندوات العلمية الدولية للرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 1433هـ/ 2012م.

أقصاه، وخاتم الأنبياء آخرهم. والنبوّة لغة، تحمل معنى الإخبار، والعلوّ، والرفعة. وفي الاصطلاح تكون النبوّة إخباراً عن الله، مع ما يكون في ذلك من تشريف ورفعة ناتجين عن الاصطفاء الإلهي للنبيّ، وجماع اللفظين يعني انقطاع وحي السماء، وانتهاء إنباء الله للناس؛ أي أنّ الرسول محمّداً ﷺ آخر نبيّ، وأنّه لن يأتي بعده إلى يوم القيامة أيّ نبيّ آخر، فبه انتهت سلسلة بعث الأنبياء والرسل[1]؛ فما جاء به محمد ﷺ يُعدّ امتداداً وإتماماً للمشروع العالمي، الذي دشّنته رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي وصفه القرآن بوصف الأمة لوحده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: 120] بمعنى أنّ رسالة إبراهيم تُعدّ أصلاً لما بعدها[2].

وخاتميّة الرسالة المحمدية تعني أنّ خيريّة الأنبياء إلى العالمين قد اكتملت، وبلغت ذروتها مع محمد ﷺ، ولن نجد أدلّ على هذا المعنى من قول الرسول عليه السلام: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»[3].

يخبرنا القرآن الكريم بأنّ كلّ شيء في الكون خاضع إلى الحركة، فالأرض تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس... والنبات، أيضاً، تتحرَّك جذوره داخل الأرض، وتتحرَّك فروعه خارجها. وفي حركته، ينمو ويمتدّ جذعه إلى فوق ويعلو... حتى الجبال يخبرنا القرآن الكريم بأنّها تمرّ مرّ السحاب؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النّمل: 88]. وهذه الحركة في الكون ترتبط بغائيّة الخلق، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ

(1) لسان العرب، (م.س)، ج12، ص164.
(2) الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم، (م.س)، ص79.
(3) رواه البخاري رقم: 3535، ومسلم رقم: 2286.

إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، وليست عابثة، فقبلة الحركة في الوجود كلّه هي الحق سبحانه. فكلّ شيء يعود ويرجع إليه؛ قال تعالى ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: 8]، وقد جاء في سورة البقرة، الآية (156): ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

ففكرة النبوة، كذلك، متحرّكة من داخل القرآن الكريم نحو غاية تحقّق خلق الإنسان نفسه. فآدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل، قبل بعثة محمد بن عبد الله ﷺ، جسدوا تحركاً زمانياً للإنسان؛ تجسّدوا وحدة متحقّقة زمنياً في محمد ﷺ. كما أنّ الكتب السماوية، التي نزلت قبل القرآن، قد جسدت التحرك الزمني للكتاب، الذي اكتمل في نصّ القرآن وحدة نصية مفتوحة على الكون، والإنسان، والعالم[1]. فما جاء محمداً ﷺ، في المرحلة الأخيرة من الوحي هذه، يُعدّ مقدمة «للبشرية لتعرف طريقها إلى الله، عبر التعامل مع السنن الوضعية، وتكشف الله في المادة وفي الحركة، دون حلولية، ودونما ورائية، ودون ارتداد إليه بمبدأ المادة الناقصة، إنّها من أعظم المراحل وأغناها في التاريخ الإيماني للبشرية»[2].

وذروة خيريّة الأنبياء مع محمد ﷺ تتمثّل في كونه بعث رحمة للعالمين لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. والرحمة في اللغة جاءت من الفعل «رحم»، وهو فعل يدلُّ على الرّقّة، والعطف، والرأفة. يُقال من ذلك رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له، وتعطَّفَ عليه... وقد سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِماً، فمنها يكون ما يُرْحَمُ، وَيُرَقّ له مِن ولد[3]. وفي هذا السياق، جاء قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا

(1) التأويل في القرآن المجيد رؤية معرفية، مجلة التأويل، (م.س)، ص70، (بتصرف).
(2) أبو القاسم حاج حمد، محمد، الحاكمية، دار الساقي، ط1، 2010م، ص88.
(3) معجم مقاييس اللغة، (م.س)، ص884.

فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿23﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23-24]؛ ففعل الرحمة فعل محوريّ في الوجود كلّه، ولهذا نجد الله نسبه إلى نفسه، وتحبب لعباده أيّما تحبب باسمين متلازمين من أعظم صفاته، هما: «الرحمن»، و«الرحيم»، حتى جعلها مدخل كلّ عمل صالح، وقد اتسعت رحمته، لتشتمل على كل شيء خلقه، فالرحمة أصل في الكون إيجاداً وامتداداً[1].

وبهذا الصدد نورد الآيات الآتية:

- قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12].
- قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54].
- وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: 133].
- قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58].

منهجية القرآن المعرفية [2]:

سبقت الإشارة إلى كون القرآن يُعدّ بمقام المعادل الموضوعي للخلق الكوني، كما سبقت الإشارة إلى كونه يُعدّ بمقام الكتاب الإمام، الذي يتمّ

(1) بؤس الدهرانية، (م.س)، ص73.

(2) استعرنا هذا العنوان من كتابات المفكر السوداني أبو القاسم حاج حمد، فهو أوّل من كتب في هذا الموضوع على حسب علمنا؛ إذ خصّص كتاباً لهذا الموضوع، تحت عنوان: منهجية القرآن المعرفية، كما أن الدكتور طه جابر العلواني له كتاب في الموضوع تحت عنوان: نحو منهجية معرفية قرآنية.

الاهتداء به، فتجلي الهداية من القرآن، والتعاطي معه كمعادل للكون من حيث الموضوع، بمعنى كونه يحتوي، بين طياته، على مداخل معرفية محيطة بأسرار الكون والإنسان، وهذا يقتضي من القرآن أن يحمل، بين طياته، منهجية معرفية؛ أي «مجموعة المبادئ المعرفية والإجرائية المعتمدة لتوليد مفاهيم وأحكام تصورية»[1]؛ فالقول بالمنهج القرآني، و، بشكل أدق، المنهجية القرآنية، يعني التعاطي مع توليد المعرفة من داخل الخطاب القرآني بشكل دقيق لا يقبل أيّ شكل من أشكال التعارض. وبهذا، المنهجية ما هي إلا «تقنين للفكر، ودون هذا التقنين يتحوّل الفكر إلى تأملات وخواطر انتقائية قد تكون عبقرية ومشرقة جداً، وذات جدوى في كثير من الأحيان، وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة، ولكنها لا تكون منهجية. فمنهجية الأفكار، أو تقنينها بالمنهج، تماثل حالة توليد القوانين من الطبيعة»[2].

مع العلم بأنّ لكلّ فكر، في حاضرنا العالمي المعاصر، منهجه الضابط والمنظم. ومن باب المثال، إذا كان المنهج منهجاً مادياً في نظرته إلى الكون، فالأفكار التي ينتجها لا تكون إلا مادية تغلق الوجود وحركته على قانون التركيب عبر وحدة المتضادات بشكل جدلي مادي، وفي كلّ الاتجاهات العلمية من الطبيعة إلى الإنسان[3]، ولا يمكن لهذا المنهج -حتى وإن أراد- أن يكون منفتحاً على أبعاد خارجة عن الإطار المادي؛ لكونه يفتقد النظرة الكلية التي يكتمل فيها ما هو مادي، وما هو خارج عن المادة؛ ولهذا نجد المؤمنين بالمنهج المادي مكتوفي الأيدي أمام قضايا تتعلّق بسؤال الغيب، وما يرتبط به، والأمر نفسه ينطبق على المنهج، الذي يحصر حركة الوجود في إطار الجبرية الغيبية المطلقة، متذرعاً في ذلك بفهمه للدين،

(1) صافي، لؤي، دراسة بعنوان: في معنى المنهجية الإسلامية، على الموقع:
http://safireflections.wordpress.com

(2) منهجية القرآن المعرفية، (م.س)، ص34.

(3) المرجع نفسه، ص34.

فضمن هذا المنهج المتّصف بالجبرية يبقى أصحابه مكتوفي الأيدي حول سؤال الحرية والاختيار[1]. إنّ المنهج والمنهجية، في الوقت نفسه، يمكّننا من الوقوف عند النسق المرجعي، الذي يحاكم المفاهيم والتصورات. وعليه، يضم القرآن الكريم في داخله نسقاً مرجعياً لا يقبل القراءة التجزيئية لقضاياه ومواضيعه، ولا يقبل، بأيّ شكل من أشكال الانتقائية، أو التوفيق بين آراء ووجهات نظر متعارضة؛ فهو «يحمل، ضمن وحدته الكتابية العضوية، منهجية كاملة»[2]. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: 82]. وقوله أيضاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبيَاء: 22]. وهذه المنهجية، التي أشرنا إليها سابقاً، قد تمكننا من القراءة المعرفية للنص القرآني.

فالغاية من المعرفية، عندما ترتبط بالمنهجية، «ليست مجرّد نقدٍ لظواهر الثقافة والمجتمع في شتى المجالات، إنّها حفر في الجذور، حيث تردّ كلّ إنجاز ثقافي إلى تاريخيّته، وتحاول تفكيك النظم، والمفاهيم، ودلالات اللغة، ووسائط الاتصال بين الذهن والعالم؛ فالمعرفيّة إمّا أن تحقّق، في النهاية، قطيعة عدمية مع الخلفيات الموروثة، وإما أن تعيد توظيفها على نحو معاصر، ومن منطلق نقدي وتحليلي، فالمعرفية ترتبط دوماً ببناء مشروع حضاري في إطار ثقافي عالمي معاصر، ودون نزعة إيديولوجية»[3]. ومن ثَمَّ يجب أن نفهم قصص الأنبياء والرسل، في سور القرآن الكريم، بإرجاعه إلى الأرضية الثقافية والفكرية، التي كانت من ورائه، كما يجب إرجاع ما اتّصل في القرآن الكريم بالظواهر الطبيعية إلى الطبيعة نفسها في الفهم والتحليل، ودليلنا على هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ

(1) المرجع نفسه، ص34، (بتصرف).
(2) المرجع نفسه، ص35.
(3) المرجع نفسه، ص37.

ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]. إنّ هذه الآية ترجع النظر والبحث في موضوع الخلق والخليقة إلى الطبيعة، فهي مصدر الكشف عن الحقيقة في هذا الموضوع، الذي يُعدّ السؤال فيه مفتاحاً لكثير من حقول المعرفة، وفي هذا دليل، كذلك، على أنّ حلقات البحث في هذا الموضوع وغيره لا تتوقّف عند القرآن الكريم بأحرفه وكلماته؛ بل تتعدّاه إلى الكون بأكمله.

إنّ الدعوة إلى إرجاع البحث والنظر إلى مجال الكون تعترضنا في القرآن الكريم في كثير من الآيات، من بينها:

- قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].
- قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 11].
- قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النَّمل: 69].
- قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلت: 53].

ومن الواضح أنّ مفردة النظر والدعوة إليه تشكّل حلقة مفاهيمية في نصّ القرآن الكريم، باعتباره نصاً يدعو إلى النظر بدل التقليد والاتباع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 104].

وتعدّ مفردة (العقل)[1] أحد العناصر المهمة في هذه الحلقة؛ فقد مجّد القرآن الكريم العقل إلى درجة يصحّ القول معها: إنّ القرآن، في جزء كبير

(1) يرى المفكر المغربي طه عبد الرحمن أن العقل ليس جوهراً قائماً بذاته في الإنسان، ومكتفياً ومستغنياً عن غيره، ويستخدم لتحصيل المعرفة وبلوغ الحقيقة واليقين، فالعقل =

منه، دعوة إلى إعمال العقل؛ إذ وردت هذه المفردة «يعقلون» (22) مرة، ومن الملاحظ أنّ وصف «لا يعقلون» يأتي بعد الدعوة إلى النظر والتفكير في الكون والموجودات؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 164]. ويقول أيضاً: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّعد: 4].

وقد بلغ ذمّ الذين لا يعقلون من الناس، بشكل عام، درجة إنزالهم مرتبة البهائم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

= في نظره «يدخل في باقي الأفعال الإنسانية، فمثلاً، المبصر يبصر وهو يعقل في بصره، والسامع يسمع وهو يعقل في سمعه، والعامل يعمل وهو يعقل في عمله». وما دام العقل فعلاً من الأفعال، فلابدّ له من ذات حاملة لهذا الفعل، هذه الذات يقرّر طه عبد الرحمن أنها القلب، فيكون القلب هو الذي يختص بالفعل العقلي، وبناء على هذا يرى طه عبد الرحمن أنّ العقل والعقلانية متعدّدة، عكس ما يرى الكثير من الدارسين؛ إذ العقلانية، في نظر طه: «على قسمين كبيرين، فهناك العقلانية المجردة من الأخلاقية، وهذه يشترك فيها الإنسان مع البهيمة، وهناك العقلانية المسددة الأخلاقية، التي يختص بها دون سواه، وخطأ المحدثين أنهم حملوا العقلانية على المعنى الأول، وخصوا بها الإنسان». انظر: عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان (الدار البيضاء، المغرب)، 2006م، ص63. ونشير، هنا، إلى أن المفكر المغربي، محمد عابد الجابري، أثناء نقاشه لموضوع «المعقول واللا معقول في الثقافة العربية»، يرى أن الكون ونظامه، والقرآن وبيانه، هما العنصران الرئيسان في الإطار المرجعي، الذي يستند إليه العقل في القرآن في صراعه مع اللا عقل؛ أي مع المشركين وغيرهم. بمعنى كون القرآن الكريم يستند على الكون ونظامه في مفهوم العقل، والدعوة إلى إعمال العقل. بهذا الشأن، انظر: الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط11، 2011م، ص139.

[الأنفال: 22]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42]. ويقول أيضاً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44].

إن الآيات القرآنية، التي لها علاقة بالدعوة إلى النظر، متعددة من داخل القرآن الكريم، ومن خلال تتبعها يتّضح أنّ النظر فيه استعمال وتفعيل لملكة السمع والبصر والفؤاد؛ أي آليات توليد المعرفة، ولا يمكن بحال أن يكتمل النظر، وينضج، إلا إذا قمنا بنوع من الربط بين الأجزاء والمكونات للقضية التي ينظر فيها؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿17﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿18﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿19﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿20﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿21﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 17-22]، فالنظر إلى عضو من أعضاء الإبل، مفصولاً عن غيره من الأعضاء الأخرى المكونة لخلقة الإبل، فيه نقص وتقصير في النظر، فحقيقة النظر في خلق الإبل تقتضي النظر في خلق السماء، التي أعلى من الإبل، والنظر في الأرض، التي تسير عليها وتقتات من نباتها، والنظر إلى الجبال التي تشبه سنمها، وكيف أنّ الإبل يصعب عليها السير والتنقل بين الجبال، فشكل خلقتها يتماشى مع مكونات الصحراء. وغير ذلك من الآيات المتداخلة بين خلق الإبل، وخلق السماء، والأرض، والجبال... وهذا يعني أنّ خلق الإبل يتضمّن بعداً نظرياً نحن في حاجة إلى الوقوف عنده.

والذي ينبغي التنبيه إليه، هنا، أنّ النظر وإعمال العقل ينحو منحى التكامل والتداخل بين القضايا والأشياء المكوّنة للخلق، فليس هناك مجال للتجزيء، أو التناقض، أو التعارض، أو العبث واللعب في المنظومة الكونية، فكلّ شيء له قدر ومقدار وغاية ومقصد، فالكون، برمّته، «نظام هادف، نابض بالحياة، مفعم بالمعنى؛ حيث إنّ كلّ أجزائه تكون بناء عضوياً تتفاعل أجزاؤه، وأعضاؤه، بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم»(1).

(1) عبادي، أحمد، الوحي والإنسان، دار النيل، مصر، ط1، 2013م، ص37.

وعليه، ينبغي للنظر العقلي في آيات الله في الكون أن يكون نظراً كلياً متكاملاً ومتداخلاً، كما أنّ موضوع الحوار والمناظرة ينبغي أن ينحو منحى التكامل والتداخل في النظر إلى القضايا المتحاور حولها، كما أنّ النظر في آيات الله المُوحى بها في كتابه، ينبغي أن يكون نظراً متكاملاً بعيداً عن القراءة التجزيئية؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحِجر: 91]؛ أي أخذوا ببعضٍ منه، وأعرضوا عن بعض، وهذه من بين مشاكل بني إسرائيل؛ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: 85].

إنّ النظر، بهذا المعنى، ينحو منحى النظرية، فالقدماء لم يستعملوا بشكل كبير مصطلح النظرية؛ «بل المأثور والمنقول عنهم هو استعمال ألفاظ، مثل نظري، والعلم النظري، والمسائل النظرية...»(1). أمّا في الواقع المعاصر، فأوّل ما ظهر هذا المفهوم ظهر في المنظومة الفلسفية الغربية؛ فبالرجوع إلى القاموس الفلسفي، نجد أنّ أندريه لالاند قد عَدَّ النظرية بمقام «إنشاء تنظيري للعقل، يربط النتائج بالمبادئ»(2). وقد ذكر المعاني الخمسة الآتية:

- النظرية بصفتها مقابلاً للممارسة، ولما هو تطبيقيّ.
- النظرية معياراً للحق المحض، أو الخير المثالي.
- النظرية بصفتها موضوعاً للتصوّر المنهجي والمنظم نسقياً.
- النظرية بصفتها معرفة يقينية تخصّ رأي عالم أو فيلسوف حول إشكالية معرفية ما.
- النظرية بصفتها تركيباً منهجياً وعقلياً لتفسير كثير من تفاصيل وجزئيات العلم(3).

---

(1) الحسني، إسماعيل، نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2005م، ص25.

(2) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط2، 2001م، ص1454.

(3) المرجع نفسه، ص1454، (بتصرف).

إنّ هذه التعاريف الخمسة، التي أوردها صاحب القاموس الفلسفي أندريه لالاند، تنحو منحى الأخذ بالنظرة الكلية لأمر ما، بالنظر إلى مكوناته وأجزائه؛ أي استحضار البعد النسقي والكلي في الفهم، والتحليل، والإدراك؛ ويؤكّد لنا أندريه لالاند أن الحالة الراهنة للعلم، اليوم، هي حالة النظريات العلمية، التي تشترك فيها، وتجتمع من خلالها جهود جميع العلماء بمختلف تخصّصاتهم بقوله: «لقد مضى عصر المذاهب والمنظومات الشخصية، وشيئاً فشيئاً جرى استبدالها بنظريات تمثّل الحالة الراهنة للعلم، وتعطي لوجهة النظر هذه نتيجة جهود الجميع»(1). وعليه، سيكون من المفيد جداً، إذا تمّ التعاطي مع موضوعات القرآن وقضاياه من هذا المنظور المنهجي.

وفي نظرنا، هذه الدعوة، التي تجمع بين إعمال العقل والنظر في قراءة الوحي وقراءة الكون، تشكّل محوراً مفصلياً في منهج المعرفة، الذي أسس له القرآن الكريم، وهو المنهج الذي أطلق عليه الكثير من الباحثين والدارسين صفة «الجمع بين القراءتين». وهذا المنهج يُعدّ تجلياً من تجليات التكامل المعرفي في القرآن المجيد(2)، والآية الحاملة لهذا المنهج، والدالة عليه، هي أول ما نزل على قلب الرسول الأمين. قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العَلَق: 1-5]. هذه الآية فتحت أمام المؤمن كتاباً وأفقاً آخر للنظر، هو كتاب الخلق والطبيعة. فالدعوة إلى النظر، هنا، دعوة مزدوجة بين النظر في الخطاب القرآني، والنظر في القوانين الطبيعية، والاجتماعية، والتاريخية، والأنتربولوجية(3).

---

(1) المرجع نفسه، ص1454.

(2) الوحي والإنسان، (م.س)، ص69.

(3) أوبرو، طارق، إمام في فرنسا، نقله إلى اللغة العربية: سعيد بن سعيد العلوي، دار جداول، بيروت، ط1، 2014م، ص130-131.

من خلال الآية السالفة الذكر، «طلبت من الرسول قراءتان: قراءة تأتي عبر التعلق بقدرة الله المطلقة في الحركة الكونية، ودون كيفية محددة تتجلى في الاتجاه بالعلقة إلى مرحلة الإنسان، كما تتجلى في الاتجاه بالحياة إلى الموت، وبالموت إلى الحياة، وهي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية، وصفاتها، وخلقها للظواهر ذات المعنى، وتحديد هدف حق للخلق. قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كوني مفتوح. هنا تأتي القراءة باسمه المقدس؛ أي قراءة بالله بوصفه خالقاً، والخلق صفة يتفرد بها الله.

وقراءة ثانية ليست باسمه، ولكن (بمعيته)؛ لذلك لم تأتِ الآية، في الشطر الثاني، على نحو المقدّمة، فلم يقل (واقرأ باسم ربك الأكرم)، ولكن ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العَلق: 3]، فجعل العطف على الربوبية، وأعطى الأمر الثاني ﴿ٱقْرَأْ﴾ اتجاهاً مستقلاً، والأمر واضح بالنظر إلى حركة الواو في القراءة الثانية. فدليل المعيّة هنا في ﴿وَرَبُّكَ﴾. ثم يتخذ الله في القراءة الثانية صفة دالة على نوعية القراءة المطلوبة، وهي قراءة متعلقة بصفة كون الله كريماً فيما خلق؛ أي كرم التسخير، وتشكيل الظواهر ذات المعنى بالنسبة إلى الإنسان؛ أي إنها قراءة في عالم الصفات، التي تتجلى في الخلق، وعالم الصفات عالم موضوعي؛ ولذلك جاءت القراءة هنا عبر علم متعلق بالقلم، والقلم بالنسبة إلى الإنسان (وسيط خارجي) لمعرفة موضوعيّة، وليست ذاتية.

فالقراءة الثانية هي قراءة بالتفهّم العلمي الحضاري (القلم) لتجليات القدرة في نشاط الظواهر، ووجودها، وحركتها، وتفاعلاتها، وهو ما درج الناس على تسميته بالعلم الوضعي»[1]. إنّ القرآن منزل من حيث فرقانيته بمطابقة تفصيل الوجود[2]، فإنّه، بآياته، التي فصلت من أصول الوجود

---

(1) العالمية الإسلامية الثانية، (م.س)، ج1، ص458.

(2) ابن عربي، التجليات الإلهية، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د.ط)، 2002م، ص9.

التفصيلية، وهذا يعني كون الوجود كلمات الله المسطورة في الآفاق، والقرآن كلماته المسطورة في المصاحف[1].

وفعل القراءة، في علاقته بالإنسان، ينبثق من فعل الخلق والإبداع، الذي يعود بالإنسان إلى تشكّله العقلي منذ بداية خلقه. ثمّ النموّ الجنيني، ثمّ الاستكمال السوي في أحسن صورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8]. ولا أحد من الخلق حظي بهذا التكريم من لدن الخالق الذي حظي به الإنسان؛ ولهذا جاء فعل القراءة مشروطاً باسم الرب «بِاسْمِ رَبِّكَ»، والسر في هذه الشروط أخذ الإنسان إلى مستوى الرقي والكمال الروحي. فالقرآن المجيد في موازاة مع الكون الذي يُعدّ فضاء ومرجع الحركة والفعل الإنساني، يُعدّ مرجعاً للقيم، ومرجعاً لتلك الوجهة التي سوف ترشد الحركة والفعل الإنساني[2]؛ قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: 123-124]. وبالإعراض عن هذا الشرط، سينطبق على الإنسان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: 19].

أصل القراءة في اللغة يفيد الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته[3]. وسُمّي القرآن بهذا الاسم لكونه: «جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل لأنّه جمع أنواع العلوم كلها»[4]. يمكننا القول إنّ الأمر بالقراءة في القرآن الكريم، الذي جئنا على ذكره، من خلال سورة العلق، هو أمر بجمع المتفرقات والوعي بما يدل عليه اجتماعها، وبتعبير آخر هو التفكير في المجموع، وهو، كذلك، أمر بتفعيل ملكة الإنسان في معرفة الأشياء، وفهم

---

(1) أبو زيد، نصر حامد، مجلة الكرمل، العدد 62، 2000م، ص68.

(2) الوحي والإنسان، (م.س)، ص74.

(3) لسان العرب، (م.س)، ج1، ص129.

(4) مفردات ألفاظ القرآن، (م.س)، ص669.

سننها، وقوانينها، وروابطها، ففعل القراءة المأمور به، من خلال سورة العلق، يفضي إلى الوعي بالنظام الموجود في النص، والروابط بين أجزائه (فهم بنيته)، والوعي بالنظام الذي يربط بين المخلوقات، وينظم سيرها[1].

ففعل القراءة، الذي دعا إليه القرآن الكريم، ليس من باب الاستهلاك، واجترار الموروث، أو ما شابه ذلك؛ بل هو فعل يهدف إلى قراءة تؤمِّم وجهه شطر المستقبل، وهي بهذا ليست علماً بالمعلوم فحسب؛ بل هي مفتاح للعلم بغير المعلوم. مع العلم بكون «القرآن يُعدّ إبداعاً للعالم بالوحي (من حيث إنه تصور جديد للعالم) وتأسيس له بالكتابة. فالكتابة هي وضع العالم: واقعاً وغيباً، صورة ومعنى، في نظام لغوي. وهي، بكلام آخر، رؤيا خاصة للعالم»[2]. إذ بالإمكان لعلم دلالة القرآن أن يتحول إلى نوع من الأنطولوجيا، التي تبحث في الوجود بشكل حيّ وحركي. فدلالة آيات القرآن تعكس حركية الوجود وديناميكيته[3]. وهذا ما يسميه الباحث المغربي أحمد عبادي بالمنهجية الآياتية، وهي ثمرة من ثمرات إدراك البنائيتين (بنائية الكون وبنائية القرآن)، وبوابة للمعرفة الناجعة الراشدة[4].

بعودتنا إلى مناهج المعرفة الغربية الحديثة، نجدها في مجملها تشكّلت ملتصقة بعالم الحس والتجربة؛ إذ حاولت فلسفة القرن التاسع عشر البرهنة على نفي أنماط الإيمان الديني إلى درجة التنبؤ بزوال نمط الإيمان الديني رافعة شعار ومبدأ «لا أخلاق في العلم، فسار كلّ واحد (أو جماعة) أن يضع بنيان نظريته بحسب ما شاء من القرارات المعرفية، والإجراءات المنهجية، ما عدا أن يجعل فيها مكاناً للاعتبارات، التي تصدر عن التسليم بقيم معنوية

(1) حللي، عبد الرحمن، المستويات القرآنية لمنهج التعامل مع النص، مجلة الإحياء، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العدد 28، سنة 2008م.

(2) أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ط1، 1979م، ص23.

(3) الله والإنسان في القرآن، (م.س)، ص31-32.

(4) الوحي والإنسان، (م.س)، ص39.

مخصوصة، أو عن العمل بقواعد سلوكية معينة»[1]، ورافعة، كذلك، شعار ومبدأ «لا غيب في العقل»[2]. لكن التطورات الفلسفية والثقافية لم تؤكّد تلك النبوءات، حيث شهد القرن العشرون استعادة قوية لنمط الإيمان الديني عامة، واللاهوتي خاصة[3]. وذلك لكون الكائن البشري يختلف عن غيره في الوجود بأكمله، ولا يمكن بحال أن يعيش دون التطلّع إلى ما قبل وما بعد وجوده.

ونقف، هنا، عند أهمّ الفلاسفة الغربيين، الذين كان لهم الأثر الكبير في التقعيد المنهجي للمعرفة الوضعية المعاصرة، وهو الفيلسوف أوغست كونت (1798/ 1857م)؛ حيث يرى هذا الفيلسوف أنّ تطور العقل البشري بدأ باللاهوت، ثمّ الميتافيزيقا، ثم الوضعية. وبهذا، يكون أوغست كونت قد عمّم ما عليه علم اللاهوت في أوربا بالخصوص ما هو وارد ومتداول في نصّ الكتاب المقدس على نصّ القرآن الكريم، فهو، عندما تحدث عن اللاهوت، لم يكلف نفسه عناء البحث والحفر المعرفي عن النص غير المحرف؛ إذ لم يميّز بين النص الإلهي في (مطلقه) والتزييف التراثي البشري لهذه النصوص، فأدرجها ضمن الحقبة اللاهوتية. «ومن هنا يرتكب كونت الأخطاء الآتية:

أولاً: أنّه يحاكم نصوص الوحي بالمنطق الوضعي، فلا يميّز بين الإنتاج البشري... وبين النص الإلهي...

ثانياً: أنّه بحث في الموروث الديني من خلال الإرث الديني الإسرائيلي/اليهودي المفارق للحقائق التاريخية...

---

(1) عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2009م، ص92.

(2) المرجع نفسه، ص92.

(3) بوعزة، الطيب، الفلسفة الوضعية والدين، أعمال ندوة الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي، التي نُظمت في رحاب كلية الآداب، مدينة بني ملال، المغرب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2014م.

ثالثاً: أنّه لم يدرك (المرحلة البابلية الأولى) في تكوين الحضارة الإنسانية، التي اجتمعت لديها قدرات (الإنس والملائكة والجن)، وهي المرحلة التي انتهت بإقلاع (نوح) وفلكه المشحون، ومن تلك الحضارة البابلية تفرعت كلّ الحضارات التاريخية الكبرى من (عاد) و(ثمود) و(الفرعونية) وغيرها، والتي مازالت أسرارها تحيّر العلماء»[1].

بعد هذا، جاءت الفلسفة الماركسية منهجاً ينفي الغيب، ويُقصي الدين من كلّ مجالات الحياة، فقادت التطوّر الأوربي إلى بناء نظري متكامل للاهوت الأرض، نافية، بحدّة، لاهوت السماء، ومقاتلة مستقتلة ضدّ كلّ آثار الغيب في الحركة والجود[2]. «الحضارة الحديثة حضارة أرضية بشرية ترى أنّه لم ينزل من السماء شيء، وأن الإنسان وحده سيد الكون، وأنّ الحضارة هي الجديرة بالعناية، وأنّ الموت شيء مؤسف، لكن، ماذا نصنع له؟ فلنستعمل ما قبله، فليس بعده ما يعنينا! وربّما بقيت ظلال الأديان الهزيلة، التي يتوارثها البعض! فما تجدي هذه الظلال؟ إنّها تشبه أدخنة بعض المصانع، التي تغير الجو ثم تبددها الريح»[3]. والواقع الحقيقي أنّ الدين يُعدّ، في (عصر العلوم الطبيعية)، صورة متواترة للتخلف العقلي، وعجز الإنسان عن حلّ مشكلاته، أو التغلب عليها. «لقد أراد نيتشه (Nietzsche) أن يُعْدِم الإله، فباءت محاولته بالفشل، وكان لزاماً أن يفشل، أمّا علماء الطبيعة فقد تعمدوا قتل الإيمان به»[4].

---

(1) أبو القاسم حاج حمد، محمد، إبستمولوجية المعرفة الكونية: إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، ط1، 2004م، ص42-43.

(2) أبو القاسم حاج حمد، محمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، ط1، 2004م، ص156.

(3) الغزالي، محمد، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار القلم، ط2، 2000م، ص84.

(4) هوفمان، مراد، الإسلام كبديل، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بفاريا، ط1، 1993م، ص75.

ولا ينبغي أن يُفهم من كلامنا، هنا، أننا ضدّ التطور العلمي، أو ما شابه ذلك؛ إذ ينبغي لعلماء الطبيعة وغيرهم ألا يغضوا الطرف عن الحكمة والغائية الكامنة في الطبيعة، فلا ينبغي التوقف عند دراسة تكوين العسل من لدن النحل، وما صاحب ذلك من المجهود الكبير والمتقن، الذي تقوم به الحشرة العجيبة (النحلة)، التي جاءت سورة كاملة في القرآن باسمها، وهي سورة النحل... وهذه أمور كثيرة تدرّس للطلاب بشكل علمي، وبلغات عدة عبر العالم؛ إذ من الضروري أن نرقى إلى فهم الحكمة، التي جعلت من العسل مادة شفاء للناس، ولماذا خصّ الله هذه المادة بشفاء الإنسان دون غيره، ألا يدلّ هذا على الغائية والقصدية الكامنة في عالم الطبيعة؛ قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 69]. والأمر نفسه ينطبق على اللبن، الذي يخرج من بين الفرث والدم سائغاً لكل الشاربين؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النّحل: 66]. العلم، اليوم، يشرح لنا هذه العملية، التي تجري في الطبيعة وفق مراحل معيّنة بشكل مفصل ودقيق، وهناك شيء من وراء هذه العملية، التي تجري في الطبيعة منذ الأزل، وهي الحكمة، والغاية في أن يكون اللبن سائغاً، وفيه منفعة للإنسان، فالرقيّ إلى الحكمة والغائية الكامنة في الطبيعة قد تأخذنا إلى الفهم الكلي والمركب في فهم عالم الشهادة «الطبيعة» في علاقته بعالم الغيب، وهذا مسلك يجلّ من إنسان يعرف ذاته في علاقته بربه الذي استخلفه في الأرض.

فمناهج المعرفة المعاصرة أُريد لها أن لا تمضي لمعرفة حقائق وخلفيات الخلق الكوني، إلى درجة نسبة القول إلى هذه المناهج بوصف هذا العالم بنوع من العبثية، وهذا طرح فيه إساءة إلى مقام الله المنزّه المقدّس، بصفته هو الذي خلق وأوجد، إنّ قضية البحث، والنظر، والمعرفة، في الكون

تمضي إلى ما وراء فلسفة العقل الطبيعي[1] المستند إلى (فلسفة العلوم الطبيعية) تلك الفلسفة التي لا تنفذ بسطحيتها إلى معنى العسل واللبن، كما بينا سابقاً[2].

«صحيح توصل الغرب، الآن، إلى التفوّق، وإلى الهيمنة، وإلى غزو الفضاء... ولكنّه يصل، الآن، إلى طريق مسدود يفقد فيه الإنسان كرامته»[3]. فكرامة الإنسان وتكريمه يُبنيان على النظر إلى الإنسان بشكل مكتمل، وذلك باستحضار البعد الروحي فيه، و، في الوقت ذاته، باستحضار البعد البيولوجي.

أمّا المسلمون، اليوم، فلم يتأتَّ لهم بعد، أو لغيرهم، أن يكتمل تجديد المنهج في التعامل مع القرآن الكريم خطاباً عالميّاً له كامل القدرة (بكرمه، ومجده، وهيمنته)، بقصد المساهمة في بسط رؤى جديدة للمعرفة، يحضر معها نوع من التكامل في النظر إلى عالم الغيب والشهادة، مع العلم بأنّ الخطاب القرآني خطاب «للناس كافة، ويتّسع لمطلق الزمان والمكان، جاء حاملاً للصيرورة الكونية كلّها، ومعادلاً، بالوعي، للوجود الكوني وحركته»[4].

التصديق والهيمنة:

في تقديرنا، ليس هناك كتاب، على سبيل القطع، يتصف بهذه الخصوصيات المنهجية، التي أتينا على ذكرها، بدءاً بالوحدة في البناء من حيث الشكل، والمضمون، والكلية، ومن حيث مقاربة الموضوعات

---

(1) العقل الطبيعي هو العقل الملتصق بالطبيعة، إلى درجة أنّه لا يؤمن بمصدر للمعرفة والقيم والأخلاق خارج إطار المادة، وكلّ ما هو محسوس.

(2) أبو القاسم حاج حمد، محمد، تشريعات العائلة في الإسلام، دار الساقي، ط1، 2011م، ص113، (بتصرف).

(3) غارودي، روجيه، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار النفائس، ط1، 1990م، ص9.

(4) إبستمولوجية العلوم الكونية، (م.س)، ص210.

والعالمية، ومن حيث المخاطبين والكونية، ومن حيث الانفتاح على الكون والإنسان، وغير ذلك من الخصوصيات المنهجية.

فهذه الخصوصيات المنهجية، التي يتّصف بها القرآن، تجعل منه كتاباً مصدقاً ومهيمناً على ما سبقه من الكتاب، وقد سبق أن عملنا على تجلية مدلول مفردة «مصدقاً» ومفردة «مهيمناً» من خلال السياق الكلي للآيات والسور القرآنية[1]. كما بيّنّا كون منهج التصديق والهيمنة لا يعني الإلغاء أو النفي، فهو يعني، من بين ما يعني، التقويم، والبناء، والاسترجاع النقدي لما تضمّه تلك الكتب، وذلك بإقرار الصالح منها بالسكوت عنه، أو بالثناء عليه، وتغيير الطالح منها بالحديث عنه، وكشف مساوئه. فـ: «الإسلام لم يقمْ من أجل نفي الماضي والقطيعة معه؛ بل قام من أجل التصحيح، من أجل ردّ الناس إلى دين إبراهيم»[2].

وتتمّ الهيمنة والتصديق في القرآن الكريم في اتجاهات متعددة هي اتجاهات كلّها تجاوزية، ومتحركة، وغير ثابتة، بقصد الحفاظ على كلّ القوة، التي تستبطنها كلّ الحقائق، التي عرضها القرآن الكريم بشكل يحضر معه التوسع والغنى في المعنى والدلالة، وننبه، هنا، إلى كون منهج التصديق والهيمنة منهجاً عاماً وشاملاً يمتدّ إلى مجمل الأفكار، والمعارف الكونية[3].

وقد حدّد الدكتور أحمد عبادي سبعة شروط لمنهج التصديق والهيمنة، هي:

- شرط الاعتقاد، الذي يجعل من الباحث يرى كون القرآن الكريم كلام الله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:

(1) انظر: المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول من البحث الذي نحن بصدده.

(2) عابد الجابري، محمد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط11، ص50.

(3) الوحي والإنسان، (م.س)، ص55، (بتصرف).

42]. وتتوافر له، وفقاً لهذا الشرط، مجموعة من المنطلقات التصورية، التي تلزمه بالجدية القصوى، وهو يبحث في القرآن الكريم.

- شرط النظر إلى القرآن الكريم باعتباره بناءً، وذلك باستحضار التعاطي مع القرآن الكريم وفقاً لوحدته البنائية، وهذا الشرط تترتّب عليه الوقاية من الفهم التجزيئي لسور وآيات القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحِجر: 91].

- شرط وجوب تتبّع وتجلية معاني المفردات القرآنية وفقاً للسياق الذي يحكمها من داخل البنائية القرآنية.

- شرط الوعي بأنّ المفردات في القرآن الكريم لها ضمائم، ونظائر تلقي بالكثير من الأضواء الإضافية على تحديد وتجلّي مدلولها.

- شرط الوضوح المعرفي في القضايا، التي ينبغي البحث فيها، فالباحث لا ينبغي له أن يدخل إلى القرآن، وهو خالي الذهن في علاقته بالموضوع الذي يبحث فيه؛ إذ عليه أن يتتبع كلّ المعطيات الواقعية والنظرية، التي تتعلق بالموضوع المبحوث فيه، وهو، بهذا، سيكون أكثر استعداداً ليتلقى الإشارات والآيات المتعلقة بذلك الموضوع في القرآن الكريم.

- شرط الارتباط المنهجي بالنماذج المعرفية، والأطر المعرفية المفتوحة، التي تمكّن الباحث من أن يتجاوز ما في ذهنه ممّا عليه تلك النماذج والأطر المعرفية بعد دخوله؛ وحواره مع القرآن الكريم.

- شرط الإنسانية، وذلك بمراعاة انتماء الباحث إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان، والتي تشكّل وحدة، وتعيش معها تحديات مشتركة لا بُدّ من العمل الجماعي المتواصل لرفعها، وهذا يجعل من الباحث كائناً كونياً يتبنى هموم العالمين في امتداداتهم كافةً[1].

(1) الوحي والإنسان، (م.س)، ص60-63، (بتصرف).

إنّ هذه الشروط، التي حددها الدكتور أحمد عبادي لمنهج التصديق والهيمنة، شروط في غاية الأهمية، وذلك كونها تأخذ هذا المنهج إلى سياق التداول الحضاري والمعرفي المعاصر، طمعاً في بناء نسقٍ فكري يتّسم بالإنسانية والانفتاح استجابةً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرَات: 13]، بدل الانغلاق والتمركز حول الذات، الذي عليه الحضارة الغربية الحديثة في علاقتها بالحضارات والشعوب، فالغرب لم يتّجه لدراسة الشرق إلا استجابة لنزعة ذاتية «فأبرز ما قرّرته المركزية الغربية هو قولها بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب، الذي أنضجته عوامل خاصة داخلية، وأثمر عن حضارة غنيّة ومتنوعة، ثمّ التأكيد على أنّ المجتمعات، التي تريد أن تبلغ درجة التقدّم، ليس أمامها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها، التي أخذ بها الغربيون، وليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلّص من خصوصياتها الثقافية»[1].

ولهذا، كرّس المستشرقون الأوائل، أمثال رينان، وغولدتسيهر، جهودهم لضرب الخصوصية الإسلامية، بدءاً بالتشكيك في أسس المرجعية الإسلامية؛ أي مصادر الوحي؛ لأنّ الغرب، منذ القرن الخامس عشر وما تلاه حتى القرن التاسع عشر، «تقدم بمشروع سياسيّ على صعيد العالم، وهو: مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي»[2]. وخطورة هذا المشروع تتجلّى في تسويغ وتبرير الاحتلال الغربي للعالم، كما تتجلّى في تبرير جرائم الحرب، والرأسمالية الاستعمارية، حالاً، وفي القرن الماضي، وما قبله؛ إذ من الصعب أن نعثر على دراسات

---

(1) إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1997م، ص33.

(2) المرجع نفسه، ص33.

وكتابات لمستشرقين تستنكر فظاعة الغرب الاستعماري في صلته بالشرق، وحتى إن حصل ذلك، فقد انفلت أصحابها من قبضة المركزية الغربية، والسؤال المطروح هنا: ما الرؤى الفلسفية والمعرفية التي من وراء هذا التمركز حول الذات بإقصاء الآخر؟

إنّ علاقة السيطرة، التي حكمت الغرب في صلته بالطبيعة، هي نفسها التي انعكست على علاقته بالإنسان والثقافة، ونظرة السيطرة هذه تشكّلت لدى الغرب، بعد انهيار سلّم التصوّر اللاهوتي لديه، «إذ اقترنت الولادة الرمزية للغرب الحديث بشيوع التفكير العقلي (العلمي) داخل إطار منهجي مغاير للإطار الذي أشاعه النموذج اللاهوتي»[1]. وهذا يعني أنّ نظم المعرفة والفلسفة في الغرب، منذ فرانسيس بيكون (القرن السابع عشر) وما تلاه، قد تشكّلت في معزل عن الدين بشكل عام. ولقد فصل الدكتور عبد الله إبراهيم في هذا الموضوع من خلال كتابه (**المركزية الغربية**)؛ إذ بين البعد المركزي للفلسفة والعقلية الغربية، منذ فرانسيس بيكون إلى هيغل، الذي عَدّه من المساهمين، بشكل أكبر «ممّا فعل أيّ فيلسوف غربي حديث، في تعميق صورة التمركز الغربي، القائم على أساس التفاوت بين الغرب الأسمى والأرفع عقلياً وثقافياً ودينياً وعرقياً، والعالم الأدنى والأحط من كلّ ذلك، فصاغ بذلك غرباً يتربّع على هرم البشرية، ويدفع باتجاه تثبيتها في وضع يمكّنه، إلى الأبد، أن يظلّ في القمة»[2]. ولقد خلص إدوارد سعيد إلى أنّ الدراسات الاستشراقية هيمن عليها هاجس التفوّق «الذي يضع الغرب في سلسلة كاملة من العلاقات المحتملة مع الشرق، دون أن يفقده، للحظة واحدة، كونه صاحب اليد العليا»[3]. ونذكّر، هنا، بأهمية ما كتبه عبد

(1) المرجع نفسه، ص57.

(2) المركزية الغربية، (م.س)، ص146.

(3) سعيد، إدوارد، الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط7، 2005م، ص42

الوهاب المسيري تحت عنوان (**فقه التحيز**)، وإبرازه لتحيّز الغرب لذاته في جميع المجالات السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والفنية[1].

ففي تقديرنا أنّ المقومات المعرفية والمنهجية، التي أتينا على بعضٍ منها من داخل القرآن الكريم، أخذاً بمبدأ التصديق والهيمنة، كفيلة بالعمل على ترشيد الفكر الغربي في نظرته إلى ذاته المتمركز حولها، وفي نظرته إلى الطبيعة، التي ينظر إليها بمنطق الاستغلال والاستحواذ، بدل نظرة التسخير والاستخلاف. وفي نظرته، كذلك، إلى موضوع الأخلاق وسؤال القيم، «فعلى الحداثة الغربية، اليوم، أن تنتقد ذاتها، وتخفف من غلوها، فليس كلّ ما أتت به صحيحاً، أو مقبولاً. نقول ذلك، ونحن نفكّر خصوصاً في مسألة الأخلاق... فقد أخذ علماء البيولوجيا يفكّرون في خلق إنسان في المختبر!. فهل يُعقل ذلك؟ ألا يوجد ضابط للعلم؟ ألا توجد ضوابط أخلاقية تتحكّم في مسيرة العلم، أم أنّه يمكن للعلماء أن يفعلوا كلّ شيء؟ ولهذا السبب، أصبح المفكّرون في أوربا يشعرون بالحاجة إلى التحدث عن مكانة الشخص البشري، والرسالة الروحية للكائن الإنساني، والقيم العليا التي تؤسس أخلاق الاقتناع، وأخلاق المسؤولية»[2]. فبعودتنا إلى القرآن الكريم، سنقف عند الإطار المرجعي، الذي يحفظ للإنسان كينونته، من حيث القيم والأخلاق، بمعزل عن المخلوقات الأخرى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسرَاء: 70]. ووجه التكريم، هنا، يكمن في العطاء الكبير، الذي وهبه الله للإنسان، حيث سخّر له ما في البر والبحر، وبهذا سار مفضلاً على غيره من الخلق. فالإنسان إمّا أن حافظ على هذا التفضيل والتكريم، الذي يقتضي الإعمار والإصلاح في الأرض، وإما أن يكون دونه؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ

(1) انظر: المسيري، عبد الوهاب، فقه التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991م.

(2) أركون، محمد، قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، ط4، 2009م، ص168.

ﵟٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَﵞ [الرُّوم: 41]، وقال أيضاً: ﵟوَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَﵞ [الأعراف: 56].

إنّ الأخذ بمبدأ التصديق والهيمنة سيحرّر العقول ممّا رسخ فيها من المقولات والمناهج المشبعة بالفلسفة المادية، التي ترى «الإنسان ككائن طبيعي، وليس مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي، وإنّما هو مستوعب تماماً فيه، ويسقط تماماً في قبضة السيرورة، فتسقط المرجعية الإنسانية، وتصبح الطبيعة/ المادة هي المرجعية الوحيدة النهائية»[1]. وتبقى ثنائية الإنسان والطبيعة، ويمكن، حينئذٍ، تفسير الإنسان كما تفسر الأشياء، كما أنها كفيلة، كذلك، بتحرر العقول مما رسخ فيها من المقولات، التي ترى الإنسان ككائن روحي فحسب (النزعة الرهبة) ينبذ الكون، ولا يتذوق حلاوة العيش، ويفضل العزلة عن الجماعة...

«إنّ الإنسان ليس هو الكون، وفي الوقت ذاته، ليس عدواً له، خلافاً للنزعتين النقيضين: المادية والرهبنة»[2]، فالقرآن -إن تَمَّ حسن التعامل معه- كفيل بتقديم بدائل تجاوزية لكلّ هذه الأفكار وغيرها، يحضر فيها فهم الإنسان كائناً مستخلفاً في الأرض، والخلافة في الأرض ليست شيئاً آخر غير الإصلاح فيها بدل الإفساد، وسفك الدماء، بمنطق الأفضلية والخيرية، التي لا تصدق إلا على العمل الصالح.

المبحث الثالث

صورة الكتب السماوية في القرآن الكريم

وجدنا أنفسنا، من خلال هذا المبحث المتعلق بصورة الكتب السابقة في

---

(1) المسيري، عبد الوهاب، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق - سورية، ط1، 2002م، ص38.

(2) الوحي والإنسان، (م.س)، ص91.

القرآن الكريم؛ أي الصورة التي رسمها القرآن، من خلال آياته وسوره، وهو يتحدّث عمّا قبله من الكتب، ونحن نتتبّع الآيات والسور، كوننا لسنا في حاجة إلى كثير من التدليل والبرهنة على أنّ القرآن الكريم يؤمن بما قبله من الكتب كلبنات متكاملة يكمل بعضها بعضاً؛ إذ تحمل تلك الكتب، التي سبقته، الرسالة والغاية نفسها، التي يشكّل التوحيد محورها الأساسي، فالدعوة إلى التوحيد، التي جاءت في التوراة، هي الدعوة نفسها التي يتضمنها الإنجيل، وهي الدعوة نفسها التي يتضمّنها القرآن الكريم.

فالقرآن، وهو يتحدث عما قبله من الكتاب، نجده يتحيّز للحق الذي تتضمّنه تلك الكتب، وفي الوقت ذاته، ينفي كلّ التحريفات التي لحقت بها، وهو دعوة إلى الأخذ بما جاء به، ويمكن تحديد موقفه ممّا سبقه من الكتاب في النقاط الآتية؛ إذ سنورد بعضاً من الآيات القرآنية، التي تعبّر عن تلك النقاط:

• **الإيمان بها كقوله تعالى:** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 136]، وفي سورة [آل عمران: 84]، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: 285]. فهذه الآيات تؤكد كون الغاية والمقصد الكلي، الذي بُعث من أجله الرسل والأنبياء، أنه أمر متكامل وموحد، ولا تعارض فيه، ومن ثَمَّ ليس من المعقول التحيّز لنبيّ، أو لرسول دون آخر، أو التمركز حول رسالة رسول دون آخر، وقد خاطب القرآن بني إسرائيل بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ [البَقَرَة: 41].

• **تصديقها وتوكيدها، كما في قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101]، وفي أوّل سورة [آل عمران: 1-3]: ﴿الٓمٓ ﴿1﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿2﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

• **الهيمنة عليها، كما في قوله تعالى:** ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

• **كشف التحريفات، كما في قوله تعالى:** ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 13]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: 15]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النّساء: 171].

فدعوة القرآن الكريم إلى الاحتكام إلى ما جاء به تجد مصداقيتها بوصفها دعوة توحيدية خالصة «تنزع الألوهية والربوبية عن غير الله، وتساوي بين البشر في شكل مطلق أمام الله، وهي -والحال كذلك- تفرض أن يكون أهل الكتاب أقرب الناس إلى إدراكها كدعوة صادقة لهذا الكتاب»[1]، ولاسيما أنّهم يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 20]. وتجدر الإشارة، هنا، إلى أن قضية الدعوة للاحتكام إلى كتاب القرآن الكريم، بوصفها عملية تفكيك وتفنيد للانحرافات، التي لحقت التوراة، والإنجيل، بفعل التزوير الذي مارسه أهل الكتاب، تُعد تمييزاً للخطاب القرآني عن غيره من الكتب، بوصفه نموذجَ تفكير جديد متّصل ومنفصل، في الوقت ذاته، بالنموذج الكتابي لأهل الكتاب[2].

---

(1) الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم، (م.س)، ص185.
(2) المرجع نفسه، ص185، (بتصرف).

إلا أنّ بعضاً من المستشرقين يرون أنّ ما يضمّه القرآن قد سبقته إليه الكتب السابقة عليه، وبهذا يسقطون عليه الدور المنوط به، وهو الاحتكام إليه في فهم ما نزل من الكتاب قبله، ونورد، في هذا الصدد، الأقوال الآتية:

يقول غولدتسيهر (ت1921م)، مبرزاً صلة القرآن بغيره من الآثار الدينية، «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية، والمسيحية، وغيرها، التي تأثر بها»[1].

يقول المستشرق تور أندريه (ت 1947م): «لا شك في أنّ الأصول الكبرى للإسلام مستقاه من الديانتين اليهودية والمسيحية، وهذه حقيقة لا يحتاج إثباتها إلى جهد كبير»[2]. ويقول المستشرق بروكلمان (ت 1956م): «ليس من شك في أنّ معرفته؛ أي الرسول ﷺ، بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود، وحافلة بالأخطاء، وقد يكون مديناً ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية، التي يحفل بها القصص التلمودي، ولكنّه مدين بذلك ديناً أكبر للمعلمين المسيحيين، الذين عرفوا بإنجيل الطفولة، وبحديث أهل الكهف السبعة، وحديث الإسكندر، وغيره من الموضوعات التي تتوافر في كتب العصر الوسيط»[3].

ونتوقف، هنا، عند كتاب (**تاريخ القرآن**) لصاحبه تيودور نولدكه (ت 1930م)، وهو من بين أهم الكتب، التي تنتمي إلى حقل الدراسات الاستشرافية حول القرآن الكريم، كما هو مبين في مقدمة الكتاب. القارئ للكتاب سيلاحظ أنّ المؤلف لم يكلّف نفسه عناء البحث في علاقة القرآن

---

(1) جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، دار الكتب الحديثة، مصر، ط2، 1959م، ص12.

(2) نقلاً عن: عامر، محمد أمين، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل، الأردن، ط1، 2004م، ص208.

(3) المرجع نفسه، ص209.

بالكتب التي سبقته؛ إذ خصّص لهذا الغرض صفحتين وبضعة أسطر فقط، تحت عنوان: القرآن المحمدي في علاقته بالكتب المقدسة (المسيحية واليهودية). وخلاصة ما جاء فيها قوله: «إنّ اطلاع محمد على اليهودية والمسيحية كان جيداً إلى الحدّ الذي كان ممكناً في عصره في مكّة. وقد اعتمد على هذين الدينين إلى درجة أنّه نادراً ما توجد فكرة دينية في القرآن ليست مأخوذة عنهما. وكان يعلم أنّ للدينين كتباً مقدّسة، فدعا أتباعهما -أهل الكتاب- ما عدى ذلك، كانت تصوّراته حول السياقات التاريخية في منتهى الغرابة. فقد توهّم أنّ اليهود والمسيحيين تلقوا من الله الوحي نفسه الذي تلقاه هو، لكنهم حرفوه؛ لهذا اعتقد بأنّ الله اختاره هو، النبي العربي، ليقرأ نصّ الوحي القديم مرةً أخرى عن الألواح السماوية»[1].

ما يتضمّنه قول تيودور نولدكه لا يختلف، في شيء، عن ما قال به المستشرق غولدتسيهر وغيره من المستشرقين؛ الأمر الذي في منتهى الغرابة هو أن يُرجع تيودور نولدكه علاقة القرآن بما سبقه من الكتب السماوية إلى اطلاع محمد الجيد على ما في تلك الكتب، وهذا يعني، في تقديره، أنّ القرآن مأخوذ عن ما قبله من الكتب من لدن محمد ﷺ، مع العلم بأنّه ينفي أنّ القرآن أدى دور تصحيح ما حُرِّف في الكتب التي سبقته.

وبهذا يحقّ لنا القول: إنّ صاحب **(تاريخ القرآن)** كان مقصراً أكبر تقصير من حيث البحث في ماهية القرآن في علاقته بما قبله من الكتاب... وأقلّ ما نقول عنه: إنّه بعيد عن العلمية والموضوعية؛ إذ كان من الأَوْلى أن يعقد مقارنة علمية بين ما جاء في القرآن الكريم حول القصص النبوي وغيره، وبين ما يضمّه العهد القديم حول الموضوعات نفسها، ليخلص إلى ما يتميّز به القرآن، ويتفرّد به عن غيره في معالجته لتلك الموضوعات.

---

(1) نولدكه، تيودور، تاريخ القرآن، تعديل فريدريش شفالي، ترجمة جورج تامر، منشورات الجمل، بغداد - العراق، (د.ط)، 2008م، ص343.

في تقديرنا، إن هذه الأقوال، التي أتينا على ذكرها، وغيرها، ناتج عن عدم الوعي بالخصوصيات المنهجية، التي اختصّ بها القرآن عن غيره من الكتاب، فضلاً عن أنّ أصحابها لم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في طبيعة العلاقة القائمة ما بين القرآن وما سبقه من الكتاب.

* * *

الفصل الثالث
القرآن والاسترجاع النقدي لما قبله

المبحث الأول
بيان آليات تحريف ما سبق من الكتاب

في هذا المبحث، سنعرض مجمل الآليات التي استحضرها القرآن الكريم، وهو يتحدّث عمّا تمّ تحريفه وتبديله في ما سبقه من الكتب، وسنتوقّف عند مدلول التلاوة، الذي قال به القرآن، ودعا أهل الكتاب إلى الأخذ به، كما سنتوقّف، كذلك، عند تحريف الكلام عن مواضعه، ومن بعد مواضعه، وسنتوقّف عند مفهوم الدسّ، والإخفاء، والكتابة باليد.

التلاوة «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها»:

ورد استعمال الجذر (تلو) في القرآن أربعاً وستين مرّة، (واقترنت التلاوة بالكتاب، والقرآن، والآيات، والأنباء. وقد فسّرت كتب الأشباه والنظائر التلاوة في القرآن على خمسة أوجه، هي: القراءة ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 113]؛ ﴿يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فَاطِر: 29]، والاتباع: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشّمس: 2]، والإنزال: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: 3]، والعمل: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: 121] والرواية: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ [البَقَرَة: 102])[1].

---

(1) المستويات القرآنية لمنهج التعامل مع النص القرآني، مجلة الإحياء، العدد 28، (م.س).

ومن خلال التمعّن في السياقات، التي وردت، من خلالها، مفردة «التلاوة» اتّضح أنّ هذا اللفظ يفيد التتابع، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشّمس: 1-2]؛ فهذه الآية تفيد التتابع الحاصل بين مظهر شروق الشمس، ومظهر ضحى الشمس، ومظهر غروبها، وبعده مظهر القمر ليلاً. ومن البديهي أنّ هذا التوالي يعقبه التفاوت الحاصل في درجة النور المنبعث من الشمس، ومن البديهي، كذلك، أنّ اليوم الواحد تتوالى فيه مستويات درجات النور بدءاً من شروق الشمس حتى غروبها وزوالها ليلاً؛ فاليوم الواحد يشتمل على طبيعة التوالي الحاصل ما بين الظواهر الكونية، ولا أحد له القدرة على تغيير هذا التوالي الذي عليه الظواهر الطبيعية. والقاعدة التي نستشفها هنا من مدلول التلاوة هي أن كلّ شيء له علاقة وارتباط بما قبله، وبما بعده. فالفهم المكتمل لظاهرة من ظواهر الطبيعة ينبغي أن يحصل فيه الربط بين مختلف مكونات الظاهرة، وفقاً للتتابع والتوالي الحاصلين بين مكوّناتها، وهذا الأمر ينطبق، بشكل محوري، على موضوع كتاب معيّن، أو نص رسالة معيّنة؛ إذ لا يمكن فهم موضوع كتاب ما إلا من خلال قراءة نصوصه وفقراته بشكل متتالٍ ومتتابع، وهذا التوالي والتتابع لا يقبل الحذف، أو الانتقاء، وإلا أثّر ذلك في موضوع الكتاب ورسالته.

تبعاً لما سبق، أخبرنا القرآن الكريم بكون اليهود من أهل الكتاب لم يعملوا على تلاوة التوراة حقّ تلاوته؛ أي قراءته بشكل متتابع دون حذف، أو تبديل، أو تحريف للكلم عن مواضعه، فبتحريفهم وبتبديلهم سقطت التلاوة، وقد خاطبهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 93]. ونظراً إلى إسقاط عنصر التلاوة للتوراة من لدن أهل الكتاب، أمر الرسول أن يتلو عليهم الكثير ممّا جاءه من قصص الأنبياء، الذي أسقطوا تلاوته، وكذلك يتلوه على الأميين، الذين بُعث فيهم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المَائدة: 27].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27].

وقد استنكر القرآن الكريم تلك التلاوة الباطلة، التي كان عليها أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 44]. وذكّر الله ببعض منهم قائمين على الحق؛ قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عِمرَان: 113]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة: 121].

إنّ الأخذ بعنصر التلاوة في الفهم والتدبر في قراءة القرآن الكريم، في علاقته بما قبله من الكتاب، وفي علاقته، كذلك، بالكون والإنسان، يُعدّ آلية من الآليات المحورية، التي تجعلنا قادرين على تتبّع مدارات المفردات، والكلمات، والسور القرآنية، وذلك بالوقوف عند مواطن تصديق القرآن وهيمنته على ما قبله، فالرسول الكريم تلا ما جاءه من ربه، وورثنا التلاوة عنه، وهي تلاوة القرآن، الذي ندرك، من خلاله، أوامر الله ونواهيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿91﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿92﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمل: 91-93].

تحريف الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه (موضع الكلمات، وموضع الموضوع؛ أي السياق):

تحريف الكلم عن مواضعه، وتحريفه من بعد مواضعه، وذلك كون الكلام، بصفة عامة، يكون منضبطاً لموضع الكلمات وللسياق، الذي يحكم موضعها، كما يكون منضبطاً، كذلك، للموضوع الذي يعالجه؛ إذ لا يمكن إدخال خصوصيّات تخصّ موضوعاً معيّناً في موضوع آخر مخالف، فقبل أن

نعرض للسياق، الذي ورد من خلاله «تحريف الكلم عن مواضعه وتحريفه من بعد مواضعه» في القرآن الكريم، سنتطرّق إلى بيان أهمية السياق نظرية وآلية في القراءة، والفهم، والتحليل.

فكلمة السياق جاءت من الجذر اللغوي (سَ و قَ)، وهو مصدر: سَاقَ يَسُوقُ سَوْقَاً وسِيَاقَاً. «ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً، وهو سائق وسواق... وساق إليها الصداق والمهر سياقاً، وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما. وساق فلان من امرأته؛ أي أعطاها مهرها»[1]؛ فمعناها اللغوي يشير إلى دلالة الحدث، وهو التتابع. وقد انْسَاقَت، وتَسَاوقَت الإبل تَسَاوقَاً؛ إذا تتابعت[2]. كما تأتي دالة على لحوق شيء بشيء آخر، واتصاله، واقتفاء أثره[3]. ومن المعلوم أنّ الأصوليين (نسبة إلى علم أصول الفقه) قد اهتموا كثيراً بموضوع السياق، وعوّلوا عليه في فهم استعمالات كثيرة لم تشهد لها قرائن لغوية، وكانوا، في مؤلفاتهم، غالباً، يستعملون ألفاظاً تدلّ على السياق، مثل: «الوضع» و«المواضع» و«المساق» و«الاتساق» و«سوق الكلام» و«مقتضى الحال»[4].

وقد حظي مصطلح السياق في الدراسات اللغوية الحديثة بتعريف علميّ دقيق ينسجم ومفهومه في الدرس اللساني والتداولي الحديث، ويمكن تحديده

---

(1) ابن منظور الأفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج10، ص166.

(2) قائد، نشوان عبده خالد، السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، مجلة إسلامية المعرفة، إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 73.

(3) ولد عبدي، محمد، السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، دار نينوى، سورية، دمشق، ط1، 2009م، ص11.

(4) انظر: أعمال الندوة الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء: السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2007م.

في بعده المنهجي بكونه «بناءً نصياً كاملاً من فقرات مترابطة، في علاقته بأيّ جزء من أجزائه، أو تلك الأجزاء التي تسبق، أو تتلو، مباشرةً، فقرة أو كلمة معينة. ودائماً ما يكون السياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط؛ حيث يلقي الضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب؛ بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها»[1]. وبناءً على هذا التعريف، يمكننا القول: إنّ السياق يفيد جوهر المعنى المقصود في أيّ بناء نصيّ، أو كلاميّ، فهو لا يلقي الضوء على الكلمة والجملة فحسب، وإنما على النص المكتوب والكلام بشكل مجمل، من خلال علاقة المفردات بعضها ببعض في أيّ سياق من السياقات المختلفة، ومن ثَمَّ، الكلمة تأخذ معناها من خلال الدور الذي تؤدّيه داخل النص بأكمله.

ويطلق السياق في الغالب على أمرين:

- السياق الخطابي (الكلامي)، وهذا المفهوم هو الأكثر شيوعاً في البحث المعاصر، فهو الجواب البديهي لسؤال: ما السياق؟ ويُقصد به تلك الوحدات الصوتية والمعجمية، التي تسبق أو تلحق الملفوظ، وما يقوم بينهما من ترتيب وعلاقات تركيبية.
- السياق المقامي، ويعني مجمل الظروف المترابطة، التي يندرج فيها حدث معين[2].

«فكلّ معرفة تعتمد على معطيات أو معلومات معزولة تظلّ ناقصة. يجب موضعة المعارف والمعطيات داخل سياقها، لكي يكون لها معنى، فكلّ كلمة تحتاج، لكي يكون لها معنى، إلى النص الذي هو سياقها الخاص، ويحتاج النص إلى سياق حتى يكون بالإمكان إنتاجه، فكلمة حبّ، مثلاً، يتغير معناها بحسب إذا كنّا في سياق ديني، أو سياق دنيوي، ولكن يكون

---

(1) فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية، تونس، ط1، 1989م، ص201.
(2) السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، (م.س)، ص12.

الاعتراف بالحب نفس المعنى، بحسب ما إذا كان من يتلفظ به هو من يمارس الغواية، أو من يتعرض لها»[1].

فمن بين ما يترتّب منهجياً في مراعاة الأخذ بالسياق، فهم وإدراك البعد الشمولي في العلاقات الحاصلة بين الكلّ والأجزاء المشكلة له «فالكلّ يشتمل على خصائص لا نجدها في الأجزاء المعزولة. كان مارسيل موس يقول: (يجب إعادة تشكيل الكل). يجب، بالفعل، إعادة تشكيل الكل للتمكّن من معرفة الأجزاء»[2]. وقد سبقت الإشارة إلى كوننا، في ما سبق، قد تحدثنا عن ضرورة استحضار الرؤية الكلية للقرآن الكريم.

تبعاً لما سبق، نخلص إلى القول: إنّ القراءة، التي تأخذ بالسياق، هي القراءة التي تخرج من الفهم المجزّأ، الذي يتصف بعزل مكونات المعرفة بعضها عن بعض إلى الفهم المركب بين كلّ الأجزاء والعناصر المشكلة للمعنى وللمعرفة، التي يقتضيها السياق اللغوي، أو التاريخي، أو الاجتماعي... لنصّ معين. كما أنّ التلاوة، التي تفيد التتابع، كما بينّا في الفقرة السابقة، تعدّ من بين الآليات، التي يُعتمد عليها في الأخذ بالسياق في الفهم والتحليل.

بعد هذا التقريب المنهجي لموضوع السياق، نعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده، وهو «تحريف الكلم عن مواضعه، وتحريفه من بعد مواضعه»؛ إذ، هذا الموضوع، في نظرنا، يلتقي في صلبه مع موضوع السياق، فعملية تحريف كلام الله عن مواضعه، ومن بعد مواضعه من لدن أهل الكتاب، كما أخبرنا القرآن الكريم، ما هي إلا عملية قراءة لنصوص الكتاب بمعزل عن السياق، الذي وردت من خلاله، سواء تعلّق الأمر بتحريف الكلمات والمفردات عن السياق اللغوي، الذي وردت من خلاله في الكتاب، الذي

(1) تربية المستقبل، (م.س)، ص36.
(2) المرجع نفسه، ص36.

آتاه الله لموسى (كتاب التوراة)، وهذا ما تدلّ عليه الآية (41) من سورة المائدة ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾؛ أم تعلق الأمر بتحريف الموضوع بأكمله بإخراجه من السياق، الذي ورد من خلاله، بربطه بموضوع آخر لا علاقته له به، وهذا ما تدل عليه الآية (46) من سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وكذلك الآية (13) من سورة المائدة: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

والقرآن الكريم، عندما يفتح أعيننا على هذا الأمر الخطير، «المتعلق بتحريف كلام الله عن مواضعه، ومن بعد مواضعه»؛ أي قراءة مفردات كلام الله (التوراة والإنجيل) بمعزل عن السياق اللغوي، الذي يتركب منه النص، أو قراءة الموضوعات والقضايا، التي عالجها كلام الله، بمعزل عن السياق الذي جاءت فيه، ووردت من خلاله؛ يكشف لنا، في الوقت ذاته، عن الآليات التي تمّ توظيفها في هذه العملية. ومن بين هذه الآليات تغييب العقل، النسيان، الإخفاء، الكذب.

تغييب العقل:

يستبعد القرآن الكريم أن تكون عملية التحريف هذه صادرة عن السهو غير المتعمد، الذي يمكن أن يقع فيه أيّ إنسان دون قصد. ويربط الموضوع بالنية والقصد المتعمد، الذي يحضر معه الإعراض عما يقول به العقل في فهم نص ما، وهذا ما تدل عليه الآية (75) من سورة البقرة ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فعملية تحريف كلام الله تأتي من بعد الإدراك العقلي لموضع وسياق المفردات والموضوعات.

النسيان:

كما أنّ عملية التحريف هذه، التي نحن بصدد الحديث عنها، ترتبط، بشكل محوري، بالنسيان المتعمد والمقصود من طرف أهل الكتاب للحظ الذي ذكروا به. وقد ورد في حقّ النصارى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المَائدة: 14]. وورد في حق اليهود قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المَائدة: 13]، وقد سبق أن بينا معنى ومفهوم مفردة الذكر في القرآن الكريم.

الإخفاء:

وترتبط هذه القضية، كذلك، بعملية الإخفاء؛ أي التستر على الحقيقة، أو على بعضٍ منها. والذي يقابل لفظ الإخفاء هو الإظهار والظهور. وفي هذا السياق، جاء في حق اليهود من أهل الكتاب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المَائدة: 15].

الكتمان:

فعدم التصريح بالحقيقة يعني كتمانها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عِمرَان: 71]. وقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عِمران: 187].

الكذب:

عندما نقول أقوالاً، وندّعي وقوع وقائع وأحداث، وهي مخالفة للواقع، فذلك يعني الكذب. قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمران: 75].

وقال أيضاً: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عِمران: 94].

وقال كذلك: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء: 50].

وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصَّف: 7-8].

وقال أيضاً: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البَقَرَة: 79].

من بين ما توقّفنا عنده، ونحن نتتبع موضوع «تحريف الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه»، من خلال الآية (46) من سورة النساء وغيرها. كون القرآن يربطه هذا الموضوع، وما يترتب عنه، بفعل الرعاية، وهو فعل منهيّ عنه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 104]. والفعل المقابل للرعاية من

داخل القرآن الكريم هو فعل النظر[1]، الذي حثّ عليه، ودعا إليه القرآن بدليل هذه الآية وغيرها.

فمع النظر يحضر استعمال وتفعيل ملكة السمع، والبصر، والفؤاد، وهي الآليات المسؤولة عن العلم؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، ومع الرعاية يحضر تقليد واتّباع ما كان عليه الآباء، على الرغم من عدم صحته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

ومفردة الرعاية، التي نحن بصدد الحديث حولها[2]، جاءت مقترنة بالأنعام في الآية (54) من سورة طه، وهي ترعى في المرعى، في سياق التذكير بنعم الله التي أخرجها لعباده؛ قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾. وجاء في سورة [الأعلى: 1-4] قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿1﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿2﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿3﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾؛ فالأنعام لا يمكن لها، بأيّ حال من الأحوال، أن ترتقي لفعل النظر، فوضعها محصور في الأكل والشرب، ويتولى الإنسان رعايتها بحريّة التصرف في مصيرها؛ ولهذا نجد القرآن الكريم يصف الذين يغيّبون السمع والبصر بكونهم كالأنعام، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]. ولله -جل وعلا- لا يرضى لعباده أن يعرضوا عن استعمال العقل والنظر، ويستبدلوه بفعل الرعاية، الذي يحطّ من مكانتهم، ومن الرقي الروحي والعقلي الذي ينبغي أن يكونوا عليه.

---

(1) انظر: البحث الذي نحن بصدده، المبحث الثاني، من الباب الأول، فقرة: منهجية القرآن المعرفية.

(2) تناول أبو القاسم حاج حمد هذا الموضوع في سياق منهجي، بعنوان: ضوابط الاستخدام المنهجي النبوي للغة. انظر: العالمية الإسلامية الثانية، (م.س)، ج1، ص69.

إنّ هذه الآليات، التي عرضها القرآن، في معرض تذكيره بما قام به اليهود والنصارى في حقّ ما جاءهم من الكتاب، كافية لنسف أيّ نسق يتعلّق بأيّ نصوص ومفردات؛ أيّ كتاب كيفما كانت طبيعته. فبالإعراض عن العقل، ودوره في القراءة والفهم والتحليل، وبالنسيان والتجاهل للحقائق بإخفائها واستبدالها بغيرها كذباً وزوراً يفقد الكتاب المقصد والغاية والرسالة، التي جاء من أجلها، وتحلّ الأهواء محلّ الغايات والمقاصد الكبرى، سواء كانت أهواء أفراد بعينهم أم أهواء جماعات معينة لا تؤمن إلا بمصلحتها الذاتية، ولو كان ذلك على حساب القيم والأخلاق العليا التي جاء بها الكتاب.

وهذا، بالضبط، ما قامت به مجموعة جماعات من أهل الكتاب، وهي، في هذا، بحاجة إلى مشروعية الكتاب مصدر الهداية، والخير، والنور. وحتى يتحقّق لها ذلك تقوم بإخضاع الكتاب لأهوائها بالعمل على تحريفه، وتبديله. وقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ هناك جماعات أخرى من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كانت متحيّزة إلى الحق، والنور، والهدى، الذي جاء به الكتاب، ونستشف هذا المعطى من قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿113﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمرَان: 113-114].

إنّ القرآن، وهو يعرض هذا التخطيط المنهجي لعملية «تحريف الكلم عن مواضعه، ومن بعد مواضعه»، يعيد، في الوقت ذاته، بناء الكلام الإلهي وفق مواضعه التي حرف عنها في الكتب السابقة. والجدير بالذكر، هنا، أننا مطالبون بقراءة القرآن قراءة تستحضر مدلول موضع المفردات والآيات والسور من خلال سياقاتها.

كما أنّ موروثنا الثقافي ينبغي قراءته وفق الموضع التاريخي والمعرفي، الذي كان من وراء تشكّله وتكوّنه، فالعلوم، عادة، تتشكل وفق متطلبات

واحتياجات الناس، كما أنّ تصوّراتهم عن الحياة، والله، والوجود، يحكمها موضع الزمن الذي عاشوا فيه، وظروفهم الاجتماعية، وقدراتهم المعرفية، وغير ذلك.

المبحث الثاني

علاقة القرآن بالكتب السماوية في الفكر العربي المعاصر

بعد أن تطرقنا، في المباحث والفصول السالفة، إلى بيان ما قال به المفسرون حول موضوع التصديق والهيمنة، وبعد أن تتبّعنا الآليات، التي اعتمدها المبطلون من أهل الكتاب في تحريف كتبهم، والتي جاء القرآن على ذكرها، فضلاً عن كوننا قد بيّنّا في ما سبق من هذا البحث ما يتفرّد به القرآن عن غيره من الكتب السماوية، سنعرض، من خلال هذا المبحث، لوجهة نظر الفكر العربي المعاصر حول علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية. ومن البديهي جداً أننا لا نتمكّن من عرض كلّ وجهات نظر الذين كتبوا في الفكر العربي المعاصر، ولكن سنكتفي بعرض ثلاثة نماذج مشهورة هم: محمد أركون، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد عابد الجابري.

محمد أركون:

محمد أركون مفكر جزائري معروف؛ له مجموعة كبيرة من الكتب والدراسات، التي تُعنى بسؤال الفكر، والمنهج، والمعرفة في مجال التداول الإسلامي والغربي. دعا، من خلال كتبه، إلى ما سماه الإسلاميات التطبيقية، وهي، في نظره، عمل يهدف إلى تعرية صورة الإسلام كما هو في الماضي، بالوقوف عند الظروف التاريخية، والاجتماعية، والثقافية الممتدة في الحاضر، في أفق بلورة صورة جديدة عن الإسلام في الوقت الحاضر، وذلك بتوظيف مناهج العلوم الإنسانية الحديثة من بينها الأنتربولوجيا التاريخية، واللسانيات، وأدوات قراءة التاريخ في دراسة الأديان والنصوص الدينية... إلا أنّ المتتبع والقارئ لكتب محمد أركون سيجد أنّه بقي حبيس الدعوة إلى

توظيف هذه المناهج واستثمارها، أكثر مما انكب على تقديم نماذج تطبيقية لما كان يدعو إليه.

لمحمد أركون وجهة نظر حول العلاقة، التي تربط القرآن الكريم بالكتب المقدسة، ولهذا هو يجيب، من خلال مقابلة له مع هاشم صالح، تحت عنوان فرعيّ مفاده: (علاقة القرآن بالكتب السابقة عليه)، عن سؤال مفاده: ما الذي أخذه الإسلام عن الأديان السابقة، ولاسيما اليهودية والمسيحية؟ بالقول: «بما أنّ القرآن ظهر بعد التوراة والإنجيل من الناحية الزمنية، فإنّه يهضم هاتين اللحظتين من الوحي، ويقدّم نفسه على أساس أنّه آخر حلقة من تجليات الكتاب السماوي بين البشر؛ أي الوحي الإلهي. في المقابل، نلاحظ أنّ اليهود والمسيحيين، الذين كانوا موجودين في يثرب (المدينة)، عندما هاجر النبي إليها، رفضوا أن يعترفوا بنبوة محمد ﷺ، وهذا ما يفسر لنا سبب القطيعة والمشاكل، التي حصلت بين الطرفين في نهاية الفترة المدنية، حيث حصل الاصطدام المسلح...»[1]. وبعد هذه الإجابة، تطرق أركون، كعادته، إلى أمور وقضايا أخرى ليست في صلب الموضوع.

فمن البيّن والواضح أنّ أركون، من خلال كلامه هذا، وغيره، لا ينظر إلى القرآن كونه يتميّز عن غيره من الكتب بخاصيّة التصديق والهيمنة؛ بل اكتفى بأن يعترف له بأنّه يهضم ما قبله. والمشكلة المنهجية، هنا، التي تخطاها أركون: أَهذا الهضم، الذي كان عليه القرآن الكريم، في علاقته بما قبله، هضمٌ يتّصف بالنقل والتكرار أم هضمٌ يتصف بالاسترجاع النقدي لما تمّ تحريفه وتبديله في الكتب السابقة؟ وهذا أمر لم يقل به محمد أركون، ولم يقرّر فيه؛ فالمقارنة بين الكتب المقدّسة، بما فيها القرآن، في نظره، لا ينبغي أن يترتب عليها تميز كتاب عن آخر يقول في هذا الشأن: «لا ريب أنه من

(1) أركون، محمد، الهوامل والشوامل، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2010م، ص228.

المفيد جداً أن نقارن بين نص القرآن، ونصي الإنجيل والتوراة، لكي نكشف التشابهات والاختلافات. ولكن لا ينبغي أن ننظر إلى القرآن من خلال التأثيرات السابقة عليه فحسب. وإنّما ينبغي أن ننظر إليه من خلال خصوصيته وإبداعيته الذاتية. فالواقع أنّ من يعدّونه مجرّد نسخة متأثرة بما سبقه من كتب دينية توحيدية، أو سواها، يريدون، في نهاية المطاف، التقليل من إبداعيّته، وابتكاريته، وأصالته»[1]. نتساءل، إذاً، ما الفائدة من المقارنة بين الكتب المقدسة إن لم يترتب على تلك المقارنة تميّز ورفعة كتاب عن آخر؟ وإلا فستبقى مقارنة من أجل المقارنة دون غاية، ولا هدف. والغريب في الأمر أنّ أركون يعترف للقرآن بتميز إبداعيته وأصالته، ولكن تميّزه هذا، في نظره، لا يشفع له أن يكون مهيمناً ومصدقاً لما قبله من الكتاب.

إن الأمر، الذي جعل محمد أركون -في تقديرنا- يعرض عن الحديث عن منهج التصديق والهيمنة، كما جاء في القرآن، وعن غضّ الطرف عن الآيات، التي تكشف حقيقة ما قام به أهل الكتاب من تحريف ما جاءهم من عند الله، هو كونه يعتقد بوجود «متخيل ديني مشترك لدى أديان أهل الكتاب كلها»[2]. وهذه عين المشكلة، ولا سيما أننا نتحدّث هنا عن الوحي، وعن النصوص المؤسسة للديانات السماوية الثلاث (القرآن، والتوراة، والإنجيل). ويرى أركون أن هذا المتخيّل، الذي تشترك فيه كلّ المجتمعات، التي عرفت ظاهرة الوحي، غير معروف من قبل المؤرخين وعلماء الأنتربولوجيا[3].

وبهذا، لا يعترف محمد أركون للقرآن بخصوصية الاسترجاع النقدي على ما قبله، وليس من الغريب أن نجده ينظر إلى نصوص القرآن الكريم النظرة نفسها، التي ينظر بها إلى النصوص الدينية الأخرى، وهذا، في

(1) المرجع نفسه، ص224.
(2) أركون، محمد، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1993م، ص144.
(3) المرجع نفسه، ص144.

تقديرنا، فيه قفز وتجاوز للخصوصيات المصاحبة لبنية أيّ نص ديني، من حيث تاريخ تدوينه، ومن حيث نظامه الداخلي، ومن حيث القضايا والموضوعات التي عالجها، ومن التعسف المنهجي أن نسقط خصوصيات الكتاب المقدس على القرآن الكريم.

نصر حامد أبو زيد:

نصر حامد أبو زيد مفكر مصري معروف؛ له عدة كتب ودراسات عُنيت، في مجملها، بقضايا تتعلق بموضوعات علوم القرآن، والتفسير، والتأويل... وظف، في تحليله وفهمه لنصوص التراث، المناهج المتداولة في التراث نفسه، والمناهج الغربية الحديثة والمعاصرة. ويمكن معرفة الموقف الفكري المنهجي لنصر حامد أبو زيد تجاه القرآن الكريم من خلال كتابه (**مفهوم النص**). والنص، من منظور نصر حامد أبو زيد، على العموم، يعني به كلّ نص، سواء كان نصاً دينياً أم نصاً بشرياً. فهو يرى أنّ هذا الأخير؛ أي النص، بوصفه نتاجاً ثقافياً محضاً، وهو لا يميّز، هنا، بين النص القرآني وغيره من النصوص[1].

وقد بذل نصر حامد أبو زيد جهداً كبيراً، من أجل إقناع القارئ بأنّ النص، في حقيقته وجوهره، منتج ثقافي[2]، إلى درجة يستحيل معها الفصل بين ما طرحه النص عن نفسه (أي القرآن)، وبين ما صاغته الثقافة عنه وحوله؛ إذ يتعذّر، في نظره، أن نتحدث عن نصّ مفارق للثقافة والواقع، طالما أنّه نصّ داخل إطار النظام اللغوي للثقافة[3]، فمحاولة البحث في تعريف النص ينبغي لها أن تمرّ عبر اكتشاف العلاقات المركبة لعلاقة النص

(1) أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، 2008م، ص25، (بتصرف).

(2) المرجع نفسه، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص24.

بالثقافة من حيث تشكّله بها. هذا التشكل هو ما يجعل من القول: إنّ النص منتج ثقافي؛ قولاً بديهياً لا يحتاج إلى إثبات.

وهنا، يعترضنا إشكال حول مفهوم الواقع ومكوناته، فهل الواقع، الذي نزل فيه النص، يتشكل مما هو لغويّ فحسب؟ بطبيعة الحال، لا، فالواقع يشتمل على ما هو اجتماعي، وثقافي، واقتصادي... إنّه بنية من النظم تحت سقف معرفيّ معيّن، ولا ندري لماذا اكتفى نصر حامد أبو زيد بالجانب اللغوي المرتبط بما هو ثقافي، على حساب الجوانب الأخرى المشكلة للواقع، الذي ظهر فيه النص، إلى درجة يمكن معها القول: إنّ الواقع، الذي يقصده نصر حامد أبو زيد، ينطبق على ما هو لغوي بدراسة النص في علاقته اللغوية مع الثقافة.

ونتساءل، هنا: هل جاء نص القرآن الكريم من أجل الناس في زمنه فحسب، وفقاً لوعيهم الثقافي، ولا يتجاوز سقفهم المعرفي في شيء؟ ما الجدوى، إذاً، من أي نص لا يأخذ المتلقي إلى وضع أرقى من الوضع الفكري الذي هو عليه؟ أم أنه نص يستهدف جميع الناس بامتداده في الزمان؟ وهذا يفترض في النص أن يكون نصاً متجاوزاً للسقف المعرفي والثقافي الذي ظهر فيه، على الرغم من استجابته وتوظيفه لما عليه الواقع زمن نزوله، وهنا يكون النص محلّ اختبار وتحليل عبر الزمن. إلى أيّ مدى كان منسجماً مع السنن التاريخية والاجتماعية في معالجته لكثير من القضايا، التي يعجّ بها الواقع، الذي نزل فيه، وإلى أيّ مدى كانت قدرة النص على استيعاب تلك القضايا، وتوظيفها توظيفاً مفتوحاً على المستقبل.

وحتى نقارب إشكالية النص والثقافة، لابد، بالضرورة، من أن نميز بين كلام النص عن نفسه من جهة، وبين كلام الثقافة عن النص من جهة ثانية (عكس ما ذهب إليه المفكر المصري نصر حامد أبو زيد)، وذلك حتى نضمن فرز طبيعة التصور الذي يبسطه النص عن نفسه (أي القرآن)، وهذا أمر مهم

جداً؛ إذ يمكّننا من فهم النص من خلال ذاته بمعزل عن غيره، والبيّن أنّه يتعذر أن نفهم ماهية النص إذا نظرنا إليه من داخل الثقافة، التي تتحدث، أحياناً، عنه كما تحدّث عن نفسه، وتتحدث عنه، أحياناً، كما تتصوّره، وهنا يكمن الفرق بين الشيء في ذاته وكما هو، وبين الشيء كما نتصوره، وفقاً لخلفياتنا الثقافية والفكرية. والذي يؤيد قولنا هذا أنّ النص، زمن نزوله، كان يدافع عن تصور ذاتي لنفسه. بينما الواقع والمحيط الثقافي، ولاسيما المخالفين من العرب والمشركين، قد بذل كلّ جهده للتسوية بين القرآن والشعر.

لقد حسم القرآن، بشكل قاطع، كونه يختلف اختلافاً كلياً عن الشعر الحامل للغة العرب، فعلى الرغم من توظيف القرآن والشعر لمفردات اللغة نفسها، لاتنطبق الميزات والقواعد، التي يخضع لها الشعر، على القرآن، وهو الجدال الذي كان زمن نزوله؛ إذ أخضع القرآن من لدن الكثير من الناس للقواعد والتصورات التي يفهمون بها أشعارهم، المنهج الذي حال بينهم وبين فهم ما جاء به القرآن إلى درجة إقرارهم بكون الرسول شاعراً أتى بمثل ما يأتي به الشعراء؛ قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: 5]. قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقّة: 41]. ويمضي القرآن ليفصل، بشكل قطعي، أنه لا ينطبق عليه ما ينطبق على الشعر. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69].

فالقرآن، بهذه الآيات، وغيرها، ينفي عن نفسه أنّه منتوج ثقافيّ محض، كما يعترف، في مواطن عديدة، بكونه قرآناً عربياً؛ قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿1﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿2﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فُصّلَت: 1-3]. هنا، ينبغي أن نميّز بين النص، وهو يتحدث عن نفسه؛ أي العمل على فهم النص من حيث بنيته الداخلية، وبين النص كما تحدّثت عنه

الثقافة. إنّ «القرآن، في كليته، يرسم موقفاً محدداً من الحياة، ونظرة ملموسة إلى العالم، وهو ينادي، كذلك، بأنّ تعاليمه لا تحمل أيّ تناقض داخلي فيما بينها؛ بل هي متماسكة ككل»[1]. والحق يقال، إن النص القرآني لا يمكن حصره في دائرة اللغة والثقافة، وذلك لكونه نصاً مفتوحاً على الكون، وعلى الإنسان، وعلى الزمن، وهذا ما جعل منه نصاً وخطاباً متجاوزاً للثقافة وللذات العربية.

وفي الوقت ذاته، نجد القرآن الكريم، زمن نزوله، قد عرّى ما كان عليه أهل الكتاب في علاقتهم بالأنبياء والرسل، وبالكتب التي تركوا فيهم، وهؤلاء يشكّلون جزءاً مهماً من المحيط الثقافي في المدينة وغيرها. ونتساءل هنا: لماذا تخطّى نصر حامد أبو زيد هذا الجزء المهمّ من المحيط الثقافي زمن نزول القرآن؟ وإلا فإنّه غضّ الطرف عن الحديث عن علاقة القرآن بأهل الكتاب، وبما سبقه من الكتب السماوية.

والقارئ لكتب نصر حامد أبو زيد، ولاسيما كتابه (**مفهوم النص**)، الذي تحدّث فيه عن موضوعات علوم القرآن، ومن بينها: (الناسخ والمنسوخ، الإعجاز، المكي والمدني...)، يلاحظ غياب الحديث عن علاقة القرآن بما قبله. وبهذا يكون نصر حامد أبو زيد قد لجم نفسه عن الحديث، والخوض في موضوع الاسترجاع النقدي، الذي قام به القرآن في علاقته بما سبقه من الكتب، مع العلم بأنه استفاض في الحديث حول التفسير، وعن الاتجاه العقلي فيه.

محمد عابد الجابري:

محمد عابد الجابري مفكّر مغربي معروف، اشتغل على قضايا عدّة أبرزها سؤال المنهج في التعامل مع التراث، وقد أصدر بهذا الخصوص

(1) الإسلام وضرورة التحديث نحو إحداث تغيير في التقاليد الاجتماعية، (م.س)، ص15.

رباعية (**نقد العقل العربي**)، التي انتهىٰ منها سنة 2001م، وبعدها تفرغ لمشروع الكتابة حول القرآن الكريم، فأصدر، سنة 2006م، كتاب (**مدخل إلى القرآن الكريم**)، تلته ثلاثة أجزاء أخرى تحت عنوان: (**فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**). وبهذا، يكون الجابري قد بذل جهداً منهجياً في تحديد العلاقة المنهجية، التي ينبغي أن تكون لنا، اليوم، مع القرآن الكريم.

يقرّ الجابري بالفرق الشاسع الحاصل بين القرآن الكريم وبين الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) من جميع الجوانب، سواء تعلق الأمر بالتدوين أم بالمضامين، والنصوص، وغيرها، فـ: «التوراة لم يكتبها شخص واحد؛ بل ساهم في تأليفها كتاب كثيرون... أما الإنجيل، فهو ليس كتاباً واحداً؛ بل أربعة كتب، على الأقل، تروي ما حصله أصحابها من كلام السيد المسيح وسيرته»[1]، بينما القرآن، على العكس، نص وكتاب واحد، تكفل الله -جل وعلا- بحفظه وصيانته.

ويرى الجابري أنّ «الكتب المنزّلة كلها مصدرها كتاب واحد هي نسخ منه»[2]، وهو يقصد بهذا (اللوح المحفوظ)؛ فكلّ الكتب المنزلة تعود إليه، فهي مأخوذة منه بإجماع المفسرين[3]. وبهذا، يتساوى القرآن مع غيره من حيث المصدر «فالعلاقة بين... القرآن وكتب أهل الكتاب ليست علاقة مطابقة؛ بل هي علاقة مشتركة، جميع الكتب المنزلة متفرّعة عن نسخ أصل هي (أم الكتاب)»[4]. وأم الكتاب، هنا، هو اللوح المحفوظ. أمّا ما يتميز به القرآن عن غيره؛ فالجابري يحدّده بقوله: «لا يتميز القرآن عن حقيقة التوراة

(1) الجابري، محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، تشرين الأول/أكتوبر 2006م، ص21.
(2) المرجع نفسه، ص193.
(3) المرجع نفسه، ص197.
(4) المرجع نفسه، ص197.

والإنجيل، لا بمصدره، ولا بمحتواه، وإنّما يتميز بكونه نزل بلسان عربي مبين»[1]. وبهذا حصر الجابري وجه التميّز والتفرّد للقرآن الكريم في خاصية اللسان العربي، التي جعلته يتصف بالإعجاز، بينما غيره من الكتب لا تتصف بهذه الخاصية. في الوقت الذي نجد القرآن يمتاز عن غيره بكثير من الخاصيات، من بينها عالمية الخطاب، وخاتمية الرسالة، وغيرها.

أما عن تصديق القرآن ما قبله؛ فالجابري يعترف للقرآن بهذه الخاصية، بقوله: «أما مضمون التوراة والإنجيل فالقرآن مصدّق له»[2]؛ ولكن لم يبيّن لنا الجابري الأبعاد المعرفية والمنهجية لتصديق القرآن ما قبله!! بل بقي حديثه محصوراً في التذكير بكون طول العهد على الرسالات السابقة أوقعها في التبديل والتحريف، سواء بالقصد من أهلها، أم بسبب إهمالهم حقيقة الدين، ما يتطلّب بعثة رسول بكتاب جديد يصحّح أمر الدين، ويعود به إلى حقيقته[3].

وإذا كان الأمر على هذه الحال، ما الفائدة، إذاً، من تصديق القرآن ما تضمه تلك الكتب، التي تمّ تبديل أمر الدين فيها؟ أيعني هذا أنّ القرآن مصدّق لها في كلّ شيء، أم أن تصديقه هنا يرتقي إلى مستوى هيمنته على تلك الكتب، وهي خاصية تخص القرآن وحده دون غيره من الكتب؟ هذا هو الأمر المغيب عند الجابري في حديثه عن علاقة القرآن بما قبله من الكتاب. والقارئ لكتاب (**فهم القرآن الحكيم**)، الذي ألفه الجابري، سيجده يعيب على المفسرين، في أكثر من موضع، تأثرهم بالإسرائيليات في فهم القرآن، ويورد النصوص الواردة في العهد القديم، ليكشف عن تأثر المفسرين بها في فهمهم لآيات القرآن الكريم[4].

---

(1) المرجع نفسه، ص194.

(2) المرجع نفسه، ص193.

(3) المرجع نفسه، ص198.

(4) الجابري، محمد عابد، فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الثالث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م، ج3، ص42.

والذي جعل الجابري، في تقديرنا، يُعرض عن القول بكون القرآن يتّصف بالمراجعة النقدية لما قبله من الكتاب، وبأنّ خاصية التصديق والهيمنة خاصية تخص القرآن دون غيره من الكتب التي سبقته، هو كونه لم يتعاطَ مع فهم القرآن من خلال وحدته البنائية؛ بل رهن نفسه بفهم القرآن بترتيب النزول، ما أسقطه في الفهم التجزيئي بدل الكلي لكثير من القضايا المنهجية، وعلى رأسها إغفال بيان أنّ القرآن مصدّق ومهيمن على ما قبله من الكتاب.

خاتمة:

تطرّقنا، من خلال هذا الباب، إلى تجلية دلالة المفردات على ضوء البنائية القرآنية، التي لها علاقة بموضوع البحث، الذي نحن بصدده، كما بيّنّا ما يتّصف به القرآن الكريم من خصوصيات منهجية، منها أنّه نصّ يشكّل وحدة بنائية، حيث يعود آخره على أوله في فهم موضوعاته، وما جاء به وفقاً للرؤية الكلية، التي يمتلكها للعالم والإنسان، كما أنّه خطاب يعني الناس جميعاً، فضلاً عن كونه خطاباً مفتوحاً على الكون وحركته؛ ولهذا ينبغي على الدارسين والباحثين في مجالات حقول المعرفة أن يتعاملوا مع القرآن الكريم باستحضار هذه النقاط المنهجية بدل إغفالها.

لقد اشتغلنا، في هذا الباب، على ما هو نظري، ممهدين القول فيه منهجياً لما هو تطبيقيّ؛ إذ سنشتغل، في الباب القادم، على الموضوعات الأساسية لسورة البقرة، مبرزين أوجه تصديق القرآن وهيمنته على ما قبله من الكتب السماوية، معتمدين، في ذلك، على منهج المقارنة بين النصوص، وقراءة تلك الموضوعات على ضوء بنائية القرآن الكريم.

* * *

الباب الثاني

سورة البقرة
على ضوء البنائية القرآنية

الفصل الأول
سورة البقرة
دراسة تحليلية

المبحث الأول
التعريف بسورة البقرة والسياق التاريخي الذي نزلت فيه

حول تسمية السورة:

يلاحظ القارئ للقرآن الكريم أنه سمّى سوراً منه بأسماء الحيوانات، والحشرات، والطيور، مثل: (سورة العنكبوت، سورة النمل، سورة الأنعام، سورة النحل، سورة الفيل)، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا من بين ما يثبت كون القرآن الكريم كتاباً مفتوحاً عن الكون وأسراره، فكلّ هذه المخلوقات، التي تنتمي إلى العالم الموضوعي والمحسوس وراءها الكثير من الحقائق والآيات، التي في حاجة إلى الدراسة والبحث والفهم، وهذه مهمّة من بين المهمات الملقاة على الإنسان في الوجود. فالقرآن يوجّه قارئه لهذه الأسرار والحقائق ليدرك حكمة الخالق -عز وجل- في خلقه.

فسورة البقرة سُميت بهذا الاسم إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتِلَ شخص من بني إسرائيل، ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعلّه يعرف القاتل، فأوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله،

ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله -جل وعلا- في إحياء الخلق بعد الموت، وكانت هذه القصة ذات مغزى بالغ، وأوضح مثال لتعطيل أوامر الشرع بالمجادلة المتنطعة تساؤلاً عن جدية الخطاب. وفي القصة موعظة للمسلمين من سوء فهم الشريعة[1]. وبالتمعّن في موضوعات السورة يظهر أنّ اسمها ذو بعد رمزي لكونه مأخوذاً من حادثة إحياء الميت في قصة البقرة[2]. وهذا فيه تأكيد وإشارة إلى يوم البعث، وهو اليوم الذي ذكّرت به سورة الفاتحة باسم يوم الدين، وقد سُمِّي بأسماء أخرى من بينها يوم الحساب، ومن بين أوجه الهداية في القرآن التذكير بهذا اليوم.

الظرف التاريخي المصاحب لنزول السورة:

نزلت سورة البقرة في المدينة بالاتّفاق[3]، ومن المعلوم أنّ السورة تنطبق عليها خصائص السور، التي نزلت في المدينة؛ فالمدني من القرآن يعالج قضايا بناء المجتمع المسلم، ويعالج قضايا بناء الأسرة المسلمة، وذلك بتفصيل الأحكام المتعلقة بالزواج، والميراث، والبيع، والدين، وغير ذلك ممّا يتعلق بالمعاملات. كما أنّ السور المدنية نجد فيها مجادلة لأهل الكتاب ولآرائهم. إنّ سورة البقرة تتصف بكلّ هذه الخصائص، التي تميز الخطاب القرآني، والسور القرآنية، التي نزلت في المدينة، عن غيرها من السور التي نزلت في مكة[4]. ولا نريد هنا أن ندخل في صلب نقاش علم المكي والمدني كما تناوله المتخصصون في علوم القرآن.

إنّ الظرف التاريخي المصاحب لنزول سورة البقرة يتجلّى في إقبال الرسول الكريم، بعد الهجرة، على تكوين وبناء المجتمع الإسلامي الأول في

(1) الترابي، حسن، التفسير التوحيدي، دار الساقي، بيروت - لبنان، ط1، 2004م، ج1، ص40.

(2) الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم، (م.س)، ص67.

(3) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص201-202.

(4) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، (م.س)، ص148.

المدينة المنورة، بعد نجاح المسلمين أفراداً في مقاومة فتن الوثنية، وقد خلصوا في المدينة بدينهم، ووجدوا داراً تجمع أمتهم، وتقيم دولتهم.

إلا أنّهم فوجئوا بعداوة من نوع آخر، إنّها عداوة اليهود، الذين حسبوا الدين حكراً على جنسهم، فتجهموا بالمنافقين الجدد، وشرعوا في الاستعداد لمقاومة أتباع محمد ﷺ، ويتآمرون عليهم سراً وعلناً... وبدأ شرّهم ينمو ويكبر، والمسلمون، في مهجرهم، يبنون بيد، ويقاومون بأخرى، ويؤسسون مجتمعهم وفق إشارات النصر، ويدفعون عنه أعداء لا يخفى لهم ضغن... ففي هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم، وقد أشارت، وبيّنت زيف ما بأيدي اليهود، وما فيها من خليط لا يصنع التقوى، ولا يزكي سيرة[1].

فالسورة تُعدّ هدياً للحياة، التي اجتمعت شعاب الدين فيها للمجتمع المسلم في المدينة؛ ولهذا عالجت الموضوعات الأساسية في حياة الفرد والمجتمع، ومن بينها معاني الإيمان بالله، والغيب، والآخرة، والدعوة إلى النظر، والإيمان بالآيات المنزلة والمشهودة، والتذكير بتجارب التدين الإنساني من أصلها إلى آخرها. والسورة، كذلك، تُعدّ فاتحة لقرآن المدينة تحريراً لدين المؤمنين، الذين تطهّروا بهدي القرآن المكي من الجاهلية، وتخليصهم، ووقايتهم من الثقافة الكتابية المنبسطة في المدينة. والسورة، بشمولها، تُعدّ كذلك تأسيساً لمجتمع المدينة، وتكميلاً مفصلاً لشعائر التعبد المسنونة الأساسية، ذكراً، وصلاة، وصياماً، وحجاً[2].

المبحث الثاني

الموضوعات الأساسية في السورة

مجمل الموضوعات، التي عالجتها سورة البقرة، تتعلق بالمفلحين

(1) الغزالي، محمد، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1997م، ص7.

(2) الترابي، حسن، التفسير التوحيدي، ج1، ص39 (بتصرف).

والخاسرين من الناس جميعاً؛ فالمفلحون هم الذين اتبعوا الهدى الذي جاء به الأنبياء والرسل. أما الخاسرون، فعلى العكس من ذلك. وتمضي بنا إلى موضوع قِصَّة استخلاف آدم في الأرض، لتعرض، بعد ذلك، للحديث عن بني إسرائيل، وما يتصفون به، وفي سياق الحديث عنهم تطرّقت السورة إلى قصة إبراهيمَ في علاقته بالبيت الحرام، وما عهد الله به إليه، وإلى الصالحين من ذريته، ومنهم إسماعيل، مع عرض وصيَّته عليه السلام لأبنائه، وكلّ ذلك يمكن أن يُدرج تحت عنوان: بيان حقيقة ملّة إبراهيم، التي خالفها الكثير من بني إسرائيل. وقد تطرّقت السورة إلى بسط مجموعة من الأحكام الشرعيَّة في جانب العبادات، تتعلَّق بالصَّلاة، والصَّدقات، والصَّوم، والحجِّ، وفي جانب المعاملات... ومن بين ما تطرّقت إليه السورة قصّة طالوت وجالوت مع بني إسرائيل، وهي قصّة تابعة لبيان ما عليه بنو إسرائيل. وقد خُتمت السورة بنفي أيّ تمييز بين رسل الله وكتبه.

لقد استغرق الحديث عن بني إسرائيل، في علاقتهم بالأنبياء والرسل، الحيّز الأكبر من سورة البقرة، ومن الملاحظ أنّ الحديث حول بني إسرائيل قد جاء في سياق موضوع الاستخلاف والتذكير بالوفاء بما عهد الله به لبني آدم بألّا يعبدوا الشيطان، وبألّا يتبعوا خطواته، ومع الأسف، قدّم بنو إسرائيل -كما بينت السورة- نموذجاً فاشلاً للخلافة في الأرض، وذلك بتحريفهم ما جاءهم من عند الله من الهدى والبينات، وسفكهم الدماء، وقتلهم وتكذيبهم للأنبياء، وغير ذلك ممّا ذكرت سورة البقرة فيهم.

وقد اكتفينا، في الحديث في هذا المبحث، بتتبع الموضوعات الأساسية للسورة من خلال السياق العام لآيات سورة البقرة، وهي: القوم المفلحون، القوم الخاسرون، مهمة الاستخلاف هي الغاية من وجود الإنسان على الأرض، الخلافة وتجربة بني إسرائيل، ما عهد الله به لإبراهيم.

أ- القوم المفلحون:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿3﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿4﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 1-5].

جاء مطلع السورة مؤكداً الهداية، التي تتمثل في كتاب الله المُنزل على رسوله، والتي وعد بها المتقين؛ فهم الذين يؤمنون بالغيب، وبما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب، كما يؤمنون بما أنزل من قبله، ويقدّمون ما نزل على محمد ﷺ على غيره مما سبقه. أمّا الذين كفروا بالكتاب، الذي نزل على محمد، وتوقفوا في إيمانهم على ما نزل قبل محمد، وسعوا في تحريفه وتبديله، لكي يجعلوا منه حجة على أهوائهم، فهم على نقيض طريق الهداية والفلاح، والمقابل لطريق الفلاح هو طريق الخسارة، وقد عبّرت الآية (27) من سورة البقرة عن هذا الأمر: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ب- القوم الخاسرون:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿6﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿7﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿8﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿10﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿11﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿12﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن
لَّا يَعْلَمُونَ ﴿13﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿14﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿15﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿16﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى
ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿17﴾

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿18﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿19﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 6-20].

لقد بيّنت هذه الآيات من (الآية 6 إلى الآية 20) طبيعة الأوصاف التي يتصف بها الذين كفروا بالكتاب، الذي نزل على محمد ﷺ، فهم لا يشغلون حاسة السمع والبصر ليتدبروا في آيات الكتاب، سواء الكتاب المنزل أم الكتاب المخلوق ....﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]؛ فهم في حالة الأصم والأبكم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، وقد وصفتهم الآيات بكونهم يفسدون في الأرض؛ إذ إعمارها والإصلاح فيها لا يصدق إلا من خلال تمثّل الهداية من الكتاب المنزل. وقد جاءت الآية (27) من السورة نفسها مبيّنة أنّ هذا الصنف من الناس قد نقض عهد الله ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27]. والعهد الذي عهده الله لكلّ بني آدم هو ألا يعبدوا الشيطان؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 60-62]. وهؤلاء لهم شياطين كما بيّنت الآيات: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿14﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 14-15].

ت- مهمّة الاستخلاف هي الغاية من وجود الإنسان على الأرض:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ
أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿33﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿34﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ
ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿35﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿36﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿37﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿38﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 30-39].

بعد حديث السورة في مطلعها عن القوم المفلحين، الذين يتلمسون الهداية من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وفي الوقت ذاته من كتاب الخلق، ويعرضون عن الشيطان، وما يدعو إليه، وبعد الحديث، كذلك، عن الخاسرين من القوم الذين أعرضوا عن التماس الهداية من الكتاب، الذي أنزل على محمد بن عبد الله ﷺ، وتحريفهم لما قبله من الكتاب تبعاً لأهوائهم، ولما تتلوه عليهم الشياطين، انتقلت السورة إلى موضوع في غاية الأهمية، هو موضوع استخلاف آدم في الأرض، فالفلاح، أو الخسران، ما هي إلا نتائج تترتّب على موضوع الخلافة التي أناطها الله -جل وعلا- بآدم وذريّته من بعده. وقد بيّنت الآيات كيف أنّ الله قد استشار الملائكة في خلافة آدم على الأرض، ومدى اعتراضهم على الموضوع، وحجتهم أنّ آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، لكنّ حكمة الله اقتضت أن ينعم على آدم بتعلّم الأسماء بقصد تأهيله لهذا الأمر، وقد بيّنت الآيات، كذلك، طبيعة الدور الذي قام به الشيطان في حقّ فتنة آدم إلى درجة هبوطه من أعلى درجات الاستخلاف: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: 36]، وقد أنعم الله، بفضله وكرمه، على آدم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 37]. والكلمات هنا ليست شيئاً آخر غير كلمات الهداية التي جاءت لآدم، وقد استمرت هذه الكلمات حتى ختمت بما جاء به محمد ﷺ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 38]، فالحديث، هنا، عن الهداية، التي جاءت في حق آدم، يلتحم مع ما جاء في مطلع السورة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: 2]، ومع قوله كذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿4﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 4-5]. وهذه الآية رقم (5) من سورة البقرة في حقّ المهتدين تقابلها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 39]، التي جاءت في حق الكافرين والمكذبين بآيات الهدى، التي جاءت محمد بن عبد الله ﷺ.

ث- الخلافة وتجربة بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿40﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿41﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿42﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿43﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿45﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿46﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿47﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 40-48].

غطّت قصّة بني إسرائيل ما يزيد على (80) آية من سورة البقرة؛ فالقصة تبتدئ من الآية (40) إلى (123)، وتُعد الآيات من الآية (40) إلى الآية (48) تُعدّ بمقام مطلع لقصة بني إسرائيل من خلال سورة البقرة، وسنعرض فيما هو قادم للنقاط التي تتضمّنها هذه القصة.

لقد بيّنت الآيات أنّ الله أنعم على بني إسرائيل بالكثير من النعم، على رأسها أنّه فضّلهم على العالمين ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: 47]. وقد طلبت الآيات من بني إسرائيل أن يؤمنوا بما نزل على محمد بن عبد الله ﷺ؛ فالذي نزل إليه جاء مصدقاً لما معه من الكتاب، كما حذّرتهم الآيات بألا يحرفوا كتاب الله، الذي بين أيديهم، والذي آتاه الله الرسل الذين بُعثوا فيهم، على رأسهم موسى عليه السلام: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿41﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 41-42]. وهذا التذكير، الذي ضمته هذه الآية، جاء في سياق الدعوة إلى الوفاء بعهد الله ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البَقَرَة: 40]. والوفاء بعهد الله، هنا، ليس شيئاً آخر غير الإعراض عن الشيطان، وقد سبق أن بيّنّا هذا الأمر. قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿60﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿61﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يـس: 60-62]. والذي ينبغي أن نتنبه إليه، هنا، أنّ الآيات القرآنية، التي تحدّثت عن القوم الخاسرين، قد خرجت من التعميم إلى نوع من التخصيص بالحديث عن تجربة بعينها، وهي تجربة بني إسرائيل، وفيما هو قادم سنتتبع النقاط، التي تتضمنها هذه القصة من خلال عرض الآيات من سورة البقرة، دون أن نضيف إليها تعليقاً، أو ما شابه ذلك لكونها تعبّر عن ذاتها بشكل بيّن وواضح.

- النجاة من آل فرعون:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿49﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 49-50].

- العفو عنهم بعد عبادة العجل:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ
ظَٰلِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ
أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ
فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ
وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 51-59].

- أفضل الطعام:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 60-61].

- تحريف الكتاب الذي جاءهم من عند الله:

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ
ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ

رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (81) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (82) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 75-83].

- **سفك الدماء في ما بينهم:**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 84-86].

- **قتل الأنبياء وتكذيبهم:**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (88) وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ

ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿89﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا
أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿90﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 87-91].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿99﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿100﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 99-101].

كلّ هذه المواصفات والعناوين، التي تتعلّق بما كان عليه بنو إسرائيل، تنتظم في موضوع الإساءة إلى مهمة الخلافة، التي لا تكتمل إلا بالوفاء بعهد الله، والذي مفاده اتباع الهدى الذي جاء به أنبياؤه، ورسله للخلق، والإعراض عن الشيطان، كما تقدّم.

ج- ما عهد الله به لإبراهيم ومن تلاه من ذريته:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿124﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿125﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿126﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿127﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿128﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿129﴾ وَمَن
يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ

لِمَنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿130﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿131﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ
إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسۡلِمُونَ ﴿132﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ
بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿133﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿134﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿135﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا
نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿136﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ
وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿137﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿138﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿139﴾ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿140﴾ تِلۡكَ
أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾
[البَقَرَة: 124-141].

موضوع ما عهد الله به لإبراهيم موضوع في غاية الأهمية؛ فإبراهيم عليه السلام يُعدّ أبا الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النّحل: 120]. فقد تفرّع بنو إسرائيل والأنبياء، الذين بُعثوا فيهم، من نسله، ومن ثَمّ تراثه وذكراه يعنيان الناس جميعاً، ففي سياق كشف حقيقة ما كان عليه بنو إسرائيل في تعاطيهم مع قضايا الإيمان والهداية بما جاء به الأنبياء والرسل الذين بُعثوا فيهم، ورد الحديث، من خلال سورة البقرة، عن سيدنا إبراهيم في الآيات (124- 141)، وقد جاءت الآيات (124 -125) من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿124﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا

وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مدخلاً محورياً لهذا الموضوع، الذي مفاده أنّ الله -جل وعلا- جعل من إبراهيم إماماً للناس، وهذه الإمامة لا يرثها الظالمون من ذريته من بعده، فستبقى في الصالحين والمهتدين منهم، وقد جاءت الآيات مفصلة في موضوع ذرية إبراهيم عليه السلام، وقد وصفت الآية (130) من سورة البقرة، الذين ينحرفون عن ملة إبراهيم، بالسفهاء ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وسنتعرض، فيما هو قادم من البحث، لموضوع ما عهد الله به لإبراهيم ولذريته من بعده.

ح- بقية موضوعات السورة:

تُعدّ الموضوعات، التي جئنا على ذكرها، (وهي: القوم المفلحون، القوم الخاسرون، مهمة الاستخلاف وهي الغاية من وجود الإنسان على الأرض، الخلافة وتجربة بني إسرائيل، ما عهد الله به لإبراهيم ومن تلاه)، موضوعات محوريّة من داخل سورة البقرة. وقد تفرّعت عن هذه الموضوعات الأساسية مجموعة موضوعات أخرى فرعية؛ إذ تطرّقت السورة إلى موضوع نسخ القبلة والاتجاه نحو البيت الحرام، كما تطرقت إلى موضوع الحج والصفا والمروة... وهذه موضوعات ترتبط بموضوع العهد، الذي عهد الله به لإبراهيم، وتطهيره البيت للعاكفين والركع السجود... وقد جاء الحديث حول كلّ هذه القضايا والموضوعات في سياق الاسترجاع النقدي، والتصحيح لما حرّفه بنو إسرائيل من الكتاب في حقّ نبي الله إبراهيم، وحقيقة ما كان عليه بقية الأنبياء والرسل، الذين جاؤوا من بعده. ومن الموضوعات الفرعية، كذلك، موضوع حقيقة البر وماهيّته، وموضوع الطلاق، وموضوع كتابة الدين، وموضوع قصة طالوت، وهي جزء من تاريخ قصة بني إسرائيل.

إنّ هذه الموضوعات المحورية، التي جئنا على ذكرها، وما تبعها من موضوعات فرعية، قد نظّمت من خلال العمود المحوري للسورة، وهو التذكير بموضوع وحقيقة استخلاف آدم وذريته من بعده؛ فالخلافة لا تكتمل إلا من خلال الوفاء بالعهد، الذي عهد الله به لبني آدم بألّا يتبعوا خطوات الشيطان، وبأن يلتمسوا الهداية من التوجيه الرباني المتمثّل في ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم السلام، وخاتمهم محمد ﷺ، كما هو مبيّن في مطلع السورة.

خ- الأحكام التشريعية في سورة البقرة:

تشتمل سورة البقرة، كغيرها من سور القرآن الكريم، على الجانب التشريعي المتعلق بمجموعة من الموضوعات المهمة جداً، ونذكر من بين هذه الموضوعات:

فريضة الصوم[1]؛ إذ تحدّثت السورة عن فلسفته ودوره في حياة الفرد والمجتمع، مذكرة بكونه فريضة كُتبت على الذين من قبلنا. وقد تحدّثت عن بعض أحكام هذه الفريضة. كما أنّ السورة تناولت الجانب التشريعي المتعلق بفريضة الحج[2]، باعتبارها مدرسةً لتكريس وبسط رسالة التقوى بين الناس. كما تحدّثت عن حرمة الربا، وبيان النتائج المرة التي تترتب عليها[3]. كما تطرّقت السورة إلى موضوعات تتعلّق بتشريعات الأسرة[4] في الزواج والطلاق وغيره. كما تحدّثت عن موضوع الدين[5].

ونشير، هنا، إلى أنّ الغرض من هذا البحث ليس تتبّع الشقّ التشريعي من سورة البقرة من داخل القرآن الكريم؛ بل العمل على تتبّع الموضوعات

---

(1) انظر: البقرة: 183-189.

(2) انظر: البقرة: 196-203.

(3) انظر: البقرة: 275-281.

(4) انظر: البقرة: 221-240.

(5) انظر: البقرة: 282-283.

المحورية، التي نُظمت، من خلالها، الموضوعات المتعلقة بالتشريع، التي جئنا على ذكر بعضٍ منها. فالغرض والغاية من هذه التشريعات الواردة في سورة البقرة لا يتأتى إلا من خلال الفهم الصحيح والسليم لمهمة الخلافة المنوطة بالإنسان على الأرض؛ الفهم الصحيح والسليم لتاريخ الرسل والأنبياء، والغاية من بعثتهم عليهم السلام. ونذكر، هنا، أنّ الكتاب المقدس لا يشتمل على الجانب التشريعي فيما يخصّ العديد من هذه الموضوعات التشريعية الواردة في سورة البقرة.

* * *

الفصل الثاني

قراءة موضوعات السورة
على ضوء البنائية القرآنية

سنتتبّع الموضوع المحوري، الذي نُظمت، من خلاله، موضوعات السورة، وهو موضوع الخلافة في الأرض، لنبيّن ما يتضمّنه العهد القديم في الموضوع، ونبيّن، كذلك، ما قام به القرآن الكريم من مراجعات نقدية في الموضوع، كما سنتوقّف، كذلك، عند موضوع حقيقة ما عهد الله به لإبراهيم عليه السلام؛ إذ سنعرض لما يتضمّنه العهد القديم حول ما عهد الله به لإبراهيم ولذريته من بعده، وسنتوقّف، كذلك، عند التصحيحات والمراجعات النقدية، التي قام بها القرآن الكريم بشكل عام، ولاسيما سورة البقرة، حول الموضوع.

المبحث الأول

قصة الخلق وقضية الاستخلاف

سنعرض، من خلال هذا المبحث، لما يتضمّنه العهد القديم حول موضوع قصة خلق آدم؛ فالضرورة المنهجية جعلتنا نتعرّض لما هو وارد في العهد القديم، ومن بعده نتعرض لما جاء في القرآن الكريم حول الموضوع، وذلك كون العهد القديم نصاً سابقاً من حيث النزول لنص القرآن الكريم، فضلاً عن كون القرآن يتّصف بالمراجعة النقدية لما قبله.

كما أنّنا سنقرب القارئ من الصورة، التي كانت للمفسرين حول الموضوع، ونختم بتتبع مفاصل الموضوع، من خلال البنائية القرآنية، سعياً منّا لإظهار المواطن التي جلاها وبينها الخطاب القرآني، وقد تمّ إخفاؤها، أو تحريفها عن موضعها، في نصّ العهد القديم. ونشير، هنا، إلى أنّ تعاملنا مع هذه الموضوعات، التي عالجتها سورة البقرة، لا ينحصر بما ورد في سورة البقرة وحدها؛ بل سنعمل جاهدين لإظهار الصورة الكاملة للموضوعات، التي نحن بصددها من داخل القرآن كله، وعياً منّا بأنّ القراءة البنائية تقتضي منّا ألا نفصل سورة البقرة، والموضوعات التي عالجتها، عن بقية السور القرآنية، فسننطلق من سورة البقرة إلى بقية السور، لنعود إلى السورة نفسها.

1- قصة الخلق والخليقة في العهد القديم:

وردت قصة الخلق، بما في ذلك خلق آدم، في الكتاب المقدس، من خلال سفر التكوين، ولاسيما في الإصحاح الأول، والثاني، والثالث، وسنحاول، من خلال هذه الفقرات، أن نجلي الصورة الكلية، التي رسمها العهد القديم لهذا الموضوع بتتبّع نصوص الأسفار التي تحدّثت عن هذا الموضوع.

- خلق السموات والأرض وما تبعها:

يخبرنا العهد القديم، من خلال سفر التكوين، بأنّ عملية الخلق بدأت بخلق السموات والأرض «في البدء خلق الله السموات والارض»[1]، وما تلاها من تقسيم الليل والنهار بفصل النور عن الظلمة، وبظهور اليابسة، وتسميتها باسم الأرض، وتسمية مجمع المياه باسم البحر، وإنبات النبات على الأرض... والإصحاح الأول من سفر التكوين من المقطع رقم (1) إلى

---

(1) سفر التكوين، 1: 1.

(20) بيّن كيف بدأت الخليقة[1]. وبعد هذا خلق الله التنانين الكبيرة وغيرها من الطيور، وقد باركها الله، حتى صارت كثيرة جداً بقوله: «أثمري وأكثري واملئي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض»[2]، وقد بينت المقاطع (21) إلى (25)، من الإصحاح الأول من سفر التكوين، هذا الأمر[3].

---

(1) «1- في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه 3- وقال الله: ليكن نور، فكان نور 4- ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة 5- ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً 6- وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه 7- فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك 8- ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً 9- وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك 10- ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن 11- وقال الله: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه، بزره فيه على الأرض. وكان كذلك 12- فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن 13- وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً 14-وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين 15- وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك 16- فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم 17- وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض 18- ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن 19- وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً 20- وقال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء» سفر التكوين 1: 1 إلى 20.

(2) سفر التكوين، 1: 22.

(3) «21- فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن 22- وباركها الله قائلاً: أثمري وأكثري، واملئي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض 23- وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً 24- وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك 25- فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن» سفر التكوين، 1: 21 إلى 25.

- **خلق الإنسان:**

بعد خلق السموات والأرض، وما تبع ذلك من خلق التنانين وغيرها، جاء قول الله حسب ما هو وارد في سفر التكوين. «26- وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كلّ الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»[1]. فخلقُ الإنسان، كما بيّن هذا النص، تمّ على شبه من صورة الله، وقد حدّد هذا النص الغاية من خلق الإنسان في كونه سيتسلط على ما في الأرض والبحار من نبات ومخلوقات أخرى دونه. وقد جاء المقطع (27) و(28) من الإصحاح الأول من سفر التكوين مؤكداً لهذا المعنى[2]. والمقصود بالإنسان، حسب تتبع ما تبع هذا النص، هو شخص آدم أبو الإنسانية؛ إذ ورد في النصوص التالية أنّ الله وضعه في جنة عدن وحده، وقد ارتأى «الله» أنه ليس من المعقول أن يبقى آدم وحيداً؛ إذ من الأَوْلَى أن يكون له معيناً ونظيراً له، فخلق له أنثى أُخِذت من ضلعٍ من أضلاعه بعد أن أوقعه في نوم عميق، وورد بهذا الخصوص في العهد القديم. «21- فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. 22- وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. 23- فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت. 24- لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»[3]. أما عن المادة التي خلق منها آدم،

---

(1) سفر التكوين، 1: 26.

(2) «27- فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. 28- وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا، وأكثروا، واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض» سفر التكوين، 1: 27-28.

(3) سفر التكوين، 2: 21 إلى 24.

والطريقة التي خلق بها، فهذا النص يبين هذا الأمر «7- وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية»[1].

- **يوم الراحة:**

استغرقت الفترة الزمنية لعملية الخلق هذه، حسب العهد القديم، ستة أيام، وتمّ تخصيص اليوم السابع يوماً للراحة، وقد تمّت مباركة هذا اليوم، لكونه يُعدّ يوماً للراحة جاء في سفر التكوين «1- فأكملت السموات والأرض وكلّ جندها. 2- وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. 3- وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه استراح فيه من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً»[2].

- **السكن في جنة عدن:**

تخبرنا نصوص العهد بأن الله غرس جنة عدن بالأشجار، وأجرى فيها كثيراً من الأنهار، وقد ذكرت النصوص أسماء تلك الأنهار المتفرعة عن نهر واحد، ويبدو من النصوص أنّ جنة عدن هذه، التي وضع فيها آدم، تقع على الأرض، وقد وضعت في الجنة شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، وقد جاءت وصية الله لآدم بألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، فإن أكل منها فسيموت. ورد في العهد القديم بهذا الخصوص «8- وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. 9- وأنبت الرب الإله من الأرض كلّ شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر»[3]. وورد بخصوص وصية الله لآدم «16- وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. 17- وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[4].

---

(1) سفر التكوين، 2: 7.

(2) سفر التكوين، 2: 1-4.

(3) سفر التكوين، 2: 8-9.

(4) سفر التكوين، 2: 16-17.

- الأكل من الشجرة المنهيّ عنها في الجنة «شجرة المعرفة»:

وفقاً لتتبّع نصوص العهد القديم، نفهم أنّ آدم لم يفِ بوصية عدم أكله من شجرة الخير والشر، وكانت زوجته هي السبب في هذا الأمر؛ إذ حرضتها الحية على الأكل من الشجرة المنهيّ عن الأكل منها، وأفصحت لها بأنّ الأكل من الشجرة لا يتوقف عن الموت؛ بل يرتبط بمعرفة الخير والشر، فالأكل من الشجرة المنهيّ عن الأكل منها سيجعل من حواء وآدم عارفين للخير والشر، وقد دار حوار بين الحية وامرأة آدم حواء مفاده «وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية، التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقاً؟ قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة. 2- فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل. 3- وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. 4- فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. 5- بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر»[1]. بعد هذا الحوار، اقتنعت المرأة بوجهة نظر الحية، فأكلت كما يخبرنا النص التالي: «6- فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها، وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل»[2]. وقد ترتّب على هذا الأكل انفتاح أعين كلّ من آدم وحواء إلى درجة أنّهما يبصران نفسيهما كونهما في عراء، ودون لباس كما بين النص التالي: «7- فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر»[3].

- الله يخاطب آدم بعد خرقه للوصية:

بعد حدث الأكل من الشجرة، وانفتاح الأعين، سمع كلّ من آدم وزوجته صوت الرب الإله، وهو يمشي في الجنة، وإذا بهما يختبئان بين شجر الجنة

(1) سفر التكوين، 3: 3-5.
(2) سفر التكوين، 3: 6.
(3) سفر التكوين، 3: 7.

خوفاً منه «8- وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة»[1]. وبعد هذا دار حوار بين الرب الإله وآدم مفاده، وفقاً لما هو وارد في نصوص العهد القديم: «9- فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. 10- فقال سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان فاختبأت. 11- فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. 12- فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. 13- فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت. فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت»[2]. لقد نسب آدم حدث الأكل من الشجرة إلى زوجته، وجعلها مسؤولة عن الأمر، كونها كانت سبباً في إعطائه ثمرة الشجرة المنهيّ عن الأكل منها.

- **ما ترتّب على خرق آدم للوصية:**

بعد الأكل من الشجرة، بسبب تحريض الحية لحواء على هذا الفعل، الذي قامت به، وورطت آدم فيه، عاتب الرب الإله حواء، وقد أخبرته بأنّ الحية هي التي كانت سبباً في ذلك، وقد ترتّب على حدث خرق الوصية جزاء كلّ من الحية، والمرأة، وآدم. ومن المعلوم، وفقاً لنصوص العهد القديم، أنّ آدم هو الذي تحمّل هذه الوصية؛ إذ أوصاه الرب الإله بألا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، بينما مسؤولية خرق هذه الوصية المنوطة بآدم قد تفرقت بين الحية والمرأة وآدم، وقد نال كلّ من هذه الأطراف جزاءه عن هذه الفعلة.

فكان جزاء الحية: اللعنة من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، وذلك بأن تبقى الحية تمشي طول الزمن على بطنها، وتقتات بالتراب، فضلاً عن العداوة التي تنشب بين نسل الحية ونسل المرأة. ورد في العهد القديم

(1) سفر التكوين، 3: 8.

(2) سفر التكوين، 3: 9-13.

بهذا الخصوص: «13- فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت. 14- فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كلّ أيام حياتك. 15- وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه»[1].

أمّا جزاء المرأة: فيتمثل في أتعاب الحمل، ووجع الولادة، فضلاً عن أنها ستبقى تابعة لزوجها، ويبقى الرجل سداً عليها. ورد في العهد القديم بهذا الخصوص: «16- وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك»[2].

أما جزاء آدم: فيتمثل في التعب والمشقة، التي تلحقه قصد الأكل، وضمان العيش من ثمار الأرض له ولزوجته التي يسود عليها. «17- وقال لآدم: لأنّك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. 18- وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. 19- بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنّك تراب وإلى تراب تعود»[3].

- طرد الإنسان من الجنة خشية أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً:

بعد هذا، اعترف الرب الإله للإنسان بكونه صار عارفاً للخير والشر، بعد أكله من شجرة المعرفة، وخشية أن يمدّ الإنسان يده مرة ثانية إلى الأكل من شجرة الحياة، ويحيا إلى الأبد، طرده الله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أُخرج وخلق منها، وشُدّدت الحراسة على شجرة الحياة، ولا قدرة للإنسان ليصل إليها. ورد بهذا الخصوص في العهد القديم: «22- وقال

(1) سفر التكوين، 3: 13-15.
(2) سفر التكوين، 3: 16.
(3) سفر التكوين، 3: 17-19.

الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً الخير والشر. والآن لعلّه يمدّ يده، ويأخذ من شجرة الحياة، أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. 23- فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. 24- فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»[1].

2- المفسرون وقصة آدم:

في هذا المبحث، سنعرض أقوال وآراء المفسرين حول موضوع قصّة استخلاف آدم، ومن المعلوم أنّه يتعذّر علينا أن نورد أقوال وآراء جميع المفسرين، سواء القدماء منهم أم المحدثين؛ ولهذا سنكتفي بإيراد رأي بعضٍ من أصحاب التفاسير المشهورة، وسنحاول أن نقارن فيما بينها من حيث طريقة تعاطيها مع الموضوع.

- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت 310هـ):

أورد الطبري الكثير من الروايات، والآثار، والأقوال، في تفسيره لموضوع استخلاف آدم، وسنورد، في ما يأتي، خلاصة تلك الآثار، في تقريبنا لنظرة الطبري للموضوع؛ ففي ما يخص قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30] ﴿جَاعِلٌ﴾ هُنَا بِمَعْنَى خَالِقٌ في نظر الطبري[2]. أما بخصوص الأرض، التي استُخلف فيها آدم، فالطبري يرى أنّ المقصود منها أرض مكة، وقد أورد في هذا الشأن «دُحِيت الأرضُ من مكة، وكانت الملائكة تطوفُ بالبيت، فهي أوّل من طاف به، وهي (الأرضُ) التي قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30]»[3]، إلا أنه ليس في القرآن ما يؤكد أنّ المقصود بالأرض هنا هي مكة.

---

(1) سفر التكوين، 3: 22-24.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص448.

(3) المصدر نفسه، ص448.

وذهب الطبري إلى كون الجنّ قد سبق لهم أن سكنوا في الأرض، وأفسدوا فيها، قبل أن يستخلف فيها آدم عليه السلام؛ فأول «من سكن الأرضَ الجنُّ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً»[1].

ويخبرنا الطبري أن الله خلق الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة، وأورد، بخصوص هذا التقسيم الزمني من حيث الأيام: «حدثني المثنى، قال: حدثنا إسحاق، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30]، الآية، قال: إنّ الله خلق الملائكة يوم الأربعاء، وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة، فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم، فكانت الدماء، وكان الفساد في الأرض»[2]. وبعد هذا اقتضت مشيئة الله أن يجعل خليفة له في الأرض. وفساد الجن هذا هو ما دفع الملائكة للقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: 30]، عندما أخبرها الله بموضوع استخلاف آدم. وكان ردّ الله جل وعلا: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 30].

وقد أنعم على آدم بمعرفة الأسماء؛ فالطبري يرى، بخصوص الأسماء التي علمها الله لآدم، أنّها تفيد الأسماء التي يتواصل الناس بها. ومن بين النصوص، التي وردت في هذا الأمر: «حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: علّم الله آدم الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ، ودابة، وأرض، وَسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص448.
(2) المصدر نفسه، ص448.
(3) المصدر نفسه، ص482.

يخبرنا الطبري بأنّه اعتمد على أهل الكتاب في فهمه لجزء من قصة استخلاف آدم بقوله: «فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم»[1].

فهو يرى أنّ آدم نام مدة سنة من الزمن، وفي نومه هذا أخذ الله ضلعاً من أضلاعه اليسرى، وخلق منها زوجاً له، وهي المعطيات نفسها التي يضمّها العهد القديم في نظره إلى الموضوع، وقد أورد بهذا الخصوص«حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: لمّا فرغ الله من مُعاتبة إبليس، أقبل على آدم، وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البَقَرَة: 33] إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: 32]. قال: ثمّ ألقى السِّنَةَ على آدم -فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره- ثمّ أخذ ضِلَعاً من أضلاعه من شِقِّه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهبَّ من نومته، حتى خلق الله من ضِلَعه تلك زوجته حوّاء، فسوّاها امرأةً ليسكن إليها. فلما كُشِف عنه السِّنة، وهبّ من نومته، رآها إلى جنبه، فقال -فيما يزعمون والله أعلم-: لحمي ودمِي وزوجتي، فسكن إليها. فلما زوّجه الله تبارك وتعالى، وَجعل له سكناً من نفسه، قال له، قبيلاً: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 35]. قال أبو جعفر: ويقال لامرأة الرجل: زَوْجُه وزَوْجتُه، والزوجة بالهاء أكثر في كلام العرب منها بغير الهاء. والزوج بغير الهاء يقال إنّه لغة لأزْد شَنوءة. فأما الزوج، الذي لا اختلاف فيه بين العرب، فهو زوجُ المرأة»[2]. هذه المعطيات، التي أوردها الطبري، هي المعطيات نفسها، التي يقول بها العهد القديم في الموضوع، وهي كالآتي: «21- فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم، فنام.

(1) المصدر نفسه، ص514.

(2) المصدر نفسه، ص514.

فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. 22- وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. 23- فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت. 24- لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»[1].

أمّا فيما يخص الأكل من الشجرة المنهي عن الأكل منها، فقد ذهب الطبري إلى كونها شجرة من أشجار الجنة، لم يذكر الله اسمها، أَهي شجرة التين أم شجرة العنب؟. وما دام الطبري قد أورد أسماء هذه الأشجار المعروفة، فإنّه يعتقد بكون الشجرة نوعاً من الأشجار التي تغرس على الأرض التي يعرفها الناس. ويصف الطبري الشجرة المنهي عن الأكل منها بكونها «شجرةً غصونها متشعِّبٌ بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نَهى الله آدمَ عنها وزوجته»[2].

يقول الطبري: «يقال: إنّ الله -جل ثناؤه- نهى آدمَ وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به. ولا علم عندنا أية شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة. فأنَّى يأتي ذلك؟ وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلمٌ، إذا عُلم لم ينفع العالمَ به علمه، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلُه به»[3]. فالطبري هنا يبدو متردداً، فهو، من جهة، يجوز أن تكون الشجرة المنهيّ عنها من إحدى الأشجار، التي أتى على ذكرها؛ أي شجرة البر، أو شجرة العنب، أو شجرة التين، ومن جهة أخرى يقر بعدم العلم

(1) سفر التكوين، 2: 21-24.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، 520.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص520.

بماهية الشجرة المنهي عن الأكل منها، مستدلاً بأنّ الله لم يَضَع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن. وهذا رأي أقرب إلى عين الصواب، فالقرآن لم يسمِّ الشجرة باسم معين. وهي في محيطه غير معروفة النوع ولا الصفة[1].

يخبرنا الطبري بأنّ إبليس حاول أن يدخل الجنة من أجل فتنة آدم وزوجته «فمنعته الخزَنة. فأتى الحية -وهي دابَّة لها أربعُ قوائم كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب- فكلمها أن تُدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته في فمها، فمرّت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون»[2]. وهذه معطيات لم يقلْ بها القرآن الكريم، ولا تتوافق مع السياق العام الذي وردت فيه قصّة آدم في القرآن.

وبعد دخول الحية إلى الجنة، خرج من فمها، وبهذه الحيلة تمكّن إبليس من دخول الجنة، ما يعني أنّ هناك مجالاً آخر يحيط بالجنة في نظر الطبري، وبعد دخوله هذا أخذ من ثمار الشجرة المنهيّ عن الأكل منها، وجاء لحواء، وقال لها: «انظري إلى هذه الشجرة! ما أطيبَ ريحَها، وأطيبَ طعمها، وأحسن لونها! **فأخذت حواءُ فأكلَتْ منها**، ثمّ ذهبت بها إلى آدم، فقالت: انظرْ إلى هذه الشجرة! ما أطيبَ ريحها، وأطيبَ طعمها، وأحسنَ لونها! فأكل منها آدم»[3]. وهذه هي المعطيات نفسها، التي قالت بها نصوص العهد القديم؛ إذ نسبت مسؤولية الأكل من الشجرة إلى زوجة آدم. جاء في سفر التكوين: «6- فرأت المرأة أنّ الشجرة جيدة للأكل، وأنّها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهيّة للنظر. فأخذت من ثمرها، وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل»[4].

(1) الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت.ط)، ج1، ص69.
(2) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص526.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص526.
(4) سفر التكوين، 3: 6.

وبعد أكله هذا، تغيّر كلّ شيء، وأدرك آدم الخطأ والمحظور الذي وقع فيه، وإذا به يدخل «جوف الشجرة، فناداه ربُّه: يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هنا يا رب! قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي منك يا رب»[1]. وبعد استحياء آدم، واختبائه في جوف الشجرة، قال الله في حقه، وفي حق زوجته: «**ملعونة الأرض التي خُلقتَ منها لعنةً يتحوَّل ثمرها شوكاً. قال: ولم يكن في الجنة، ولا في الأرض، شجرةٌ كان أفضل من الطَّلح والسِّدر، ثم قال: يا حواء، أنت التي غرَرْتِ عبدي، فإنك لا تَحملين حَملاً إلا حملته كَرْهاً، فإذا أردتِ أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مراراً. وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرَّ عبدي، ملعونة أنتِ لعنة تَتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم، وهم أعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقِبه، وحيث لقيك شدَخ رأسك**»[2].

إذا تمعّنا في هذه المعطيات، التي أوردها الطبري، حول ما ترتب على أكل آدم من الشجرة، فسنجدها تتوافق بشكل متطابق مع نصوص العهد القديم الواردة في الموضوع. وقد سبق أن جئنا على ذكرها، وهي كالآتي: «13- فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت. 14- فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كلّ أيام حياتك . 15- وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. 16- وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. 17- وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص526.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص526.

أيام حياتك. 18- وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. 19- بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى تراب تعود»(1).

ووفقاً لهذا النص، يحقّ لنا القول: إنّ الطبري يستحضر نصوص العهد القديم في فهمه وتفسيره للقرآن الكريم، وهذا يطرح أمامنا مشكلة منهجية خطيرة تتعلق بفهم القرآن؛ إذ من المفترض فهم القرآن من خلال نظمه، وسوره، وآياته، بدل الاستعانة بما تمّ تحريفه وتبديله من نصوص العهد القديم (التوراة)، التي جاءت نصوص القرآن لترفع الضرر عما تم تبديله، وإخفاؤه في تلك النصوص، وإلا فما الفائدة من منهج التصديق والهيمنة، الذي يتصف به القرآن عن غيره.

- أبو القاسم محمود الزمخشري (ت 538هـ):

يرى أبو القاسم صاحب **(تفسير الكشاف)** أن ما تعلّمه آدم من الأسماء يفيد تعلم أسماء الأجناس، التي خلقها الله؛ أي أنّ الله «علمه أنّ هذا اسمه فرس، وهذا اسمه بعير، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها، وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية»(2). أما فيما يخصّ الشجرة المنهيّ عنها، فهو يرى أنها تفيد «فيما قيل (الحنطة)، أو (الكرمة)، أو (التينة)»(3). أما فيما يخص فتنة آدم، فقد أورد، بخصوص هذا الأمر، أنّ الشيطان «كان يدنو من السماء فيكلمهما. وقيل: قام عند الباب فنادى. وروى أنّه أراد الدخول فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به، وهم لا يشعرون»(4). وهذا

---

(1) سفر التكوين، 3: 13-19.

(2) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ، ج1، ص126.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص127.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص128.

يعني أنّ الشيطان كان خارج الجنة، وتمكّن من الدخول إليها في نظر صاحب (الكشاف).

أمّا فيما يخص قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: 123] فقال: «ويدلّ على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 38-39]، ما هو إلا حكم يعمّ الناس كلهم. ومعنى بعضكم لبعض عَدُوٌّ ما عليه الناس من التعادي، والتباغي، وتضليل بعضهم لبعض»[1]. وفسر الهبوط بقوله: «الهبوط: النزول إلى الأرض مُسْتَقَرٌّ موضع استقرار، أو استقرار ومَتاعٌ وتمتع بالعيش، إلى حِين يريد إلى يوم القيامة. وقيل: إلى الموت»[2].

من الملاحظ أنّ الزمخشري لم يخرج عن الإطار العام، الذي رسمه الطبري للموضوع، وذلك كونه أعاد توظيف كلّ المعطيات، التي سبقه إليها الطبري حول الموضوع من أقوال، وآثار، وغيرها.

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ):

أورد ابن كثير، في تفسيره لقصة استخلاف آدم، مجموعة من الآثار والأقوال؛ ففي ما يخصّ الأرض، التي استخلف فيها آدم، نقل عن الطبري ما يفيد أنّ الأرض، التي استخلف فيها آدم، هي مكة، وقد أورد بهذا الخصوص: «قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، حَدَّثَنا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دُحِيت الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ»[3]. ويرى ابن كثير، أخذاً منه لما قال به الطبري، أنّ الأرض قد سكنها الجنّ من قبل، وفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، ثمّ

(1) المصدر نفسه، ص128.

(2) المصدر نفسه، ص128.

(3) تفسير القرآن العظيم، (م.س)، ج1، ص217.

أسكن آدم بعدهم، وقد جاء في هذا الصدد: «أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ الْأَرْضَ الجنُّ، فَأَفْسَدُوا فِيهَا، وَسَفَكُوا فِيهَا الدِّمَاءَ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسَ، فَقَتَلَهُمْ إِبْلِيسُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَّى أَلْحَقَهُمْ بِجَزَائِرِ الْبُحُورِ وَأَطْرَافِ الْجِبَالِ. ثُمَّ خَلَقَ آدَمَ وَأَسْكَنَهُ إِيَّاهَا»(1).

وفيما يخصّ الأسماء، التي علمها الله لآدم؛ فذلك يعني تعليمه أسماء المخلوقات كلها؛ إذ «عَرَضَ عَلَيْهِ أَسْمَاءَ وَلَدِهِ إِنْسَاناً إِنْسَاناً، وَالدَّوَابِّ، فَقِيلَ: هَذَا الْحِمَارُ، هَذَا الْجَمَلُ، هَذَا الْفَرَسُ... هي هذه الأسماء التي يتعارف بِهَا النَّاسُ: إِنْسَانٌ، وَدَابَّةٌ، وَسَمَاءٌ، وَأَرْضٌ، وَسَهْلٌ، وَبَحْرٌ، وَجَمَلٌ، وَحِمَارٌ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا»(2). وأورد ابن كثير، فيما يخص خلق زوجة آدم، نقلاً عن الطبري، ما مفاده: «أُلْقِيَتِ السِّنَةُ عَلَى آدَمَ -فِيمَا بَلَغَنَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ -ثُمَّ أَخَذَ ضِلعاً مِنْ أَضْلَاعِهِ مِنْ شِقه الْأَيْسَرِ، وَلَأَمَ مَكَانَهُ لَحْماً، وَآدَمُ نَائِمٌ لَمْ يَهُبَّ من نَوْمِهِ، حَتَّى خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ تِلْكَ زَوْجَتَهُ حَوَّاءُ، فَسَوَّاهَا امْرَأَةً لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا. فَلَمَّا كُشِفَ عَنْهُ السِّنَة، وهبَّ مِنْ نَوْمِهِ، رَآهَا إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ -فِيمَا يَزْعُمُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ-: لَحْمِي وَدَمِي وَرُوحِي، فَسَكَنَ إِلَيْهَا»(3).

وأورد، فيما يخص الأكل من الشجرة، ما مفاده: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35] فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ -تَعَالَى- وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ. وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ: مَا هِيَ؟ فَقَالَ السُّدِّيُّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشجرة التي نهي عنها آدم، عليه السلام، هِيَ الكَرْم. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وجَعْدة بْنُ هُبيرة، وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ -أَيْضاً-

(1) المصدر نفسه، ج1، ص218.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص223.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص233.

فِي خَبَرٍ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُرَّةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هِيَ الْكَرْمُ. وَتَزْعُمُ يَهُودُ أَنَّهَا الْحِنْطَةُ»[1].

ويذهب ابن كثير إلى كون زوجة آدم هي من أمرت آدم بالأكل من الشجرة؛ لنقرأ النص الآتي: «وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْنُ العَوَّام، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ حُسَيْنٍ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ قِيلَ لَهُ: لِمَ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا. قَالَ: حَوَّاءُ أَمَرَتْنِي. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَعْقَبْتُهَا أَنْ لَا تَحْمِلَ إِلَّا كَرْهاً، وَلَا تَضَعَ إِلَّا كَرْهاً. قَالَ: فرنَّت عِنْدَ ذَلِكَ حَوَّاءُ. فَقِيلَ لَهَا: الرَّنَّةُ عَلَيْكِ وَعَلَى وَلَدِكِ»[2].

يمضي بنا ابن كثير ليحدّد الزمن، من حيث الأيام التي خرج فيها آدم من الجنة، وفقاً للأقوال؛ التي استحضرها بهذا الخصوص؛ فقد «خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة، أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة، وهو الإكليل من ورق الجنة... فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم... وقال الزهري عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»[3]. ويستحضر ابن كثير أقوالاً أخرى، منها: «عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرضٍ يُقال لها: دَحْنا، بين مكّة والطائف، وعن الحسن البصري قال: أهبط آدم بالهند،

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص234.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص399.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص237.

وحواء بجدة، وإبليس بدَسْتُمِيسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدي، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفا، وحواء بالمروة، وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يداه على ركبتيه، مطأطئاً رأسه، وأهبط إبليس مشبكاً بين أصابعه، رافعاً رأسه إلى السماء»[1].

من الملاحظ أنّ جلّ ما جاء به ابن كثير في الموضوع لم يخرج عن الإطار، وعن المضامين، التي قال بها الطبري؛ ولهذا، فهو لم يعالج الموضوع باستحضار خصوصيات منهج التصديق والهيمنة في علاقة القرآن بما قبله.

- سيد قطب (ت 1385هـ):

حاول سيد قطب أن يحكم السياق في قراءة قصة استخلاف آدم، ما جعله يستغني عن الآثار الواردة في الموضوع، والتي قال بها الطبري وغيره، فهو يرى أنّ قصة آدم جاءت في سياق التقرير الإلهي بأنّه خلق كلّ ما في الأرض للناس جميعاً، وقد استخلف آدم في الأرض «على عهد من الله وشرط. وقد تمّ إعطاؤه المعرفة، التي يعالج بها هذه الخلافة. كما أنها تمهّد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم عزلهم عن هذه الخلافة، وتسليم مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله»[2].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30]، يعلق سيد قطب على هذه الآية بقوله: «فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه

(1) المصدر نفسه، ج3، ص237.

(2) قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط7، 1412هـ، ج1، ص27.

إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل؛ وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله -بإذن الله- في المهمّة الضخمة التي وكلها الله إليه»[1]. ويرى قطب أنّ الله وهب الإنسان الكثير من المؤهلات والطاقات الكامنة لأداء هذه المهمة، كما أنّه يرى أنّ «النواميس، التي تحكم الأرض -وتحكم الكون كله- والنواميس التي تحكم هذا المخلوق، وقواه وطاقاته، تتصف بالوحدة والتناسق، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!»[2].

أمّا عن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: 30]؛ ففي نظر قطب، هذا «يوحي بأنّه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حياته على الأرض، وما يجعلهم يعرفون، أو يتوقعون، أنه سيفسد في الأرض، وأنه سيسفك الدماء»[3]. إلا أنّ قطب لم يتحدّث عن تلك الشواهد وغيرها التي من المحتمل لدى الملائكة.

ويقف قطب عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: 31] بقوله: «ها نحن أولاء- بعين البصيرة في ومضات الاستشراف- نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى... ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم، الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة. سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها -وهي ألفاظ منطوقة- رموزاً لتلك

(1) المصدر نفسه، ج1، ص56.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص56.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص56.

الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض»[1]. وفي هذا تكريم للإنسان؛ لكونه وُهب سرّ المعرفة، فضلاً عن سرّ الإرادة المستقلة، التي تختار الطريق، فهذا رفعه درجة على الملائكة، ونال سجودها[2]. إنّ ما قال به سيد قطب، في موضوع العلم بالأسماء، ينسجم مع ما ذهب إليه عبد الكريم يونس الخطيب، صاحب (**التفسير القرآني للقرآن**) بقوله: «والرأي في هذا أن الله -سبحانه- أودع في الإنسان القدرة على البحث والنظر في الكشف عن خصائص الأشياء، وعللها، وأسبابها، والوقوف على أسرارها المودعة فيها، وحلّها وتركيبها... وبهذه القدرة عرف حقائق كثير من الأشياء، وهو جادّ أبداً في الكشف عن المزيد منها، يوماً بعد يوم، وجيلاً بعد جيل، وعصراً إثر عصر! وكلّما عرف حقيقة وضع لها اسماً تعرف به»[3].

أما فيما يخصّ الشجرة المنهيّ عنها، فقد ربطها قطب بشجرة المحظور بقوله: «لقد أبيحت لهما كلّ ثمار الجنة... إلا شجرة... شجرة واحدة، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بدّ منه في حياة الأرض. فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميّز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط؛ فالإرادة هي مفرق الطريق، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين!»[4].

لم يولِ سيد قطب اهتماماً للكيفية والطريقة التي فتن بها آدم، واكتفى بالقول: «﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾... إنّه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنك

(1) المصدر نفسه، ج1، ص57.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص57.
(3) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ج1، ص52.
(4) قطب، سيد، في ظلال القرآن، (م.س)، ج1، ص58.

لتكاد تلمح الشيطان، وهو يزحزحهما عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي! عندئذ تمت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية»[1].

وحقّت كلمة الله، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: 36]. يعلّق قطب بقوله: «وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان. وتمّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته؛ عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار»[2].

- **محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ):**

يرى الطاهر بن عاشور بخصوص آية: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: 30] بمعنى «جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ مُدَبِّراً يَعْمَلُ مَا نُرِيدُهُ فِي الْأَرْضِ...لِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمْ يَكُنْ حَالّاً فِي الْأَرْضِ، وَلَا عَامِلاً فِيهَا الْعَمَلَ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي الْإِنْسَانِ، وَهُوَ السَّلْطَنَةُ عَلَى مَوْجُودَاتِ الْأَرْضِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- لَمْ يَتْرُكْ عَمَلاً كَانَ يَعْمَلُهُ فَوَكَلَهُ إِلَى الْإِنْسَانِ؛ بَلِ التَّدْبِيرُ الْأَعْظَمُ لَمْ يَزَلْ لِلَّهِ -تَعَالَى- فَالْإِنْسَانُ هُوَ الْمَوْجُودُ الْوَحِيدُ الَّذِي اسْتَطَاعَ بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي خِلْقَتِهِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِ بِوُجُوهٍ عَظِيمَةٍ لَا تَنْتَهِي، خِلَافَ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ»[3]. من خلال هذا النص، يرى الطاهر بن عاشور أن الله -عز وجل- هو المتصرف والأول والأخير في الأرض، وقد استخلف آدم لكونه المخلوق الوحيد، الذي له القدرة على التصرف، ولكن تصرّفه ينبغي أن يكون مشروطاً بما يريد الله، وليس العكس، وأورد ابن عاشور، فيما يخص الآية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: 31] قوله: «أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْمَاءِ ابْتِدَاءً أَسْمَاءُ الذَّوَاتِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، مِثْلَ الْأَعْلَامِ الشَّخْصِيَّةِ، وَأَسْمَاءِ

(1) المصدر نفسه، ج1، ص58.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص58، (بتصرف).
(3) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص399.

الْأَجْنَاسِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْحَجَرِ، وَالْكَوَاكِبِ، مِمَّا يَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُ الْإِنْسَانِ»[1].

يخبرنا ابن عاشور بكون جمهور المفسرين قد اختلفوا في تعيين الشجرة بقوله: «وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْقَصَصِ فِي تَعْيِينِ نَوْعِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَعَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيِّ أَنَّهَا الْكَرْمَةُ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَجُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهَا الْحِنْطَةُ، وَعَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ، وَنَسَبَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ إِلَى جَمْعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّهَا شَجَرَةُ التِّينِ. وَوَقَعَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ مِنَ التَّوْرَاةِ إِبْهَامُهَا، وَعُبِّرَ عَنْهَا بِشَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»[2]. ولا ندري، هنا، لماذا استحضار ما جاء في العهد القديم بالقول: إنّ الشجرة تعني شجرة معرفة الخير والشر؟

أمّا بخصوص الجنة، التي سكنها آدم، فأخذ ابن عاشور عن أبي القاسم، وعن المعتزلة، وغيرهم، أنّها «جَنَّةٌ فِي الْأَرْضِ خَلَقَهَا اللَّهُ لِإِسْكَانِ آدَمَ وَزَوْجِهِ»[3]. وَنَقَلَ عن الْبَيْضَاوِيِّ قوله: «أَنَّهَا بُسْتَانٌ فِي فِلَسْطِينَ، أَوْ هُوَ بَيْنَ فَارِسَ وَكِرْمَانَ». ويعلق ابن عاشور على هذا القول بقوله: «وَأَحْسَبُ أَن هَذَا ناشئ عَنْ تَطَلُّبِهِمْ تَعْيِينَ الْمَكَانِ الَّذِي ذُكِرَ مَا يُسَمَّى فِي التَّوْرَاةِ بِاسْمِ عَدْنٍ. فَفِي التَّوْرَاةِ، فِي الْإِصْحَاحِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ: (وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا -ثُمَّ قَالَتْ- فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا). وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ، لَكِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ شُرَّاحُ التَّوْرَاةِ أَنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ ظَاهِرُ وَصْفِ نَهْرِ هَذِهِ الْجَنَّةِ، الَّذِي يَسْقِيهَا، بِأَنَّهُ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ فَيَسْقِي الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِير أَرْبَعَة رُؤُوس اسْمُ الْوَاحِدِ (فَيْشُونُ)، وَهُوَ الْمُحِيطُ

(1) المصدر نفسه، ج1، ص409.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص432.
(3) المصدر نفسه، ج1، ص430.

بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحُوَيْلَةِ، وَهُمْ مِنْ بَنِي كُوشٍ، كَمَا فِي الْإِصْحَاحِ مِنَ التَّكْوِينِ، وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي (جَيْحُونُ)، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْض كُوشٍ، وَاسْمُ النَّهرِ الثَّالِثِ (حِدَّا قِلْ)، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقَ آشُور (دِجْلَةَ). وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ: الْفُرَاتُ. وَلَمْ أَقِفْ عَلَى ضَبْطِ عَدْنٍ هَذِهِ. وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ عَبْدِ الْحَقِّ الْإِسْلَامِيِّ السِّبْتِيِّ الَّذِي كَانَ»[1]. ولا ندري، هنا، لماذا استحضار ما هو وارد في العهد القديم حول الموضوع، مع العلم بأنّ الطاهر بن عاشور لم يقرّ بأنّ ما في هذا النص من العهد القديم هو الحقيقة، فما الفائدة، إذاً، من إدراجه هنا؟ ألا يقتضي منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم بيان ما تخفيه نصوص العهد القديم حول الموضوع؟

استنتاج:

تبعاً للنصوص والأقوال، التي أدرجناها سالفاً، والتي قال بها المفسرون، أو تلك التي أخذناها من العهد القديم، نستنتج، وفقاً للمقارنة بين النصوص والأقوال، تأثر الطبري بخلفيات نصوص العهد القديم في فهمه وتفسيره لهذا الموضوع الذي نحن بصدده؛ أي قصّة استخلاف آدم، وهو موضوع في غاية الأهمية؛ إذ يتعلّق بحقيقة موضوع استخلاف بني آدم في الأرض، وهو في غاية الأهمية، لكونه يهم الناس جميعاً، إذ إنّ كلّ تزييف أو تحريف لهذا الموضوع سيكون له أثر في تصوّرات الناس في علاقتهم بالخالق، وفي العلاقة فيما بينهم، وفي علاقتهم بالأرض المستخلفين فيها؛ ولهذا جاء القرآن ليجبر الضرر الذي لحق بالموضوع، من خلال نصوص العهد القديم، وإلا فما الفائدة من وروده بشكل أساسيّ من خلال آيات وسور القرآن الكريم.

مع الأسف، نجد أنّ الزمخشري، وابن كثير، والطاهر بن عاشور، بقدر معيّن، لم يخرجوا عن الإطار الذي رسمه الطبري للموضوع، متأثراً بما جاء

(1) المصدر نفسه، ج1، ص430.

في العهد القديم. وكما أشرنا سالفاً، يطرح هذا الأمر أمامنا مشكلة منهجية خطيرة تتعلق بفهم القرآن؛ إذ من المفترض فهم القرآن من خلال نظمه وسوره وآياته، بدل الاستعانة بما تمّ تحريفه وتبديله من نصوص العهد القديم (التوراة)، التي جاءت نصوص القرآن لترفع الضرر عمّا تمّ تبديله وإخفاؤه في تلك النصوص، وإلا فما الفائدة من منهج التصديق والهيمنة الذي يتصف به القرآن عن غيره؟!

3- موضوع الاستخلاف في القرآن الكريم وما عهد الله به لآدم:

يشكّل موضوع استخلاف آدم في الأرض، من داخل سورة البقرة، موضوعاً مهماً من بين الموضوعات؛ التي تطرّقت إليها سورة البقرة، وقد تعرّضت مجموعة من السور الأخرى للموضوع نفسه مذكّرة بني آدم بألّا يعبدوا الشيطان، وأن يحذروا فتنته. ومن الملاحظ أنّ هذا التذكير جاء في سياق ما عهد الله به لبني آدم، ما يعني أنّ موضوع الاستخلاف موضوع يرتبط بموضوع العهد في القرآن.

فمن خلال هذا المبحث، سنتطرق إلى موضوع استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، كما سنبين علاقة موضوع خلافة آدم بما عهد الله به لآدم ولذريته من بعده. ومن المعلوم أنّ هذا الموضوع قد ورد من خلال سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة طه، وسورة الكهف، وغيرها، وبقصد تسهيل فهم الموضوع، والإحاطة بجوانبه، وفقاً لتتبع الآيات القرآنية، ارتأينا تقسيمه إلى خمسة مشاهد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ

أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿33﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿34﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿35﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿36﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿37﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 30-38].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: 115].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿60﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿61﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يٓس: 60-62].

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

- المشهد الأول: إخبار الله الملائكة باستخلاف آدم:

يفيد هذا المشهد أنّ الله -جل وعلا- أخبر الملائكة بأنّه سيسند مهمة الخلافة في الأرض لآدم(1)، ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البَقَرَة: 30]. وقد تساءلت الملائكة عن هذا الأمر بدعوى أنّ آدم

---

(1) ذهب عبد الصبور شاهين، من خلال كتابه: (أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، إلى القول: إنّ آدم يُعدّ أباً للإنسان، وليس أباً للبشر الذين هم خلق حيواني كانوا قبل الإنسان، فاصطفى الله منهم آدم ليكون أباً للإنسان، وقد أباد الله الجنس البشري، فلم يبقَ منهم إلا آدم الذي تمّ اصطفاؤه من البشر، ومن ثمّ يجب التفريق بين آدم، الذي اصطفاه الله، ونفخ فيه من روحه، وسجدت له الملائكة... وبين آدم أبي البشر. وقد استدل عبد الصبور شاهين على طرحه هذا بالكثير من الآيات القرآنية. وقد أثار كتابه هذا كثيراً من الردّ والجدل. عند صدوره في عقد تسعينيات القرن الماضي.

سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء، بقولها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البَقَرَة: 30]، وأسندت لنفسها مهمة التسبيح والتقديس لله جل وعلا، وقولها هذا يتضمّن، من جهة، نوعاً من التشكيك في قدرة آدم على القيام بالمهمّة التي أُسندت إليه. ويتضمّن من جهة ثانية أنّ الفساد وسفك الدماء أفعال تتعارض مع الخلافة في الأرض، وهي محقّة فيما ذهبت إليه، فالملائكة تحفّظت على استخلاف آدم؛ بينما ليس لها أيّ تحفظ، عندما أخبرها الله -جل وعلا- أنه سيخلق بشراً من طين (أي آدم)، فعليها أن تسجد له بعد تسويته، ونفْخِ الروح فيه من لدن الله جل وعلا، بينما إبليس امتنع وتمرّد عن السجود لآدم منذ لحظة الخلق، بعد التسوية ونفخ الروح؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝72 فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝73 إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [صَ: 71-74]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝28 فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝29 فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝30 إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: 28-31]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 34].

وحتى يكون آدم في مستوى هذه المهمة، وهي مهمة الخلافة، علّمه الله الأسماء ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: 31]. وهذا ما تميّز به آدم عن الملائكة؛ إذ أصبح يتصف بالعلم والقدرة على معرفة ما هو مجهول من خلال استقراء ما هو معلوم، إلى درجة أنّه أنبأها بعلم الأسماء التي تعلمها؛ قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: 33]، بينما الملائكة بقيت عاجزة عن أن تفصح عن علم الأسماء التي علم آدم. وعلى هذا الأساس استحقّ أن ينال سجودها، منذ لحظة الخلق والتسوية ونفخ الروح، بقولها للحق جل وعلا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: 32]. فعلمها بالأسماء علم جزئيّ واستثناء من كلّ ﴿إِلَّا

مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، فلا تليق صفة الجهل بمقامها، بينما آدم اتصف علمه بالكلية ﴿كُلَّهَا﴾ التي أهلته لينبئ الملائكة بعلم الأسماء التي تعلمها. وفضلاً عن هذا، ما دام أنّ هناك أسماء متعدّدة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾؛ فهذا يقتضي القدرة على تمييز وفرز بعضها عن بعضها الآخر؛ وما دام الأمر فيه قدرة على الفرز والتميز فهناك حرية إرادة واختيار.

إنّ العلم بالأسماء، الذي علمه الله لآدم، سيحول بينه وبين الفساد في الأرض، إن شاء ذلك، وقد امتنع إبليس بأن يسجد لآدم ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11]. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]. وصار، منذ تلك اللحظة الأزلية، يعمل جاهداً لدفع آدم وذريته لنقض هذا العهد، الذي قوامه الإصلاح بدل الإفساد في الأرض، وسفك الدماء.

إنّ التمعّن في الآيات السالفة يبرز ثلاث مميزات لآدم، وهي: تفرّده بخلافة الله في الأرض، ولا يشاركه في تلك الخلافة حتى الملائكة، وتعليم الأسماء، التي لا يشاركه فيها أحد كذلك، وفضيلة العلم بالأسماء هذه هي التي أهلته، دون غيره، لمشروعية الخلافة في الأرض(1)؛ فأبونا آدم عليه السلام يُعدّ من عباد الله المصطفين بمقام النبوة؛ كما هو الأمر بالنسبة إلى سيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وآل عمران؛ فذريّة نوح من ذرية آدم، وذرية إبراهيم من ذريّة نوح... عليهم السلام جميعاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿33﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: 33-34]، والاصطفاء هنا هو اصطفاء من أعلى ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(1) الزوادي، محمود، وعلم آدم الأسماء كلها: في ميزان نظرية الرموز الثقافية، مجلة إسلامية المعرفة، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد 75، شتاء 2014م، ص165.

- **المشهد الثاني: حوار الله -سبحانه- وإبليس:**

طبيعه نوع الحوار، الذي دار بين الله وإبليس، ومفاده اعتراض إبليس على أن يسجد لآدم كباقي الملائكة؛ بعد التسوية ونفخ الروح فيه من لدن الله جل وعلا؛ و، في الوقت ذاته، اعتراضه على مشروعية خلافة آدم في الأرض، وسعيه للعمل على فشل آدم. ويتجلّى هذا من خلال الحوار الآتي، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿74﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿75﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿76﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿77﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿78﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿79﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿80﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿81﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿82﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [صٓ: 74-83].

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿31﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿32﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿33﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿34﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿35﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿36﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿40﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿41﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: 31-42].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿61﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿62﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿63﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿64﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: 61-65].

- **المشهد الثالث: الدرجة الأعلى في الاستخلاف:**

بعد امتناع إبليس عن السجود لآدم، وعدم اعترافه لآدم بمشروعية الخلافة في الأرض؛ وبعد انتهاء المقابلة بين آدم والملائكة، ابتدأ آدم وزوجه القيام بالمهمة الموكولة إليهما، وهما في أعلى درجات الاستخلاف بالسَّكن في الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 35]. وقد تلقّى آدم وزوجه أوّل نهيٍ بألّا يقربا الشجرة، وأول أمر بأن يأخذا الحذر من (إبليس) الذي كان يعمل على إخراجهما من الجنة، بعد امتناعه عن السجود لآدم، وبأن يأكلا من الجنة رغداً، وألّا يقربا الشجرة فيكونا من الظالمين. وقد جاءت وصية الله لآدم وزوجه كالآتي: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 117].

- **المشهد الرابع: وسوسة الشيطان لآدم وزوجه:**

بعد قدرة آدم وتمكّنه من العلم بالأسماء، تولّى مهمة الخلافة في الأرض في أعلى درجاتها، وهي الجنة، التي تتميّز بغياب الجوع، والعطش، والبرد، والحر، فآدم، على هذه الحال، لا يتأثر بتبعات الطبيعة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿118﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: 118-119]. وبخروجه من هذه الحالة والدرجة (الجنة) سيشقى من أجل المأكل والمشرب والملبس، وهذا يجعل من المهمة الموكولة إليه أكثر صعوبة.

فالشجرة المنهيّ عن الأكل منها تحمل بعداً رمزياً يشكّل الحدّ الفاصل بين مستويات الاستخلاف، والأكل منها يرمز إلى الطبيعة التي لا تعرف الرحمة ولا الشفقة؛ فهي مبنية على قوانين صارمة لا تحابي أحداً، ولا تتحيّز لأحد دون آخر، فقد يواجه الإنسان، من خلالها، تحدّي البرد والحر، وتحدّي المأكل والمشرب، إلى غير ذلك من القضايا والأمور، التي تدفعه ليعيش المغامرة في صلته بمقتضيات الطبيعة[1]، بقصد تسخيرها وتطويعها لمتطلباته

(1) تشريعات العائلة في الإسلام، (م.س)، ص96-97.

اليومية، وهنا يكمن مصدر الابتلاء لآدم ولذريته من بعده. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 155-157].

فالطبيعة لا تتوافق مع العيش الرغيد، الذي لا يكلّف صاحبه جهداً كبيراً، فقد حُرم آدم وزوجه الرزق الرغيد، فبعد أكلهم من الشجرة، عملوا على الاحتماء بأوراق شجر الجنة، لعلّه يقيهم الحر والبرد (وما دون ذلك)، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: 112]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: 58].

فالتعامل مع الطبيعة ينبغي أن يكون في إطار العلم بأسمائها وقوانينها بدل الجهل والغفلة التي تسقط الإنسان في استلابها، إلى درجة أنّه يعتقد بألوهية بعض تجلياتها، كالشمس، والقمر، والنار، ويعطيها أسماء خارجة عن سلطان العلم والمعرفة، التي انبنى عليها تفضيله واصطفاؤه من بين الخلق؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النّجم: 23].

فأساس تفضيل آدم على غيره من الخلق يعود إلى درجة العلم، التي علمه الله إياها قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: 9]، والله يرفع الذين أوتوا العلم درجات؛ قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

وبعد أن استحوذ الشيطان(1) على آدم وزوجه بوسوسته، وأنساه أهمية

---

(1) تحدّث القرآن، في ثمانية وستين موضعاً، عن الشيطان، بلفظ المفرد «الشيطان»، =

العلم بالأسماء في التعاطي مع ما هو مستخلف فيه، أكل هو وزوجه من الشجرة المنهي عنها، ما شكّل حدثاً وتحولاً مفصلياً في حياة آدم، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 120-121]. وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

= وفي أحد عشر موضعاً بلفظ الجمع: «الشياطين». وفي جميع هذه المواضع يجيء الحديث عن الشيطان أو الشياطين في مقام التحذير من الضلال والغواية للإنسان من كيد الشيطان...﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: 53]. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6] . وهذه العداوة، التي بين الشيطان وآدم، وذرية آدم، هي امتداد لتلك العداوة التي حملها إبليس لآدم، حين امتنع عن السجود له مع الملائكة، كما أمره الله، وكان ذلك سبباً في أنْ لعنه الله، وطرده من الجنة. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، ويقول -سبحانه- عن الشيطان، وهو يوسوس لآدم، ويغريه بالخروج عن أمر ربه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120]. ويقول سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20]. وهنا يبدو الشيطان وإبليس وكأنهما اسمان لذات واحدة، فما عُرف إبليس إلا بهذا الوجه المنكر الملعون، وما عُرض الشيطان إلا في هذه الصورة الكريهة المخيفة». انظر: الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت.ط)، ج1، ص56. والذي يؤكّد أنّ مفردة «شيطان» تُعدّ امتداداً لمفردة «إبليس»، وأنّ المفردتين تدلان على ذات واحدة، قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 20-21]. وظنّ إبليس أنّ هذا يكمن في المهمّة التي اختارها لنفسه. جاء في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16-17].

ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 20-22]. وبهذا نقض آدم العهد الذي عاهده الله إياه، وهبط من درجة الجنة إلى درجة الحياة الدنيا.

- **المشهد الخامس: لحظة الهبوط:**

بعد أكل آدم وزوجته من الشجرة، التي نهى الله عن الاقتراب منها، حقّ عليه الهبوط من أعلى درجات الاستخلاف في الأرض، وهي الجنة، إلى ما هو أقل منها درجة، وهي درجة الحياة الدنيا، التي تتصف بالزوال بدل الخلود الذي أغراهما به إبليس (الشيطان)، وهذا هو الوصف الذي أعطاها إياه القرآن؛ قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: 20]. فالدنيا، وكلّ ما تحتوي عليه، محكومة بالسيرورة الزمنية، التي تقتضي التبدل والتغير إلى درجة الفناء والزوال (الموت). قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿26﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمٰن: 26-27]، كما أنها تتشكل من ثنائيات ضدية متقابلة من بينها ثنائية الخير والشر، الإيمان والكفر، الحلال والحرام، العلم والجهل، الأمن والخوف، الجميل والقبيح... قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿19﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿20﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فَاطِر: 19-21].

فالفعل الإنساني، في بعض تجلياته، ما هو إلا نوع من التفاعل بين هذه الأضداد المتقابلة، التي لا وجود لها في الجنة ذات العيش الرغيد، والمتصفة بالبقاء والخلود، وهذا هو البعد الذي أغفله آدم، بعد أن صدق الشيطان في دعوته، والتي مفادها أنّ الخلود والبقاء خارج عن مكانة الجنة التي تحتضنه؛ قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120].

إن آدم، بعد هبوطه من الجنة، صار يسري عليه قانون الزمن والسيرورة، وصارت أفعاله، وأفعال ذريته من بعده، محور الحدث التاريخي؛ فلولا وجود الإنسان على الأرض لم يحصل هناك شيء اسمه التاريخ؛ فالإنسان هو الفاعل في التاريخ، وفق مكسب الحرية والاختيار، الذي تميز به عن غيره من الخلق، فالملائكة سابقة لآدم في الوجود، ولكن؛ لكونها لا تتصف بالحرية والاختيار، بقيت عاجزة عن صناعة التاريخ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التّحْريم: 6].

إنّ الملائكة، التي تحرس النار، ليس لديها الخيار في أن تفعل، أو لا تفعل، فهي منفذة بدقة لفعلٍ لا يمكن أن تتصرّف فيه، وكذلك الشيء نفسه مع الملك جبريل، الذي ينقل الوحي بأمانة، دون زيادة ولا نقصان؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: 192-194]، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التّكوير: 19- 21].

وفقاً لما سبق، يمكننا القول: إنّ آدم فتح باب التاريخ، من خلال حدث أكله من الشجرة المنهيّ عن الأكل منها، بغضّ النظر عن القيمة الأخلاقية للفعل، الذي يحمل صفة المعصية، ومخالفة الأمر الإلهي، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121]، فكانت المعصية هي الفعل والحدث التاريخي الأول، الذي هبط آدم بموجبه من أعلى درجة إلى ما هو أدنى منها، وعليه، الفعل الإنساني يتجاذبه طرفان هما الخير والشر. والجدير بالذكر، هنا، أنّ الفعل الإنساني ذو قيمة أخلاقية ومعنوية تنتهي بالخلود فيما بعد الموت، فالخير والعمل الصالح يفضي إلى جنة الخلد، والظلم يفضي بصاحبه إلى الخلد في نار جهنم؛ قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا

قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 25]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 39].

وحتى لا يضلّ الإنسان الطريق، أنعم الله عليه بكلمات الهدى، التي تذكره بما عهد الله به إلى بني آدم بأن لا يعبدوا الشيطان، وقد أوحى الله بها إلى الأنبياء والرسل، بدءاً من آدم، الذي تلقى من ربه كلمات، ولا شكّ في أنها من جنس الوحي الذي تلقاه الأنبياء، مثل تلقي محمد ﷺ للقرآن. أما عن فحواها، فالسياق يسعفنا في القول: إنها تذكير بما عهد الله به إلى آدم بأن يأخذ الحذر من الشيطان، الذي يعمل على أن يحول بينه وبين أمانة الخلافة، التي تستوجب الإصلاح بدل الفساد؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

إنّ الإنسان والوجود كلّه يرتبط عبر الخلق بالخالق، فالوجود كله، ما عدا الشيطان، خلق مُصمم بقصد تمكين الإنسان من القيام بدوره، والتحرك بحرية نحو غاية خلقه. فالقرآن يخبرنا بكون الشيطان عدواً للإنسان، وعلى الإنسان أن لا يثق إلا بالكون وبالقرآن، وهو يحاول معرفة طريقه، وصدق اتجاهه لابتهاج الحياة وكرمها، كما عليه أن يتواصل مع الوجود عبر المصطلحات الكونية في القرآن، التي تجعل ذلك التواصل نوعياً، مثمراً، وفي غاية الإصلاح بدل الفساد(1).

لقد انتقل آدم من مرحلة تعليم الأسماء، في بداية عهده، إلى مرحلة تلقّي الكلمات، التي بمقدوره أن يفكّ رموزها، وأسماءها، ومسمياتها، في علاقة الأشياء والظواهر بعضها ببعض. وعلى هذا الأساس، إنّ الكلمات والوحي، اللذين جاء بهما الأنبياء والرسل، ما هما إلا سند وعون للإنسان في القيام

(1) الإنسان والقيم العليا: رؤية معرفية، بحث مقدّم في أعمال الندوة العلمية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، (م.س).

بمهمة أمانة الخلافة، ولم ينقطع حبل الصلة بين تلقي آدم لكلمات ربه، وتلقي محمد ﷺ للقرآن الكريم، بما أوحي به من كتب الهداية إلى الأنبياء والرسل، كما دلت الآية (37) من سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والآية (6) من سورة النمل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾. وقد استمرّ آدم في تحمّل أمانة الخلافة بعد معصيته السالفة، ولم يثبت أنّ آدم وزوجه أساءا في أداء مهمّة الخلافة، بعد فشله الأول، الذي كان له ولذريته فيه عبرة أزلية.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿24﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 24-25].

قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

خلاصة:

إنّ المشاهد الخمسة تجعلنا أمام أربع زوايا للفعل والإرادة، فيما يخصّ هذا الحدث الأزلي:

- **الزاوية الأولى:** المهيمنة على الحدث، والمتحكّمة فيه إلى درجة صياغته، هي الله -عز وجل- الذي اقتضت إرادته استخلاف آدم في الأرض، وقد أخبر الملائكة بذلك، و«أقنعها» بجدوى إرادته في الموضوع بعد أن علّم آدم الأسماء كلّها.

- **الزاوية الثانية:** متعلّقة بالملائكة، التي تمحور فعلها في تزكية مشروعيّة آدم في الخلافة، وصارت مؤيّدة للموضوع، ومدعّمة له، من خلال سجودها لآدم، الذي علّمه الله الأسماء. أمّا هي، فلم يكن لها من خيار في الفعل إلا التقديس والحمد.

- **الزاوية الثالثة**: يمثّلها إبليس (أي الشيطان، وسمّي الشيطان نتيجةً للفعل الذي يقوم به تجاه آدم وذريته، فهو يعمل على إبعاد ذريّة آدم عن الحق والصواب، فالشيطنة هي الإبعاد، والاعتراض، والتضليل)، الذي اعترض على مشروعية آدم في الخلافة بعدم السجود له، وألحّ على أن يكون عدواً وخصماً لآدم في مهمّته، وقد طلب من الحق -سبحانه- أن لا يمنعه من فعل الشيطنة لآدم وذريته، وكان جواب الله أنّ عباده ليس له عليهم سلطان، إلا من تبعه من الغاوين والخاسرين، وانطلق، بعد ذلك، في مهمته، ولم يعد له الخيار في الفعل إلا المعصية، والسعي إلى الفساد والإفساد.

- **الزاوية الرابعة**: ترتبط بآدم، الذي أُوكلت إليه مهمّة الخلافة في الأرض، بعد أن تمّ تأهيله بالعلم بالأسماء، وبعد أن عهد الله إليه بالحذر من إبليس، الذي عليه أن يتخذه عدواً. وبهذا الشكل، آدم في موقع الفعل، الذي يتجاذبه فيه طرفان، طرف الملائكة المؤيدة له، وطرف إبليس، الذي يعمل جاهداً ليحيل بينه وبين إتقان مهمة الخلافة، بدفعه إلى المعصية، وما يترتب عليها من الفساد، وسفك الدماء. وحتى يكون لآدم فعل إيجابي نابع من ذاته وكينونته، عليه أن يُعرض عن فعل الشيطان، ويتحيّز إلى فعل الملائكة القائم على التسبيح والتقديس، وهذه هي الغاية من تعليمه الأسماء، التي من مقتضياتها الحرية والخيار في الفعل والإرادة، التي عليها آدم، عكس ما عليه الملائكة، وما عليه إبليس.

يدفعنا السياق، الذي تتمحور فيه القصة، إلى فهم أنّ ما عهد به الله إلى آدم يتمحور حول خلافته في الأرض، التي قوامها الإصلاح والإعمار، بدل الفساد وسفك الدماء، وفحوى هذا العهد، الذي عهد الله به إلى آدم، هو أن يحذر من إبليس (الشيطان)، وهو عنصر نقيض للملائكة، ففي الوقت الذي مثّلت فيه الملائكة جانب الخير في إقرارها مشروعيّة استخلاف آدم بسجودها له، بعد أن ظنّت أنه سيفسد، ويسفك الدماء، مثّل إبليسُ (الشيطان) جانبَ

الشر، وكان همّه الأكبر أن يوقع آدم في معصية الفساد، وسفك الدماء، وأن ينسيه ويشغله عن العلم بالأسماء، وهو الركن الأساسي، الذي أقيمت عليه خلافة آدم في الأرض، في أعلى درجاتها، وهي الجنة القائمة على النهي من الاقتراب من الشجرة، وقد نجح إبليس في إغراء آدم بأكله من الشجرة، فحقّ عليه بذلك الهبوط من درجة الجنة إلى درجة الحياة الدنيا.

وبهذا، نسي آدم ما عهد الله به إليه، فناداه الله جل وعلا، معاتباً إياه، نتيجة نقضه ما عهد إليه به، بقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

4- الخطاب القرآني والاسترجاع النقدي لموضوع استخلاف آدم:

بعد عرض الصورة، التي يتضمنها العهد القديم لموضوع خلق السموات والأرض، وما تبعه من خلق آدم وزوجه، وسكنهما في الجنة، وكذلك بعد عرض الصورة، التي يتضمنها القرآن الكريم لموضوع استخلاف آدم، وجدنا أنفسنا أمام صورتين للموضوع. وحتى نعمل على بيان وتجلية الرؤية القرآنية للموضوع، بالوقوف عند أوجه التصديق والهيمنة، التي قام بها القرآن الكريم، في علاقته بما سبقه من الكتاب (أي نصّ التوراة كما هو بين أيدينا اليوم). أدرجنا، في الجدول التالي نظرة كلّ من العهد القديم والقرآن الكريم لمختلف الأجزاء المكوّنة لموضوع استخلاف آدم، وذلك لنخلص إلى بيان أوجه التصديق والهيمنة التي قام بها القرآن الكريم.

■ **الموضوع: خلق السموات والأرض:**

• **العهد القديم:**

تحدّث نص العهد القديم عن خلق السموات والأرض، ومن البين والواضح أنّ نص العهد القديم قد أخضع عملية الخلق هذه لبرنامج من لدن

الخالق، إلى درجة أن الخالق قد استراح في اليوم السابع من الأسبوع، نتيجة ما لحقه من التعب، بعد عملية الخلق هذه، وهذا أمر لا يليق بمقام الله جل وعلا. ورد في سفر التكوين: «2- وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. 3- وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً»[1].

• القرآن:

تحدّث القرآن الكريم عن كون الله -جل وعلا- قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، دون أن يترتب على ذلك أيّة صفة من صفات البشر؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿38﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [قٓ: 38-39].

• ما صدقه القرآن وهيمن عليه:

التصديق يتجلّى من حيث الموضوع بالاعتراف، وتأكيد أنّ الله هو خالق السموات والأرض.

والهيمنة تتجلّى في إخراج الموضوع من دائرة ما يجري على الإنسان من نواميس الكون، التي تجعل منه خلقاً يتصف بالضعف، وما شابه ذلك من صفات التعب وغيرها. إلى دائرة الخالق جل وعلا. وعليه يُعدّ الكون فضاء للتدبر، والتمعن، والدراسة، والبحث لمعرفة عظمة الخالق، وهذا هو المعطى المغيّب في نصّ العهد القديم، وهو يتحدّث عن خلق السموات والأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 164].

(1) سفر التكوين، 2: 1 إلى 4.

• **ملاحظات:**

لا يليق بمقام الله -جل وعلا- أن نلحق به ما يتصف به عباده من صفة التعب والحزن والفرح... وغيرها من الصفات البشرية.

هناك خلط كبير في نصّ العهد القديم ما بين خلق الكون وخلق آدم.

■ **الموضوع: خلق الإنسان - وخلق المرأة:**

• **العهد القديم:**

جاء في نص العهد القديم أنّ الله خلق الإنسان شبيهاً له في الصورة، بمعنى أنّ لله له صورة على شبه من الإنسان، والمقصود من الإنسان، هنا، الذي خلقه الله، شخص آدم. جاء في سفر التكوين من العهد القديم: «26- وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»[1].

أما فيما يتصل بخلق المرأة، فقد جاء في نصوص العهد القديم كون الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم «21- فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. 22- وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. 23- فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت. 24- لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»[2]. أما عن المادة، التي خلق منها آدم، فالعهد القديم حددها في مادة التراب «7- وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية»[3].

---

(1) سفر التكوين، 1: 26.

(2) المصدر نفسه، 2: 21 إلى 24.

(3) المصدر نفسه، 2: 7.

• القرآن:

ليس هناك نصّ في القرآن الكريم بأكمله يشير إلى كون الإنسان خُلق على شبه من الله جل وعلا، فالله، فعلاً، خلق الإنسان على أحسن صورة، وفي أحسن تقويم، ثمّ أرجعه أسفل سافلين، باستثناء المهتدين الذين يعملون الصالحات؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التِّين: 5-6].

وليس في القرآن آية تشير إلى كون الله خلق امرأة من أضلاع آدم، وإنما تحدث القرآن عن خلق الناس من نفس واحدة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: 1]. أما عن المادة، التي خلق منها الإنسان، فقد حددها القرآن في التراب، وهذا يجعلنا ندرك أن المركب الأولي للنفس البشرية، بما في ذلك الجسد، هو مادة التراب، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرَّحمٰن: 14].

• ماصدقه القرآن وهيمن عليه:

تصديق القرآن يتجلّى من حيث عنوان الموضوع «الله خالق الإنسان».

أمّا وجه الهيمنة، فيتجلى في تحرير الموضوع ممّا لحقه من كون الإنسان مخلوقاً على صورة الله، فالله -جل وعلا- ليس له صورة كما هو الإنسان الذي خلقه الله على أحسن صورة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8]، فالله -جل وعلا- ليس كمثله شيء، تعالى الله عما يصفون؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: 11].

وتصديق القرآن وهيمنته تتجلّى في بيان موضوع أنّ الناس خُلقوا من نفس واحدة. لقد تحدث القرآن بأنّ الله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة (دون أن يميز بين الذكور والإناث)، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم

مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: 1].

وقد خلق من النفس الواحدة زوجها؛ فالنفس، هنا، في الأول غير خاضعة لقانون الزوجية؛ إذ كانت لا يسري عليها القول: هل هي ذكر أم أنثى، ولكن، في المرحلة الثانية من الخلق، جعلت تحت نظام الزوجية، إذ خلق من النفس زوجها. والزوج، هنا، تفيد الذكر والأنثى معاً، فهما يشكلان زوجاً. ونشير، هنا، إلى أن القرآن يميز بين الجسد والنفس، فالنفس بمنطق القرآن قابلة للتزكية والتدسية، وغير ذلك، بينما الجسد ما هو إلا حامل للنفس. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشَّمس: 7-10]. وبهذا يسقط ما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء؛ فإنّ المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء».

وقد صدق القرآن العهد القديم في أنّ المادة؛ التي خلق منها الإنسان، هي التراب.

- **ملاحظات:**

لا يليق بمقام الله أن يكون له شبه من الخلق، فنصّ العهد القديم، مرة أخرى، أسقط ما يخصّ الإنسان على ذات الخالق، فالشبه وغيره من خصوصيات المخلوقات التي خلقها جل وعلا.

وخلق المرأة من ضلع من أضلاع آدم أمر لا يستقيم، وفيه إساءة للمرأة، ولكينونتها، وقد خلطت نصوص العهد القديم بين مفهوم النفس ومفهوم الجسد، فضلاً عن مفهوم الروح.

■ الموضوع: السكن في الجنة:

• العهد القديم:

تحدّثت نصوص العهد القديم عن الجنة بشكل حسيّ، إلى درجة تحديد مكانها، والجهة التي تقع فيها، كأنها مكان معلوم إلى يومنا هذا؛ جاء في العهد القديم «8- وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم، الذي جبله 9- وأنبت الرب الإله من الأرض كلّ شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر»[1].

• القرآن:

حدّد القرآن مهمة آدم في أن يجعله مستخلفاً في الأرض. جاء في الآية (30) من سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وحتى يؤهّل آدم لموضوع الاستخلاف هذا، أنعم عليه بأن علمه الأسماء كلها؛ جاء في الآية (31) من سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بعد كل هذا، اقتضى قول الله، ومشيئته استخلاف آدم في الأرض على أعلى مستويات ودرجات الاستخلاف، وهي درجة الجنة. جاء في الآية (35) من سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

• ما صدقه القرآن وهيمن عليه:

تصديق القرآن، هنا، يتجلى من حيث الموضوع، وهو سكن آدم في الجنة. أما ما هيمن القرآن عليه؛ فقد أعطى مفهوماً آخر للجنة بدل المفهوم الحسي، الذي كان لها في نصوص العهد القديم، فالله استخلف آدم في الأرض. أما السكن في الجنة فما هو إلا درجة عليا من درجات الاستخلاف. ومن أوجه الهيمنة كذلك كون القرآن ربط الموضوع؛ موضوع سكن آدم في

---

(1) سفر التكوين، 2: 8-9.

الجنة، بغاية الخلافة في الأرض، كما عرض القرآن لاستشارته للملائكة، ومدى معارضة إبليس لمهمة استخلاف آدم، وكل هذه القضايا الأساسية مغيبة في نصوص العهد القديم.

- **ملاحظات:**

- التعاطي مع الجنة مكاناً معروفاً وضع فيه آدم.
- ليس هناك أية إشارة إلى موضوع استخلاف آدم في الأرض.
- ليس هناك أية إشارة إلى موضوع استشارة الله للملائكة حول موضوع استخلاف آدم في الأرض، والحوار الذي دار بينهم وبين الحق سبحانه.
- ليس هناك حديث عن الأسماء التي علمها الله لآدم.
- ليس هناك أية إشارة أو حديث حول اعتراض إبليس لاستخلاف آدم في الأرض.

■ الموضوع: النهي عن الاقتراب من الشجرة:

- **العهد القديم:**

لم تتحدث نصوص العهد القديم عن العهد، ولكن تحدّثت عن وصية الله لآدم؛ جاء في نصوص العهد القديم: «16- وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. 17- وأمّا شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها؛ لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت»[1].

- **القرآن:**

البقاء على أعلى درجات الاستخلاف، وهي درجة الجنة، جاء مشروطاً من لدن الله -جل وعلا- بعدم الأكل من الشجرة، فالشجرة هنا لا تعني بالضرورة نوع الأشجار التي نراها في الحقول، بل لها بعد رمزي ومعنوي؛ قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 35].

---

(1) سفر التكوين، 2: 17، 16.

• **ما صدقه القرآن وهيمن عليه:**

وجه التصديق، هنا، في نصوص القرآن، يرتبط بعنوان الموضوع؛ فنصوص العهد القديم أوردت أنّ هناك شجرة منهيّ عن الأكل منها، وهو المعطى نفسه، الذي أوردته آيات القرآن، ولكن الشجرة المنهيّ عنها، في نصوص العهد القديم، ليست هي صورة الشجرة نفسها، التي تحدّث عنها القرآن. لقد هيمن القرآن على الموضوع بحديثه عن الأكل من الشجرة، دون أن يحدّد طبيعتها وماهيّتها، بينما نصّ التوراة سماها شجرة المعرفة، في الوقت الذي تخبرنا فيه الآيات القرآنية بأنّ الله علّم آدم الأسماء كلّها، ما يعني أنّها ليست شجرة المعرفة.

■ **الموضوع: لحظة الهبوط:**

• **العهد القديم:**

تفرّقت مسؤوليّة خرق وصية النهي عن الأكل من الشجرة المنوطة بآدم، في نصوص العهد القديم، بين ثلاثة أطراف: الحية، والمرأة، وآدم. جاء في نصوص العهد القديم: «12- فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة، فأكلت. 13- فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت»[1].

• **القرآن:**

أشار القرآن الكريم إلى أنّ الشيطان له دور في فتنة آدم وزوجته، وإخراجهما مما كانا فيه؛ قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

• **ما صدقه القرآن وهيمن عليه:**

يصدق القرآن على طبيعة التحوّل، الذي حصل في موضوع سكن آدم في

(1) سفر التكوين، 3: 12، 13.

الجنة، بسبب اقترابه من الشجرة المنهيّ عنها. ولكنّ القرآن هيمن على الموضوع؛ إذ ربط سبب الأكل من الشجرة بما قام به الشيطان، وهو عدوّ لآدم ولذريّته من بعده، وقد حرّر الموضوع ممّا لحق به من أنّ الحية كانت وراء الموضوع، وأن المرأة هي التي ورّطت زوجها،... وقد بيّن القرآن أنّ المرأة ليست مسؤولة عن الأكل من الشجرة وحدها، كما توحي بذلك نصوص العهد القديم، فالمسؤولية عن الاقتراب من الشجرة مسؤولية مشتركة بين آدم وزوجه، قال تعالى، في الآية (36) من سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وقال أيضاً، في الآية (20) من سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

من أوجه هيمنة القرآن على الموضوع، كون القرآن تحدث عن هبوط آدم من الجنة، ومفردة الهبوط لها حمولة معنوية من داخل آيات القرآن الكريم، فبنو إسرائيل تمّت مخاطبتهم بالهبوط إلى مصر، وذلك لاستبدالهم بالدرجة العليا من الطعام الدرجة الأدنى. جاء في الآية (61) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾، فاستبدالهم بما هو أعلى ما هو أدنى منه ترتّب عليه هبوطهم في درجة الطعام لما سيجدونه في مصر.

- **ملاحظات:**

تمّ تغييب الشيطان بالكامل عن كونه سبباً في حدث الأكل من الشجرة.

لم يتحدّث العهد القديم عن لحظة هبوط، وإنّما تحدث عن طرد الله لآدم من الجنة مخافة أن يأكل من شجرة أخرى، وهي شجرة الخلد بعد أكله من شجرة المعرفة.

يبدو من نصوص العهد القديم كون المرأة سبباً في معصية آدم.

■ الموضوع: القرآن يذكّر بالعهد الذي عهد به الله لآدم:

• العهد القديم:

لم تتحدّث نصوص العهد القديم عن ما عهد الله به لآدم، إلا أنّ هناك إشارة، في سفر هوشع، تفيد أنّ آدم قد تعدّى العهد مفادها: «7- ولكنهم كآدم تعدّوا العهد»[1]. وليست هناك أية إشارة، في العهد القديم، أو توضيح عن ماهية هذا العهد الذي تعداه آدم.

• القرآن:

نفهم، من خلال قصة استخلاف آدم، أنّ الشيطان كان مصمماً على أن يحيل بينه وبين إتقان هذه المهمة. جاء في الآية (36) من سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ولقد عهد الله لآدم ولذريته ألا يعبدوا الشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]؛ أي عهد إليه أن لا يعبد الشيطان فنسي هذا العهد، ما كان سبباً في هبوطه من الجنة. وهذا العهد لا ينحصر في آدم؛ بل يمتد في ذريته من بعده لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61].

• ما صدقه القرآن وهيمن عليه:

تمّ إخراج الموضوع وتحريره ممّا لحقه من الزوائد، التي يبدو أن لا علاقة لها به؛ مثل الحية وغيرها... وتمّ إرجاع الموضوع إلى محوره الحقيقي، الذي يتعلق بكون الشيطان أخذ على نفسه أن يفتن آدم وذريته من بعده، حتى يحول بينهم وبين القيام بمهمة الخلافة على أحسن وجه، وقد عهد الله إلى آدم وذريته من بعده أن لا يعبدوا الشيطان. وقد تمكّن الشيطان

---

(1) سفر هوشع، 6: 7.

بفعله أن يخرج آدم من الجنة. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: 36].

■ الموضوع: القرآن يذكّر بتوبة الله على آدم:

• العهد القديم:

لم تتحدّث نصوص العهد القديم عن موضوع توبة الله لآدم، وقد انحصر حديثها حول طبيعة الجزاء الذي سيلحقه الله بالحية، وبالمرأة، وبآدم. فكان جزاء الحية:

«14- فقال الرب الإله للحية: لأنّك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كلّ أيام حياتك»[1]. وجزاء المرأة: «16- وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك»[2]. وجزاء آدم: «17- وقال لآدم: لأنّك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كلّ أيام حياتك. 18- وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. 19- بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى تراب تعود»[3].

• القرآن:

جاء في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿37﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البَقَرَة: 37-38]. وقال أيضاً: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ

(1) سفر التكوين، 3: 14.

(2) المصدر نفسه، 3: 16.

(3) المصدر نفسه، 3: 17 إلى 19.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا
يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 123-125].

• ما صدقه القرآن وهيمن عليه:

هيمنة القرآن على الموضوع تتجلّى في إرجاعه إلى غائيته؛ بالتذكير بالتوبة، التي تاب الله على آدم، بعد أن تلقى كلمات الهداية منه سبحانه. كما تتجلى كذلك بالتذكير بأنّ حبل الهدى من الله لعباده لم ينقطع، فاتباع ما جاءت به الرسل والأنبياء يترتّب عليه الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، بينما الإعراض عن ذكر الله، وعن هديه، يترتب عليه الشقاء في الدنيا والآخرة.

ومن أوجه الهيمنة، كذلك، كون القرآن ربط موضوع استخلاف آدم بالدنيا والآخرة، بينما نصوص العهد القديم قد حصرته فيما هو حسّي في إبعاد الحديث عن اليوم الآخر.

• ملاحظات:

تحدّثت نصوص العهد القديم عن عقوبة دنيوية كانت، بالنسبة إلى آدم، أن يشقى من أجل جلب رزقه، وكانت عقوبة المرأة الوجع الذي يأتيها عند مخاض الولادة. أمّا جزاء الحية، فهو أنّها لعنة من كلّ مخلوقات الأرض، فتأكل التراب، وتمشي على بطنها.

خلاصة واستنتاج:

يتّضح، من خلال الجدول الذي عرضنا من خلاله للصورة، التي يتضمّنها كلّ من نصّ العهد القديم، وآيات القرآن الكريم، للموضوع الذي نحن بصدده، أنّ القرآن الكريم قد عمد إلى بناء الموضوع من جديد، وذلك بالعمل على تحريره ممّا لحق به من الزوائد والإضافات، التي ليست من

صلبه، فقد أظهر القرآن الكريم ما أخفته نصوص العهد القديم من الحقائق، والغايات، والمقاصد المرتبطة بموضوع استخلاف آدم.

فالغاية، التي استُخلف من أجلها الإنسان في الأرض، تكمن في الإعمار والإصلاح، بدل الفساد وسفك الدماء، وهي الحجة، التي كانت للملائكة في اعتراضها على مهمّة استخلاف آدم، وقد تخلّت عنها، بعد أن أنعم الله على آدم بالعلم بالأسماء، هذا فضلاً عن أنّ الله عهد لآدم ولذريته من بعده ألّا يعبدوا الشيطان، ومن المعلوم أنّ الشيطان قد أخذ على نفسه أن يقف عثرة أمام آدم، بأن يحول بينه وبين مهمة الخلافة، وقد كان مصمماً على هذا الفعل منذ أن أوكل الله لآدم مهمة الخلافة.

وقد بيّنت نصوص القرآن الكريم أنّ الشيطان كان سبباً في فتنة آدم بأكله من الشجرة المنهيّ عنها، وبهذا حقّ عليه الهبوط، إلا أنّ الله تاب عليه، وبقي عهد الله لآدم، ولذريّته من بعده، ساري المفعول. وللتذكير بهذا العهد، أنعم الله على بني آدم بالهداية، التي يحملها إليهم من بعث فيهم من الأنبياء والرسل، فما جاء به الأنبياء والرسل يتضمّن سبل الهداية للناس بألا يتبعوا خطوات الشيطان، وأن يعمروا الأرض، ويصلحوا فيها، وألا يفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء، وكلّ هذا فيه تذكير بالعهد الذي عهده الله لآدم ولذريته من بعده ألا يعبدوا الشيطان. وقد ذكّرت آيات القرآن، من خلال سورة البقرة، بما عهد الله به لنبيه إبراهيم أن يطهر بيته للطائفين، وللعاكفين، وللركع السجود، وهذا ينسجم مع الإعراض عن عبادة الشيطان، وهو الطلب الذي طلبه إبراهيم من أبيه ألا يعبد الشيطان...

والغريب أنّ نصوص العهد القديم قد أبعدت سياق موضوع العهد المتعلّق بإبراهيم عن سياقه الحقيقي، وربطته بأمور أخرى. ولأهميّة هذا الموضوع (ما عهد الله به لإبراهيم) من خلال سورة البقرة، سنتوقّف عند الصورة، التي رسمتها له نصوص العهد القديم، لنلقي الضوء، في الفقرات الآتية عند الصورة التي رسمها القرآن للموضوع.

المبحث الثاني

ما عهد الله به لإبراهيم ولذريته من بعده

1- العهد مع إبراهيم من خلال أسفار العهد القديم:

العهد بكثرة النسل وملكية الأرض:

يُعدّ إبراهيم شخصية مهمّة في أسفار العهد القديم، فإليه ينتسب أنبياء بني إسرائيل، ويَعدّون أنفسهم من ورثة عهده، وأَوْلَى بالانتساب إليه من غيرهم. فعندما صار عمر إبراهيم (99) سنة، ظهر له الربّ، وأخبره أنه هو الله الذي ظهر له، وجعل العهد بينهما، والغاية والهدف من هذا العهد، الذي صار بين الله وإبراهيم، هو الكثرة التي ستتجلّى في ملك إبراهيم، وفي نسله، الذي سينمو ويكثر، ويصير له أبناء كثر وحفدة، ويتحوّل، بذلك، إبراهيم إلى أب لجمهور واسع من الأمم والملوك، التي تخرج من نسله. جاء في سفر التكوين: «1- ولمّا كان أبرام ابنَ تسعٍ وتسعين سنةً ظهر الرب لأبرام، وقال له: أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملاً. 2- فأجعل عهدي بيني وبينك، وأكثرك كثيراً جدّاً. 3- فسقط أبرام على وجهه، وتكلم الله معه قائلاً: 4- أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. 5- فلا يُدعى اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم؛ لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم؛ 6- وأثمرك كثيراً جداً، وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون»[1].

ومن أهمّ مقتضيات العهد، الذي عهد الله به إلى إبراهيم، حيازة أرض كنعان ملكاً أبدياً لإبراهيم ولنسله من بعده، وكذلك ألوهية الله لإبراهيم ولنسله من بعده؛ بينا الله -جل وعلا- إله للعالمين؛ تعالى الله عما يصفون. ولكون هذا الحدث يُعدّ حدثاً مفصلياً في حياة إبراهيم، غيّر الله اسمه من أبرام إلى إبراهيم. جاء في سفر التكوين: «7- وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في

(1) سفر التكوين، 17: من 1 إلى 6.

أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. 8- وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كلّ أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم»[1].

نفهم، من خلال النصوص السالفة الذكر، وغيرها من النصوص التي لم نأتِ على ذكرها، أنّ عهد الله لإبراهيم هو الإكثار من نسله، والإكثار في ملكه بعطائه وذريّته أرضَ كنعان، وهذا يعني أنّ عهد الله لإبراهيم عهد بُنِيَ على الملكيّة، والتوسع على حساب ملكيّة الغير، وبقصد تحقيق هذا المطلب يلزم من إبراهيم، وأبنائه من بعده، ذريّة كثيرة، وقوية، لها القدرة على حيازة وحماية الأرض المعهود بها.

ومن المفترض أنّ إبراهيم، ونسله من بعده، ستأخذهم مجريات هذا العهد إلى معارك وحروب طاحنة مع مالكي أرض كنعان، ومن المحتمل أنّ الله سينحّي المالكين الأصليين للأرض بطريقة معيّنة عن أرضهم، ويهبها لإبراهيم ونسله من بعده، وفاءً بوعده! فنصوص العهد القديم لم تحسم في هذه القضية برأي.

والجدير بالذكر أنّ هذا العهد غير مرتبط بزمن محدّد؛ بل هو عهد أبديّ لا ينقطع، ولا ينتهي، وسيبقى ممتدّاً في نسل إبراهيم إلى الأبد، ويأخذ أبديّته من إرادة الرب ومشيئته التي اقتضت ذلك، إلى درجة أنّ المعترضين من نسل إبراهيم على هذا العهد سيفصلون من الانتماء إلى ذريته، التي يلزمها، بالضرورة، أن تبلغ كلّ جهدها في تحقيق عهد الله على الواقع. جاء في سفر التكوين: «فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي»[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما المطلوب من إبراهيم ونسله من بعده اعترافاً وشكراً لله على عطائه؟ وكيف يمكن تحصين وحفظ هذا العهد والعطاء الخاص بذرية إبراهيم دون غيرها من الأجناس الأخرى؟

---

(1) سفر التكوين، 17: 7-8.

(2) المصدر نفسه، 17: 14.

حفظ العهد:

جاء في سفر التكوين: «9- وقال الله لإبراهيم: وأمّا أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم»[1]. وحفظ العهد، هنا، بمعنى الحرص عليه بأن يبقى محصوراً في إبراهيم وذريّته من بعده، وحتى يتحقّق هذا الهدف، شرع الله آلية حفظه في نسل إبراهيم تمييزاً لهم عن كلّ الأجناس، وهي ختان الذكور من الأولاد.

جاء في سفر التكوين: «10- هذا هو عهدي، الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كلّ ذكر. 11- فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. 12- ابن ثمانية أيام يختن منكم كلّ ذكر في أجيالكم، وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. 13- يختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك، فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. 14- وأمّا الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته، فتقطع تلك النفس من شعبها، أنه قد نكث عهدي»[2].

إذا كان العهد إلى إبراهيم من الجانب الإلهي يكمن في عطاء أرض كنعان، وكثرة الذرية، فإبراهيم وذريته سيضحون بدمهم ولحمهم، بقطع جلد مقدّمة القضيب عند الذكور، علامة يتميّز بها نسل إبراهيم عن غيره، حتى لا يختلط من له الحقّ في عهد الله مع من ليس له الحق.

ويخبرنا سفر التكوين أنّ أول من طبّق آلية حفظ العهد هذه (وهي الختان) هو إبراهيم، الذي ختن في لحم غرلته، وهو ابن التاسعة والتسعين، بعدما ختن ابنه إسماعيل، الذي كان عمره حينها ثلاث عشرة سنة، وكلّ الولدان من أهل بيته. جاء في سفر التكوين: «23- فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان، بيته وجميع المبتاعين بفضته، كل ذكر من أهل بيت

(1) سفر التكوين، 17: 9.
(2) المصدر نفسه، 17: من 10 إلى 14.

إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. 24- وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته. 25- وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته. 26- في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه. 27- وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه»[1].

إنّ العمر، الذي ظهر فيه الرب لإبراهيم، هو العمر نفسه الذي ختن فيه إبراهيم لحم غرلته؛ أي تسع وتسعون سنة. جاء في سفر التكوين: «1- ولمّا كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام، وقال له: أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملاً»[2]، فهذا النصّ يصور لنا حالة النقص والضعف والحاجة، التي تكتنف إبراهيم، فعندما ظهر له الرب وجده على الهيئة غير الكاملة، سواء على المستوى المعنوي أم الحسي، إلى درجة أنّ الرب خاطبه بأن يسير أمامه ويكون كاملاً. واكتماله هذا لم يتحقّق إلا بعد العهد الذي عهد الله له به، فبملك الأرض سيصبح إبراهيم مكتملاً، وستحتضنه الأرض بخيراتها. كما أنه سيصير كاملاً عندما يختن لحم غرلته، الأمر الذي عجّل به إبراهيم، على الرغم من كبر سنه. جاء في سفر التكوين: «24- وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته»[3]. وعليه، كلّ من لا يختتن في غرلته من ذرية إبراهيم، ولم يسعَ للأخذ بعهد الأرض، فسيبقى ناقصاً.

العهد مع إسحاق بن إبراهيم:

عندما ظهر الرب لإبراهيم، وهو في عمر يناهز (99) سنة، كان لديه ابن واحد هو إسماعيل الذي اختتنه، وهو على عمر يناهز (13) سنة، وقد سبقت الإشارة إلى أنّ الله عهد لإبراهيم، ووعده بكثرة نسله، وهذا ما تحقّق لإبراهيم

(1) سفر التكوين، 17: من 23 إلى 27.
(2) المصدر نفسه، 17: 1.
(3) المصدر نفسه، 17: 24.

بولادة إسحاق، الذي بارك الله أمّه، وغيّر اسمها من سراي إلى سارة، كما تمّ تغيير اسم زوجها من قبل، فببركة الربّ سيتفرّع من نسل سارة (أم إسحاق) الكثير من الأمم، والشعوب، والملوك، الذين سيكون جدهم إسحاق بن إبراهيم، وجدّتهم سارة، زوجة إبراهيم، التي باركها الربّ، كما بارك زوجها.

جاء في سفر التكوين: «15- وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة. 16- وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً. أباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منها يكونون. 17- فسقط إبراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة، وهي بنت تسعين سنة. 18- وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. 19- فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً، وتدعو اسمه إسحق»[(1)].

إنّ العهد بكثرة نسل إبراهيم قد تحقّق بولادة إسحاق، الذي بارك الله أمه. ولا شك في أنّه سيرث بركة الرب من أمّه، فيتفرع من نسله الكثير من الأمم، والملوك، والشعوب، بينما أخوه إسماعيل، الذي لم يبارك الله أمّه هاجر[(2)]، وباركه وحده، سيكون جداً لاثني عشر رئيساً فحسب، ويكون أمّة كبيرة، في مقابل نسل إسحاق، الذي ستكون منه أمم كثيرة، وملوك، وشعوب. جاء في سفر التكوين: «20- وأمّا إسماعيل، فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة»[(3)].

---

(1) سفر التكوين، 17: من 15 إلى 19.

(2) هاجر أم إسماعيل: هي جارية مصرية لسيدتها سارة زوجة إبراهيم، التي لم تنجب له أبناء، فبإذنها دخل إبراهيم على جاريتها هاجر، وحبلت منه، وولدت له ابناً هو إسماعيل، ولقد تغيّرت نظرة هاجر لسيّدتها بعد حملها، وأمر إبراهيم زوجته سارة بأن تفعل فيها ما تشاء، وأذلّتها سارة، إلى درجة أنّ هاجر قرّرت الهرب من سيّدتها سارة، وبينما هي في الطريق إذا بالملك يخاطبها، ويأمرها بالعودة إلى سيّدتها سارة بطاعتها، بعد أن بشّرها بأنّها ستلد إسماعيل، وبأنه سيكون إنساناً وحشياً، وأنه سيسكن أمام جميع إخوته. انظر: سفر التكوين، 16: من 1 إلى 16.

(3) سفر التكوين، 17: 20.

من خلال ما سبق، يتبيّن أنّ العهد بكثرة نسل إبراهيم قد يتحقّق في نسل ابنه إسحاق بالدرجة الأولى، وذلك أنّ الله أقام عهده معه ولنسله من بعده؛ أي أنّ إسحاق نال وراثة العهد، الذي عهد الله به لأبيه إبراهيم. جاء في سفر التكوين: «21- ولكن عهدي أقيمه مع إسحق (إسحاق) الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية»[1].

وما دام الله أخبر إبراهيم أنّه سيقيم عهده مع ابنه إسحاق، فهذا يقتضي أنّ العهد بحيازة أرض كنعان سيكون من حظّ إسحاق، ومن حظ ذريته من بعده، بعدما نال بركة العهد بالذرية الكثيرة من أمه سارة، أمّا إسماعيل وذريته، فلا حظّ لهم في أرض كنعان؛ لأن الله لم يعهد لإسماعيل وذريته بذلك، جاء في سفر التكوين: «19- فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده»[2]. والجدير بالذكر، هنا، أنّ هذا العهد يتّصف بالأبدية والديمومة في نسل إسحاق.

البركة:

البركة، التي نالها إبراهيم، وكذلك زوجته سارة، وابنه إسحاق، تفيد الكثرة في الأولاد والذرية، والكثرة في ملكية الأرض؛ أي أنّ البركة تعود على ما هو شيئيّ ومحسوس، فبركة إبراهيم تتجلّى في كثرة نسله، وبركة زوجته سارة في الشيء نفسه. جاء في حق إسحاق في سفر التكوين: «4- وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض»[3]؛ فالعهد الذي نحن بصدده لا يتحقّق إلا من خلال البركة، فلا بركة دون كثرة، ولا عهد دون بركة.

وعليه، كلّ من باركه الرب فاز بزيادة وكثرة ذريته، وماله، وكل ما في ملكيته، فمن الملاحظ أنّ مدلول البركة يدور في دائرة ما هو عينيّ

(1) سفر التكوين، 17: 21.
(2) المصدر نفسه، 17: 19.
(3) المصدر نفسه، 26: 4.

ومحسوس؛ أي كلّ ما يجلب مصلحة مادية، ولا صلة له بما هو روحي ومعنوي بقصد الرفع من مستوى القيم والفضائل لدى الناس، فمن الأولى أن تكون بركة الرب بركةً من حيث تزكية النفس التي تسعى من أجل الخير للعباد.

ونتساءل عن القيمة الإنسانية، التي سيجلبها الأنبياء وغيرهم بكثرة الأولاد، والمال، والأرض؟ ألم يكن همُّ الأنبياء، ومن تبعهم، هو همّ الدعوة إلى صحوة الضمير، والإعراض عن الظلم والعدوان؟ وكيف لله رب الناس جميعاً أن يتحيّز لفئة من عباده على حساب فئة أخرى، ويهبها الذرية الكثيرة، والمال، والأرض، بدعوى أنّهم من ذرية أنبيائه؟ هذه الأسئلة وغيرها تطرح أمامنا إشكالاً معرفياً من داخل نصوص العهد القديم، يتعلّق بمفهوم الرب الإله الذي يهب البركة لمن يختار.

خلاصة:

العهد، الذي عهد الله به إلى إبراهيم، مفاده الكثرة في النسل، والوعد بملكية أرض كنعان، والوارث الشرعي، وفق ما جاء في نصوص العهد القديم لعهد إبراهيم، هو ابنه إسحاق، الذي وعده الرب، وعهد إليه بكثرة النسل، ووراثة العهد بأرض كنعان عن أبيه، في مقابل أخيه إسماعيل، الذي لم يعده الرب، ولم يعهد إليه بملك الأرض، وسيعيش إلى جانب إخوته دون ملكية، وهذا يعني أنّ نسل إسحاق هو الأَوْلى بوراثة الأرض من نسل إسماعيل، وقد اتّصف العهد الإلهي مع إبراهيم، وكذلك مع ابنه إسحاق، بصفة الثبات والديمومة في التاريخ.

2- المفسرون وموضوع ما عهد الله به لسيدنا إبراهيم:

ما ابتلى الله به نبيه إبراهيم من الكلمات:

أورد الطبري مجموعة من الآثار والأقوال حول الكلمات، التي ابتُلِي بها إبراهيم: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البَقَرَة: 124]. وهي أقوال وآثار متعدّدة سنستحضر، هنا، أهمّها:

1- يرى الطبري أنّ الله ابتلى إبراهيم بالطهارة، ومن بين الآثار، التي أوردها في هذا الصدد: حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

حدثت عن عمار، قال: حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن مطر، عن أبي الخلد قال: ابتلي إبراهيم بعشرة أشياء، هنّ في الإنسان سنة: الاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، ونتف الإبط، وقلم الأظفار، وغسل البراجم، والختان، وحلق العانة، وغسل الدبر والفرج[(1)].

2- ما ابتلي به سيدنا إبراهيم المراد به دعوته إلى نبذ الشرك، والإعراض عن عبادة الكواكب، وقد كلّفه ذلك أن يهاجر بعيداً عن قومه. وقد أورد الطبري كثيراً من الآثار في هذا الصدد من بينها: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد بن زريع قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: إي والله، ابتلاه بأمر فصبر عليه: ابتلاه بالكوكب، والشمس، والقمر، فأحسن في ذلك، وعرف أنّ ربه دائم لا يزول، فوجّه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين؛ ثمّ ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله؛ ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك؛ فابتلاه الله بذبح ابنه وبالختان، فصبر على ذلك[(2)].

3- ما ابتلاه به يفيد مناسك الحج، ومن بين ما أورد الطبري بهذا الخصوص: حدثنا أحمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري قال:

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص ص9-10.
(2) المصدر نفسه، ص14.

حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾، قال: مناسك الحج. حدثني المثنى قال: حدثنا الحماني قال: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ قال: منهنّ مناسك الحج»[1].

4- وقيل ابتلاه بهذا الدعاء، الذي مفاده: قال أبو جعفر: فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبيه صحيحاً سنده، كان بيناً أنّ الكلمات التي ابتلي بهنّ إبراهيم فقام بهنّ، هو قوله كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ [الـــرُّوم: 17-18] أو كان خبر أبي أمامة عدولاً نقلته، كان معلوماً أنّ الكلمات، التي أوحين إلى إبراهيم، فابتلي بالعمل بهنّ: أن يصلي كلّ يوم أربع ركعات»[2].

5- وقيل: إن الختان من بين ما ابتلي به سيدنا إبراهيم. ومن بين ما أورده الطبري بهذا الخصوص: «حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا سلم بن قتيبة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ قال: منهن الختان»[3].

وقد أورد الطبري، بخصوص إمامة إبراهيم، ما مفاده: «وإنما أراد -جل ثناؤه- بقوله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البَقَرَة: 124] أن تؤمّ من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي، تتقدمهم أنت، ويتبعون هديك، ويستنون بسنتك التي تعمل بها، بأمري إياك ووحيي إليك»[4]. والإمام هنا تفيد الرسول والقدوة[5]، فهذا القول أولى من غيره بأن يفيد ما ابتلي به إبراهيم عليه السلام.

---

(1) المصدر نفسه، ص13.
(2) المصدر نفسه، ص17.
(3) المصدر نفسه، ص13.
(4) المصدر نفسه، ص18.
(5) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص701.

أمّا من حيث الأقوال والآثار، التي أوردها الطبري، تفسيراً للكلمات، التي ابتلي بها إبراهيم؛ فمن البديهي أنّه يتعذر الجمع بينها، أو التوفيق في ما بينها، فبعضٌ منها ربط موضوع الكلمات، التي ابتلى بها الله إبراهيم، بما حدث له في دعوة قومه بالإعراض عن الشرك، وبعضٌ ربط الموضوع بالطهارة البدنية، وبعضٌ ربط الموضوع بالدعاء، ونستغرب ربط الموضوع بالختان، فهو موضوع لا دليل عليه من القرآن في ما ارتبط بقصة إبراهيم من داخل القرآن الكريم، ولم يربط موضوع الختان بسيدنا إبراهيم إلا في نصوص العهد القديم، كما تقدّم.

نقف مع رؤية ابن كثير للموضوع؛ فهو يخبرنا عن اختلاف العلماء حول الكلمات، التي ابتلى الله بها نبيه إبراهيم، فقد ذهب بعضهم إلى كون الكلمات تعني المناسك، ومنهم من ربطها «بِالطَّهَارَةِ: خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ، وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ؛ فِي الرَّأْسِ: قَص الشَّارِبِ، وَالْمَضْمَضَةُ، وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسِّوَاكُ، وفَرْق الرَّأْسِ. وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، ونَتْف الْإِبِطِ، وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ». وقيل «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ». وَلَفْظُهُ لِمُسْلِمٍ[1]. ورُوي «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: (﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: 124] قَالَ: عَشْرٌ، سِتٌّ فِي الْإِنْسَانِ، وَأَرْبَعٌ فِي الْمَشَاعِرِ. فَأَمَّا التِي فِي الْإِنْسَانِ: حَلْقُ الْعَانَةِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَالْخِتَانُ. وَكَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ وَاحِدَةٌ. وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَالسِّوَاكُ، وَغُسْلُ يَوْمِ الْجُمْعَةِ. وَالْأَرْبَعَةُ التِي فِي الـ: مَشَاعِرِ: الطَّوَافُ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ، وَالْإِفَاضَةُ»[2]. فما تعلّق بالصفا والمروة، والضيافة، وغير ذلك منسجمٌ مع

(1) تفسير القرآن العظيم، (م.س)، ج1، ص404.

(2) المصدر نفسه، ص406.

الموضوع، ولكن نتساءل هنا: ما دخل الختان في الموضوع؟ من خلال النصوص السالفة الذكر، ما نلاحظه على ما جاء به ابن كثير أنه أخذ معطيات الموضوع، من حيث المضمون، عن ما سبقه إليه الطبري، وبالعودة إلى تفاسير المتقدمين نجد أن جلّها قد تأثر بما قال به الطبري في الموضوع[1].

إنّ أنسب ما يمكن قوله، حول الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، وفقاً لما يقول به السياق القرآني، هو كون الله -جل وعلا- ابتلى نبيه إبراهيم بالإمامة[2]، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: 124]. والإمامة ليست بالأمر الهين، فلا يمكن بحال أن يتولاها الظالمون من الخلق؛ فهي «وإن تكن نعمة وفضلاً من الله، فهي ابتلاء، لما لها من أعباء لا يقدر على حملها، والوفاء بها على وجهها، إلا أولو العزم من النّاس، وقد كان إبراهيم قدوة للناس في قيامه على هذه الإمامة، فنوّه الله به في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النّجْم: 37]؛ أي وفّى الأمانة التي أداها على وجهها كاملة»[3]. ومن الملاحظ أنّه قدّم «المفعول على الفاعل، وهو (الكلمات) التي ابتلى بها؛ لأنّ موضع الحديث هو إبراهيم ذاته وليست الكلمات، فكان هو موضع الاهتمام وحده، وكان المراد كشف حال نفسه

---

(1) انظر: التفاسير التالية، على سبيل المثال وليس الحصر: تفسير أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت 370هـ) تحقيق محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ. وتفسير الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د.ت). وتفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت 427هـ)، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1422هـ-2002م. وغيرها من التفاسير.

(2) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ج1، ص139.

(3) المصدر نفسه، ص139.

القوية الطاهرة»[1]. والكلمات، التي اختبر الله -تعالى- بها نبيّه إبراهيم، ليست هي ألفاظها، وكلماتها، وحروفها، إنّما المراد ما طلب منه من أوامر، ونواهٍ، ووقائع[2].

ونفهم، من خلال السياق الكلي الذي وردت فيه الآية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124]، بيان ما كان عليه أهل الكتاب، من خلال سورة البقرة، اليهود خاصةً، وما عُرفوا به من تضييع الأمانة، ونقض العهد، بتحريف ما جاءهم من عند الله؛ أنّ الله -جل وعلا- أورث محمد بن عبد الله ﷺ الإمامة ببعثته رسولاً للناس جميعاً، ومحمد ﷺ ينتمي إلى قبيلة قريش، وهي ترجع بأصولها إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل، وقبيلة قريش، ومن حولها كانت من القبائل الأمية، التي لم يُبعث فيها رسول بكتاب من قبل محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ [الأنعَام: 92].

بينما أهل الكتاب «يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق -عليهما السلام- ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنموّ والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده. ومن ثَمّ يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة...»[3]. وإن قريشاً ومحمداً ﷺ من نسل إسماعيل، وليس من نسل إسحاق عليه السلام الذي تفرع منه نسل بني إسرائيل، كما تقدم.

الظالمون لا حظ لهم فيما عهد الله به لإبراهيم:

أمّا بخصوص الآية: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124]، فالطبري يخبرنا باختلاف المفسرين حول ماهيّة العهد، فذهب بعضهم

(1) أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (د.ت.ط)، ج1، ص393.
(2) المصدر نفسه، ص393.
(3) في ظلال القرآن، (م.س)، ج1، ص110.

إلى كونه يعني النبوة، وذهب البعض الآخر إلى كونه يعني الإمامة. وفي نظرنا تقتضي الإمامة، هنا، النبوة، فكل نبي هو إمام يُقتدى به. وقد أورد الطبري مجموعة من الآثار مفادها أنّ الله -جل وعلا- لا يورث إمامة إبراهيم لمن كان ظالماً من ذريّته من بينها:

«- حدثني المثنى قال: حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: قال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124] قال: لا يكون إمام ظالماً.

- حدثنا ابن بشار قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به.

- حدثنا محمد بن عبيد المحاربي قال: حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به»[1].

ولا شكّ في أنّ الآثار، التي أوردها الطبري، والتي تفيد أنّ الإمامة لا يرثها الظالمون تنسجم مع السياق الكلّي للآيات القرآنية، فمن «كان ظالماً من ذرّيتك. لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة، وإنّما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم. وقالوا: في هذا دليل على أنّ الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته، ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة»[2]. وهو التفسير نفسه، الذي أورده ابن كثير «عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَالَ: لَا يَكُونُ إِمَامٌ ظَالِمٌ يُقْتَدَى بِهِ»[3]. وقد حدّد الطاهر بن عاشور المراد بالظالمين

(1) المرجع نفسه، ج1، ص21.

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (م.س)، ج1، ص184.

(3) تفسير القرآن العظيم، (م.س)، ج1، ص410.

بأنّ المقصود بهم المشركون بظلمهم أنفسهم، وشركهم بالله -تعالى- لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] [لقمان: 13] «والظلم يشتمل، أيضاً، على عمل المعاصي الكبائر، كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 113]، وقد وصف القرآن اليهود بالظالمين في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45][1]، وهذا أمر ينسجم مع كونهم حرّفوا وبدّلوا ما جاءهم من عند الله، كما تقدم. ويضيف الطاهر بن عاشور قوله: «وفي الآية تنبيه على أنّ أهل الكتاب والمشركين، يومئذ، ليسوا جديرين بالإمامة، لاتصافهم بأنواع من الظلم، كالشرك، وتحريف الكتاب، وتأويله على حسب شهواتهم، والانهماك في المعاصي، حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم. وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علّة نفي أن ينالهم عهد الله، فيفهم من العلة أنّه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد»[2].

فالظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير. فمن البديهي أنّ الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته، دون أعدائه والكافرين به.

ملة إبراهيم:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]. والقصد من الآية هم «اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على الإسلام؛ لأنّ ملة إبراهيم هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67]»[3]. وقد فُسّرت الملّة بكونها «الشريعة والطريقة»[4]. ومن المعلوم، كما

(1) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص706.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص707.
(3) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج3، ص89.
(4) ابن عطية الأندلسي، عبد الرحمن بن تمام، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب =

تقدم، أنّ أهل الكتاب قد حرّفوا وبدّلوا ما جاءهم من عند الله، وبذلك يكونون قد خرجوا عن المنهاج، الذي كان عليه إبراهيم، وهو يرفع قواعد البيت بالدعاء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البَقَرَة: 127-128]. وفي هذا الدعاء تحديد لملّة إبراهيم، وهي الإسلام بدل الشرك بالله والظلم بما فيه ظلم النفس والعباد، وهذه هي وصية إبراهيم لذريته ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 132].

ومعنى السفه هنا «الجهل... وما يرغب عن ملّة إبراهيم الحنيفية إلا سفيه جاهل»[1] و﴿يَرْغَبُ عَن﴾ [البَقَرَة: 130] «فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها، والرغبة عنها تجاوز عنها، وترك لها، وهذا يتضمّن أمرين: أولهما: أنّه علمها، وكان ينبغي أن يرغب فيها، ولكنّه تجاوزها، وتركها، لَا عن انصراف مجرّد؛ بل عن قصد وإعراض، وثانيهما: أنه اتجه ورغب في غيرها، ونفَى الله -تعالى- الرغبة عنها إلا ممّن سفه»[2]. وهناك فرق بين جهل النفس وبين سفهها، فالجهل قد يكون ناتجاً عن قلّة العلم وعدم الاهتداء إلى الحق، والجاهل ليس له أدوات العلم، وطرق المعرفة. أمّا السفه، فمعناه أن يكون جاهلاً وعنده طرق المعرفة لمعرفة الحقّ والصواب، وما ينسجم مع الفطرة[3].

وخلاصة القول أنّ جلّ المفسرين ذهبوا إلى كون ملة إبراهيم تعني الإسلام الذي كان عليه، وأرسى قواعده.

= العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ج1، ص212.

(1) المصدر نفسه، ج1، ص90.

(2) زهرة التفاسير، (م.س)، ج1، ص411.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص411.

3- ما عهد الله به لسيدنا إبراهيم من خلال ما جاء في سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿124﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿125﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿126﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿127﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿128﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿129﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿130﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿131﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 124-132].

جاء الحديث عمّا عهد الله به لإبراهيم عليه السلام، من خلال السياق الكلي لسورة البقرة، التي تناولت قصة آدم، وقصة بني إسرائيل، ومشكلتهم مع تاريخ أجدادهم، وتصوراتهم الخاطئة عن الأنبياء والرسل، كما ذكرت السورة أنّهم يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون: إنه من عند الله، ويقتلون الأنبياء والنفس، التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، وغير ذلك من المشاكل الثقافية والمعرفية المرتبطة ببني إسرائيل، والتي لا ينبغي حصر قراءتها ببني إسرائيل فحسب؛ بل ينبغي أن نستنبط، من خلالها، الدلالات والمعاني والعبر، التي تنطبق على بعض من جوانب المجتمع الإنساني ككل. فتتبع ما عهد الله به لإبراهيم لا ينفصل عن السياق الكلي لسورة البقرة.

ويتضح، من خلال الآيات السالفة، أنّ ما عهد الله به لإبراهيم ينحصر في الإمامة، وتطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، كما أنّ

هذا العهد ممتدّ في ذرية إبراهيم الصالحة. أمّا الظالمون من ذريته، فلم يعهد لهم -سبحانه- بشيء من أمور الإمامة، وتطهير البيت، وغير ذلك، فإذا عهد الله لإبراهيم بإمامة الناس، فهذه الإمامة، التي كانت له، قد تجددت مع نبيّ الله موسى، من خلال الكتاب الذي أُوحِي له به، وكذلك مع محمد بن عبد الله ﷺ قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هُود: 17]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12].

ووجب التذكير، هنا، بأنّ تطهير البيت لا ينحصر في التطهير الحسي وحسب؛ بل يتعدّاه إلى أبعد من ذلك؛ أي التطهير المعنوي[1] بتطهير الأنفس من خلال تفعيل وتقوية البعد الغائي للطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود، وتذكّرنا هذه الأفعال بما قامت به الملائكة تجاه آدم، بعد أن أنبأها بأسمائها، وهذا يعني أنّ عملية السجود، وما يتبعه، لا تنحصر في حركات الجسم بقدر ما تمتدّ إلى عملية التذكير، التي تحيل بين الإنسان والظلم، ولا قيمة للسجود إن انفصل عن التسبيح والتقديس، وارتبط بالظلم الذي مآله الفساد وسفك الدماء، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

وعليه، يتمحور ما عهد الله به لإبراهيم حول الإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين... وقد سبق أن تمّ تحذير آدم وزوجه بألا يكونا من

(1) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص380.

الظالمين؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 35]. والظالمون من ذرية إبراهيم لا ينالون عهد إمامة الناس بتطهير البيت. قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124]. ولكي نكشف عن فحوى ما عهد الله به لإبراهيم من الإمامة وتطهير البيت، الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، سنتتبع ما جاء، من خلال سياق الآيات (124) إلى (163) من سورة البقرة.

إنّ العنصر المحوري لهذه الآيات هو البيت، وهو مقام إبراهيم، الذي رفع قواعده هو وابنه إسماعيل، وقد ربطت الآيات موضوع القبلة الحقّ بهذا البيت، الذي كان وجهة للأنبياء والرسل من ذرية إبراهيم، الذين نالوا عهده المبنيّ على تطهير البيت، الذي قوامه أن يتذكّر الناس، من خلاله، نعمة الأمن، ويعرضوا عن الظلم، والفساد، وسفك الدماء. ومن بين من ورثوا هذا العهد بالدرجة الأولى ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ...﴾ [البَقَرَة: 136]. فمن غير المعقول أن يربط هؤلاء الرسل والأنبياء أنفسهم بقبلة أخرى بدل البيت، الذي هم من ورثة عهد تطهيره، مع العلم بأنّ نبي الله إبراهيم يشكل المنطلق التأسيسي للديانات السماوية؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحَجّ: 78]. كما أنّ هذه الآيات أجملت ما كان عليه إبراهيم من قناعات وتصورات في مفهوم «ملة إبراهيم»، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البَقَرَة: 130] .﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: 135]. وسنلقي الضوء على مفهوم «الملة»، ومفهوم «البيت»، ومفهوم «السفهاء»، ولاسيما ما له صلة بعهد الله لإبراهيم. وفق ما ورد في القرآن الكريم.

مفهوم البيت:

أوّل بيت وضع للناس يوجد ببكة (مكة)، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 96]؛ فهو معلم من معالم الهدى والهداية، فمن خلاله، نتذكر ملحمة أبينا إبراهيم، الذي هجر الأصنام والشرك، ووسع أفقه الذهني والروحي بتفكره في الكون الفسيح، ووضع معالم الأمن والأمان، والإعراض عن الظلم والفساد وسفك الدماء، وكلّ ما يتصل به، وكانت وصيته لأبيه وقومه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مَريَم: 44].

فبركة البيت ومكانته لا ترتبط به لذاته، بقدر ما ترتبط بالمعاني، والقيم، والفضائل، التي نتذكرها، من خلاله، في شعيرة الحج والعمرة والصلاة، كما نتذكر، من خلاله، ملاحم كلّ الأنبياء، الذين جاؤوا بكتب وكلمة الهدى والهداية، وينبغي لنا ألّا نقف عند تجاربهم؛ بل المطلوب أن نتعدّى تلك التجارب إلى ما بعدها في نحت المعاني والفضائل، ففي سياق الحديث عن البيت، وإبراهيم، والأنبياء، من بعده استنكر القرآن على بني إسرائيل نظرتهم المتّسمة بالانغلاق والتعصب في نظرتهم إلى الأنبياء والرسل من بعد إبراهيم، بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 134]، وكذلك الآية (141) من السورة نفسها.

والمقصود هنا بالبيت هو الكعبة، البيت الحرام، الموجود في الجزيرة العربية؛ قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المَائدة: 97]. فهذا البيت بيت الله، ولا بيت لله غيره، وهو موجود قبل نبي الله إبراهيم؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحَجّ: 29]، إلا أنّ إبراهيم وابنه إسماعيل رفعا قواعده؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة:

127]. ولعظمة البيت الحرام، ولهذه المكانة التي له عند الله، عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]؛ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26].

فمن عباد الله الأوائل، الذين جدّدوا الحج إلى هذا المكان، هو إبراهيم عليه السلام؛ إذ سكن هو وأسرته إلى جانب هذا البيت، على الرغم من قسوة الظروف الطبيعية؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]، فالحجّ إلى هذا البيت نسكٌ من المناسك التي شرعها الله؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 97]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]؛ فالصلاة، والاعتكاف، والركوع، والسجود، بهذا المكان ليس كغيره من الأمكنة، وليس هناك شيء أحقّ بالطواف بدلاً منه. ولأنّه أوّل بيت وُضع للناس، أمرَ الله رسوله محمداً ﷺ بالتوجه شطره عند الصلاة بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: 144].

وحرمته تأتي من خلال ما يحييه فينا من تجارب الأنبياء، التي لا ينبغي أن نقف عندها؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]، وكذلك الآية (141) من السورة نفسها؛ بل، بالضرورة، يجب أن نتجاوزها إلى ما بعدها في تفعيل قيم الإيمان التي تفضي إلى الأمن، والسلم، والسلام، بدل الإكراه والظلم، فالبيت، وما ارتبط به من المناسك، التي جدّدها إبراهيم، كالصلاة، والسجود، تشكل

العمود المحوري لملة إبراهيم، التي مفادها ما عهد الله به لإبراهيم، فالوارثون لعهده من الصالحين من ذريته هم الذين على ملته. ووجب التذكير، هنا، بأنّ هذه المكانة المعنوية، التي كانت للبيت، من الطبيعي أن تجعله وجهة للصلاة لدى إبراهيم، الذي أخبرنا بأن نتخذ من مقامه مصلى، ولا شكّ في أنّ الصالحين من ذريّته من الأنبياء من بينهم موسى، وعيسى، ومحمد ﷺ (في مكة وفي المدينة)، وغيرهم، ستكون وجهتهم وقبلتهم إلى الصلاة هي هذا البيت، لكونهم هم الوارثين لملّته، وما عهد الله به إليه.

مفهوم المِلة:

وردت مفردة (ملة) عشر مرات في القرآن الكريم؛ منها (8) مرات لها صلة بنبي الله إبراهيم، ففي سورة البقرة جاء لفظ (ملة) في سياق الحديث عن نبي الله إبراهيم، ورفعه مع ابنه إسماعيل لقواعد البيت، وما عاهد الله به إليه من تطهيره، بنبذ الشرك والدعوة إلى التوحيد (الإنسان ذو الأصل الواحد، والكون ذو الأصل الواحد، والله الواحد، الذي يعود إليه كلّ شيء- الخروج من الثنائيات إلى الوعي بالأصل المشترك الواحد وهو الله)، وكذلك هو شأن مَن تلاه من الأنبياء والرسل الذين من ذريته ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾. وفي إطار بيان وتبيين ملة إبراهيم، والحوار مع أهل الكتاب بالحق، أمر الرسول بأن يخبرهم أنّ الحقّ هو هذه الملة، التي تقتضي الإيمان بما نزل على محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: 135].

وفي سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩٤ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: 94-95]. فالملة جاءت في إطار دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بما نزل على محمد ﷺ، فهو، ومن آمن به، على ملة إبراهيم، وهذه الملة، التي تقتضي نبذ الشرك، والاتجاه نحو البيت الحرام، وهو أوّل بيت وُضع للناس، ففيه آيات بينات، وبه مقام إبراهيم، وبهذا يتكامل ما جاء في

سورة آل عمران مع ما جاء في سورة البقرة حول ملة إبراهيم (انظر الآيات 93 إلى 100 من سورة آل عمران).

وتأتي الآية (125) من سورة النساء، معلنةً أنّ أحسن الدين وأفضله هو اتّباع ملة إبراهيم، في سياق الحوار والجدال مع أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. وكذلك في إطار الحوار مع أهل الكتاب، في سورة النحل، بيّنت الآيات (120-121) مكانة إبراهيم عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿120﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وتأتي الآية (123) من السورة نفسها، معلنةً أن الله أوحى لنبيه محمد ﷺ باتباع ملّة إبراهيم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. ولجحود وعنت أهل الكتاب وإعراضهم، أمر الرسول أن يقول لهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161]. فهذه الآية جاءت في إطار الدعوة إلى الإيمان بما نزل على محمد ﷺ، فإن ما كان عليه هو الصراط المستقيم وما دونه هو الضلال (النظر إلى الآيات (153-164) من سورة الأنعام).

كما أنّ هذه الملة «ملة إبراهيم» هي التي عليها نبي الله يوسف، والأنبياء من قبله؛ قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿37﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: 37-38]. وختمت سورة الحج، في الآية (78)، بالأمر بالجهاد في الله حقّ جهاده، وذلك بالشهادة على الناس بدعوتهم إلى ملّة الإسلام، وهي ملة إبراهيم أبو الأنبياء من بعد نوح، كما جاء على لسان نبي الله يوسف؛ قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، وذلك استجابةً من الله لدعاء إبراهيم أن يجعله الله للناس إماماً، ومن ذريّته الصالحة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: 124].

من خلال الآيات السالفة الذكر، يتّضح أنّ ملة إبراهيم هي الإيمان بالله الواحد الأحد، والعمل على توسيع دائرة الأمن، والحدّ من الظلم، والإعراض عن عبادة الأصنام بتطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، وهذا الأمر يتضمّن الإعراض عن عمل الشيطان، كما كانت نصيحة إبراهيم لأبيه، وكما كانت وصيّة الله لآدم من قبل، ولقد سارت الذرية الصالحة لإبراهيم من الأنبياء والرسل على ما عهد الله به لإبراهيم. ونذكّر بأنّ السياق الكلي، الذي ورد من خلاله الحديث عن البيت، وعمّا عهد الله به إلى إبراهيم، وعن ملّته ينحو منحى تصحيح وإعادة بناء ما تعتقد به بنو إسرائيل حول البيت، وحول الأنبياء، وحول العهد، فهم يؤمنون بفكرة وراثة تراث الأنبياء «تقوم على قرابة الدم والجنس... فالدين دين الله. وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر!!! هذه الحقائق... تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي»[1].

مفهوم السفهاء:

بيّن الله، في سورة الأنعام، كذب وسفه وخسران أولئك الذين يقتلون أولادهم سفهاً بغير علم؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: 137]. فهذه الآية ختمت

---

(1) في ظلال القرآن، (م.س)، ج1، ص111.

بوصف عمل الذين يقتلون أولادهم بالافتراء، وجاءت الآيات التي تلتها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿138﴾ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 138-139]، مبيّنة طبيعة افترائهم. وجاءت الآية (140) من السورة نفسها، معلنة عن خسرانهم، نتيجة قتل أولادهم وافترائهم. وكذبهم على الله هذا أدخلهم في حالة السفه، التي يغيب معها العلم، والهداية، والإقرار بالحق؛ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 140]. إنّ السفه، في الآيات السالفة، حالة يستقرّ عليها صاحبها بعد الافتراء والكذب، بدل الإقرار بما يعلم.

كما أنّ قوم عاد اتّهموا أخاهم، الذي بُعث فيهم، بالسفاهة؛ أي الكذب والافتراء، وما كان من نبيّ الله هود عليه السلام إلا أن ينفي هذه التهمة عن نفسه بإخبارهم أنه رسول رب العالمين؛ قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿65﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿66﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 65-67]، وأقرّت الجنّ أن السفيه منهم يقول على الله شططاً، بدل الحق، وكان ظنّهم ألا يكذب الإنس والجن على الله؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿4﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجنّ: 4-5].

وفي كتابة الدين، الذي أمر الله بكتابته صغيراً كان أو كبيراً، إذا كان الذي عليه الحقّ سفيهاً؛ أي لا يقول الحق، ولا يقرّ بما هو حقيقة، فالمطلوب أن يملل وليّه نيابة عنه، فدور الولي، هنا، أن يملل الحق؛ أي ما هو مطابق للواقع، على الكاتب الذي يكتب؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا

إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].

وأمرنا الله بحفظ أموال اليتامى إن كانوا على حالة السفه، وأن نقول لهم القول المعروف، بالاعتناء والاهتمام بهم، لعلّهم يخرجون من هذه الحالة إلى حالة الرشد، التي تستوجب دفع أموالهم لهم، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا۟ الْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النِّساء: 6].

وجاء دعاء نبيّ الله موسى أن يهلك قومه بما فعل السفهاء منهم، الذين أضلهم السامري، وعبدوا العجل كذباً وافتراءً على الله؛ قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 155].

من خلال الآيات السالفة الذكر، يتّضح أنّ «السفه والسفاهة» حالة نفسية تأتي نتيجة الكذب، والافتراء، والبهتان، والتعود على ذلك؛ ولهذا القرآن الكريم، ولاسيما في سورة البقرة وغيرها، يبين كذب وافتراء أهل الكتاب

«اليهود خاصة» على الأنبياء والرسل، تعالى الله عمّا يصفون؛ فعندما يدعون إلى الإيمان بما نزل على محمد ﷺ يكون قولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء، ورد القرآن عليهم بأنّ هذا الوصف ينطبق عليهم، ولكنهم لا يعلمون ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 13]. وقد سماهم الله بالسفهاء، نتيجة تصوّراتهم الخاطئة حول البيت الذي رفع قواعده إبراهيم، وما عهد الله به إليه، وصلة القبلة بذلك، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: 142]. كما وصف -سبحانه- الذي يتخلّى عن ملّة إبراهيم بأنّه سفه نفسه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البَقَرَة: 130]، ومن سفّه نفسه فهو من السفهاء، الذين يفضلون الكذب، والافتراء، والباطل على الحقّ، والأخذ بسبل العلم والهداية. ونذكر أنّ لفظ السفهاء، وما يتعلّق به من ألفاظ، ورد في القرآن الكريم (11) مرة، منها (5) مرات بصيغة السفهاء.

مفهوم القبلة:

من المعروف والشائع أنّ الرسول ﷺ كان يتّجه، عند أداء الصلاة، نحو بيت المقدس طيلة الفترة المكية، وعندما هاجر إلى المدينة تمّ استبدال القبلة من الاتجاه نحو بيت المقدس إلى الاتجاه نحو البيت الحرام.

وسنستعرض رأي القرآن في الموضوع، من خلال تتبع الآيات؛ إذ وردت مفردة (القبلة) أربع مرات في القرآن الكريم، ولفظ (قبلتك) مرة واحدة و(قبلتهم) مرتين. والقبلة هي الوجهة التي يتوجه الإنسان اتجاهها بقصد الصلاة؛ قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: 177]، فالمسلمون، اليوم، في غرب البيت الحرام يولون وجوههم قبل الشرق، والبيت الحرام أمامهم (أي قِبلهم). أما المسلمون في مشرق البيت الحرام، فيولون وجوههم وجهة المغرب، وحينها يكون البيت الحرام أمامهم (قِبلهم)؛ لأنّ المسلمين في العالم يسلمون أنّ البيت الحرام قبلتهم، ولهذا يجعلونه قِبلهم، ووجهة لهم، وأينما كانوا في الأرض فوجهتهم واحدة.

لقد عمل القرآن الكريم على الاسترجاع النقدي لموضوع القبلة؛ في علاقة ذلك بالبيت الحرام وبإرث الأنبياء، بدءاً من إبراهيم ﷺ؛ ومن تلاه من الأنبياء والرسل. ففي هذا السياق، وردت الآيات (142 إلى 150) من سورة البقرة، موضحة ماهيّة القبلة التي كان عليها محمد ﷺ قبل هجرته إلى المدينة، وهي الاتجاه نحو البيت الحرام (الكعبة)؛ إذ كان قول الذين سفهوا أنفسهم من اليهود والنصارى؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ [البَقَرَة: 142]، فلو كان الرسول ﷺ حقيقة يتّجه نحو بيت المقدس قبل هجرته إلى المدينة، لقال السفهاء «ما ولاهم عن قبلتنا»، كما أنّ هذا القول (ما ولاهم عن قبلتهم) قول سافه؛ أي كاذب وباطل؛ لأنّه ادعاء من السفهاء الذين سفهوا أنفسهم؛ وهذا القول هو أمنيتهم، فأصحاب محمد لم يتولوا، أبداً، عن قبلتهم، وهي البيت الحرام. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البَقَرَة: 143]، فهي تفيد أنّ القبلة، التي كان عليها محمد في مكة، هي نفسها التي كان عليها في المدينة، فلو استبدل الله بالقبلة التي كان عليها محمد في مكة قبلةً أخرى، لكان قوله تعالى مثلاً: القبلة التي (جعلناك عليها)، فالفعل (كنت) يفيد الماضي (أي في مكة)، والإشكال له صلة بالحاضر (أي في المدينة)، وهذا ما ينصّ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 144]، في إشارةٍ إلى تلك الاجتهادات والتطلّعات الجغرافية، التي قام بها الرسول ﷺ، وهو في المدينة؛ إذ وجد أهل الكتاب على قبلة تخالف تلك التي كان عليها في مكة، وهي الاتجاه نحو البيت الحرام، وتقلّب وجه الرسول بمعنى استفساراته وتساؤلاته؛ هل ما كان عليه في مكة هو الحق، أم ما كان عليه أهل الكتاب في المدينة هو الحق؟ وأين هو الاتجاه الصحيح نحو المسجد الحرام؟

إنّ هذا الموضوع وإشكالاته المعرفية له صلة وطيدة بالخروج من مكة، وبأهل الكتاب في المدينة، وما كانوا عليه من باطل بخصوص هذا الموضوع. فتدخل الوحي فاصلاً بأنّ القبلة الحق هي الاتجاه نحو المسجد الحرام (الكعبة) كما أنّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أنّ هذا هو الحقّ من ربّهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 144] .كما أنّ القرآن الكريم لم يَعدّ ما كانوا عليه قبلةً؛ بل عَدّ ذلك من أهوائهم، وحذّر الرسول ألا يتبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم؛ لأنّ همهم الأكبر أن يخضعوا الرسول ومن معه لأهوائهم في موضوع مهم جداً هو القبلة، بالاتجاه عكس البيت الحرام (الكعبة) مقام إبراهيم.

فالحقّ، الذي جاء لمحمد، في هذا الموضوع، هو نفسه الذي جاء في الكتب السابقة، وهي التوراة والإنجيل، لكن فريقاً من أهل الكتب يكتمون ذلك، ويتبعون الهوى؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿145﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿146﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿147﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 145-148]. ذكّر

القرآن الكريم الرسول ﷺ، ومن معه، أنّه في حالة تكرار الخروج من المدينة إلى مكان آخر، كما هو من مكة إلى المدينة، بأن القبلة أو الوجهة هي المسجد الحرام؛ أي البيت الذي وضع قواعده إبراهيم وإسماعيل، وحيثما كان الإنسان في الأرض فهي وجهته. انظر الآيات؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿149﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: 149-150].

بعثة محمد ﷺ والأمة الوسط:

يُطلق اسم الأمة، في ما هو عام، على الجماعة. قال الراغب الأصفهاني بهذا الشأن: «والأُمّة كلّ جماعة يجمعهم أمر ما إمَّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أم اختياراً، وجمعها أُمم»(1). الأُمّة من الفعل (أمَّ)، وهو الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، والقصد(2)، فدلالة مفردة «الأمة» مأخوذ من كلمة (الأم)؛ فأم الشيء هي أصله؛ وعليه فأمّ موسى يعني أصله، وأم الكتاب كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزّخرُف: 4]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورىٰ: 7]. وتنطبق مفردة الأمة على الجماعة، التي تجتمع في أصل معيّن حسياً كان أو معنوياً؛ فأنواع الدواب والطير تشكل أمماً من حيث الأصل (البيولوجي)، الذي ينتهي إليه كلّ نوع؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعَام: 38].

(1) المفردات في غريب القرآن، (م.س)، ص27.

(2) معجم مقاييس اللغة، (م.س)، ج1، ص22.

وفقاً لما سبق، الناس أمة واحدة؛ لأنّ أصلهم التكويني، من حيث الخلق «البيولوجي» واحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]؛ ويُضاف عند الإنسان، في صلته بمفهوم «الأمة»، البعد المعنوي؛ فهو له الحرية في الاختيار، وفي تحديد مصيره وموقفه من القضايا والأشياء؛ وقد تنبني أفعاله نتيجة اختياراته وتصوّراته تلك، ولهذا شكّل الانسان، عبر سرمدية التاريخ، أمماً، منها الصالح ومنها الطالح، وفق الأصل الذي اجتمعت حوله كلّ جماعة معيّنة، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]؛ قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108]؛ قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]. وكانت حجّة بعض من الناس؛ قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]؛ أي إنّهم على الأصل الذي كان عليه آباؤهم. وقد انطبق مفهوم (الأمة) على إبراهيم عليه السلام لكونه شكّل الأصل، الذي تفرّعت عنه الرسالة والنبوة من بعد نوح؛ فالكثير من الناس، اليوم، على ملته؛ قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحجّ: 78]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: 120].

وعليه، إذا كان مدلول «الأمة» يفيد الجماعة، التي تجتمع على أصل معين؛ فالأمة الوسط هي التي تجتمع على الدعوة إلى الخير، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وبهذا، هي خير أمة أخرجت للناس؛ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: 104]. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمرَان: 110].

فالحديث عن الأمة الوسط جاء من خلال سياق الحديث عن نبيّ الله إبراهيم وإسماعيل، وهما يرفعان قواعد البيت، ودعائهما بأن يبعث الله في عقبهم رسولاً يتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: 129]. والمقصود، هنا، بعثة محمد ﷺ، وهو من نسل إسماعيل عليه السلام والأمة الوسط؛ أي أمة قائمة على صراط مستقيم، هو الوسط بين التقصير والغلوّ، وهذا هو أعدل المناهج وأقومها، حيث إنّ التقصير يقعد بصاحبه عن اللحاق بالركب، كما أنّ الغلوّ يقطع صاحبه عن مواصلة الرحلة، بعد أن يكلّ حدّه، ويفتر عزمه[1]. كما أنّ الحديث عن الأمة الوسط[2] جاء في سياق الحديث عن القبلة والدعوة بالتوجّه نحو البيت الحرام عند كلّ صلاة.

إنّنا نتوجّه نحو البيت الحرام، الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل بالدعاء، ونجعله قبلنا من المغرب في اتجاه المشرق، ومن المشرق في اتجاه المغرب،

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ج1، ص165.

(2) يرى محمد أبو القاسم حاج حمد أنّ مفهوم «الأمة الوسط» إطار جغرافي للإسلام امتدّ ما بين الأرض المحرمة «مكة» في اتجاه الأرض المقدّسة «الشام الكبير بما فيها القدس»، وقاعدة ديمغرافية بخروج الأميين من العرب، بعد أن تحوّلوا إلى كتابيين من مكّة في اتجاه بيت المقدس قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورىٰ: 7]، وقد أنيطت الأمة الوسط بمهمّة الشهادة على الناس، وهذه الشهادة لا صلة لها بالوسطية الفكرية؛ إذ ارتبطت بالخروج الجغرافي والبشري إلى الناس.

للإحاطة بما قال به محمد أبو القاسم حاج حمد، انظر: الفصل الخامس من كتابه: إبستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، ط1، 2004م.

ومن الشمال في اتجاه الجنوب، ومن الجنوب في اتجاه الشمال. وبهذا، هو محور ونقطة الوسط التي يتجه نحوها الناس في كلّ بقاع الأرض عند كلّ صلاة، وهي النقطة التي نطوف ونلتقي حولها أيام الحج، لتجديد غايات عهد الله لإبراهيم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿124﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: 124-125]، وبالوفاء بهذا العهد المبنيّ على رسالة التوحيد، كما تقدّم، وما يرتبط بها، تتحقّق صفة الأمة الوسط.

فدلالة الوسط تمتدّ إلى مفهوم الشهادة على الناس، التي تقتضي مهمة البلاغ، التي ورثناها عن الرسول الكريم، فهو الشاهد علينا؛ إذ بوساطته تلقينا الوحي، وبوساطتنا ينتقل الهدى النبوي إلى غيرنا؛ فالرسول الخاتم جاء بالكتاب الخاتم للناس أجمعين. وننبه، هنا، إلى أنّ مفهوم الأمة الوسط تتّسع لكلّ الناس، الذين اتخذوا من الخير، والعمل به، وبما يرتبط به أصلاً، يجمعهم في الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181].

وحتى يتضح مفهوم الوسط أكثر، سنورد الآيات الواردة في الموضوع، فقد وردت هذه المادة بخمس صيغ في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البَقَرَة: 143].

وقال تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: 238].

وقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: 89].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القَلَم: 28].

وقال تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العَاديَات: 5].

تفيد (أوسط) و(أوسطهم) الحد الفاصل بين شيء أعلى وشيء أدنى، فأوسطهم؛ أي الرابط بين الكبار والصغار سناً، و«أوسط»؛ أي الحد الرابط بين أعلى قيمة نقدية للطعام وأدناها، وكذلك هو الأمر نفسه بالنسبة إلى الجمع الذي «وسط» الله به بين الجمعين، نصرة لنبيه محمد ﷺ، يوم التقى الجمعان في غزوة بدر.

خلاصة:

لقد رسمت قصة آدم السياق الكلي لموضوع العهد، الذي عهد الله به إلى آدم، وذريته من بعده، بألا يعبدوا الشيطان، وبأن يتخذوه عدواً، وهو العهد الذي بقي إبراهيم وفياً له، باجتنابه عبادة الأصنام، التي مضمونها عبادة الشيطان، وهي النصيحة، التي وجهها لأبيه بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مَريَم: 44]. وهو العهد الذي عهد الله به إلى بني آدم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يَس: 60]، وما إمامة إبراهيم، وما عهد الله إليه، بتطهير البيت وذريته من بعده، إلا تذكير بما عهد الله به إلى بني آدم، كما أنّ الكتاب (التوراة، والإنجيل، والقرآن) جاء من أجل بسط سبل الهداية بقصد الوفاء بهذا العهد، الذي قوامه الإصلاح والإعراض عن الظلم، وسفك الدماء، والفساد في الأرض، ويعني هذا أنّ الوفاء بالعهد يعود بالنفع العام على الناس أجمعين، بغضّ النظر عن أجناسهم، وألوانهم، ومعتقداتهم. ويتضح، من خلال السياق العام، لسورة البقرة، بعد تتبع قصة استخلاف آدم أنّ ما عهد الله به لإبراهيم عليه السلام يدور في سياق دعوة بني آدم إلى ألا يقصروا في حقّ ما استخلفهم الله فيه. وهذا أمر لا يتحقّق إلا بالاقتداء والهدي بما جاء به الأنبياء والرسل، ومن بينهم إبراهيم عليه السلام.

4- القرآن الكريم والاسترجاع النقدي لموضوع العهد مع إبراهيم عليه السلام:

توقفنا، فيما سبق، عند الصورة التي رسمتها نصوص العهد القديم لموضوع ما عهد الله به لنبيه إبراهيم، وقد اتضح أن نصوص العهد القديم حصرت ما عهد الله به لنبيه إبراهيم في الوعد بملكية أرض كنعان، وبالكثرة في نسله وذريته، وقد فصلت الموضوع عن كلّ ما يتعلّق بالقيم الفاضلة، التي تحثّ على الخير، والبر، والسلام، والمحبة. وقد تعرّضنا، كذلك، إلى الموضوع من خلال سورة البقرة؛ إذ يُعدّ هذا الموضوع، كما تقدم، من أحد الموضوعات المحورية لسورة البقرة، ونذكر، هنا، أنّنا لم ننحصر في مقاربة الموضوع من خلال ما جاء في سورة البقرة فحسب، بل حاولنا، قدر الإمكان، أن نجعل من سورة البقرة منطلقاً للموضوع، مع الإحاطة بما هو وارد في السور القرآنية الأخرى، وقد تبيّن من، خلال سياق الآيات، التي ورد من خلالها الموضوع، أنّ الله عهد لإبراهيم بتطهير البيت للطائفين، وللعاكفين، وللركع السجود، وقد بينّا أنّ التطهير، هنا، لا ينحصر في الطهارة الحسية؛ بل يتعداها إلى الطهارة القلبية والنفسية، بحثّ الناس على البر، والخير، والإعراض عن الإثم والعدوان... كما بينّا، كذلك، أنّ جوهر ما عهد الله به لإبراهيم عليه السلام لا يتعارض مع ما عهد الله به إلى نبيه آدم، بمن فيهم أبوهم آدم، ألا يعبدوا الشيطان. ففي هذا المبحث، سنبين، من خلال الجدول التالي أوجه تصديق وهيمنة القرآن على الموضوع.

- **الموضوع: العهد بكثرة النسل وملكية الأرض، كما تدعي نصوص العهد القديم:**

- **العهد القديم:**

جاء في العهد القديم، بخصوص ما عهد الله به لنبيه إبراهيم، «1- ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً. 2- فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً. 3-

فسقط أبرام على وجهه. وتكلم الله معه قائلاً. 4- أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. 5- فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم؛ لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم. 6- وأثمرك كثيراً جداً، وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون»[1].

- «7- وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً؛ لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. 8- وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم»[2].

• **القرآن:**

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: 124-125].

• **ما صدقه القرآن وهيمن عليه:**

ما صدقه القرآن يرتبط بأن هناك عهداً عهده الله لإبراهيم عليه السلام، أما من حيث مضمون وغايات ما عهد الله به لإبراهيم، فالقرآن قد هيمن على الموضوع، وحرره مما لحقه من الأهواء، التي لا تتماشى مع موضوع ما عهد الله به لسيدنا إبراهيم، فهيمنة القرآن تتجلى في التذكير بأن الله عهد لإبراهيم ولإسماعيل بإمامة وتطهير البيت للطائفين وللعاكفين وللركع السجود، فهذا التطهير من الطبيعي أنه لا ينحصر في الشق الحسي، بل يتعداه إلى التطهير النفسي والقلبي، الذي فحواه الإعراض عن عبادة الشيطان، وهذه هي وصية إبراهيم لأبيه لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ [مَريَم: 44]. والإعراض عن الشيطان، في حد ذاته، إعراض عن الظلم، فمهمة

---

(1) سفر التكوين، 17: من 1 إلى 6.

(2) المصدر نفسه، 17: 7، 8.

ما عهد الله به إلى إبراهيم أن يؤم الناس، ويحثهم على الخير، والسلام، وعبادة الخالق... إنّ الإمامة والعهد الذي عهد الله به إلى إبراهيم سيناله الصالحون من ذريته فحسب. ولا حظ للظالمين منهم في ذلك. والمقصود بالبيت، هنا، هو بيت الله الحرام؛ إذ من المعلوم أن إبراهيم رفع قواعده.

أما موضوع الأبناء، فقد ورد في سياق آخر من القرآن، ولا علاقة له بموضوع العهد؛ إذ نفهم من دعاء إبراهيم أن الله وهبه، على كبر سنه، إسماعيل وإسحاق، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: 39]. ويؤكد القرآن كونه كان متقدماً في العمر، وزوجته كذلك، التي فاجأتها بشرى من الملائكة عندما حلّوا ضيوفاً على إبراهيم؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿24﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿25﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿26﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿27﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿28﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿29﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: 24-30]. فمن أوجه هيمنة القرآن على الموضوع هو تمييزه بين موضوع ما عهد الله به لإبراهيم وموضوع ما وهبه من الأبناء الأبرار، وهم إسماعيل وإسحاق، على عكس التوراة التي أقحمت موضوع الأبناء في موضوع العهد، فضلاً عن تحريف كلا الموضوعين.

- **ملاحظات:**

ربطت نصوص العهد القديم موضوع العهد بما هو حسّي وشيئي، ويرتبط بمصالح مالية تتعلق بتوسعة ملكية الأرض، وفي هذا إبعاد لموضوع القيم، والخير، والحثّ على الصلاح المفروض أن يكون صلب ما يمكن أن يعهد الله به لنبي مقرب.

تتحدث نصوص العهد القديم عن أرض كنعان، ولا ندري هل ستأخذ هذه الأرض من أصحابها أم أنها أرض بدون، لا أحد يملكها؟؟؟

■ الموضوع: حفظ العهد (وفقاً لنصوص العهد القديم):

• العهد القديم:

يتجلى حفظ العهد، من لدن إبراهيم وذريته، في الختان. جاء في سفر التكوين: «9- وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم: 10- هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كلّ ذكر. 11- فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم»[1].

وورد، أيضاً، في سفر التكوين: «23- فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم، وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. 24- وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته»[2].

• القرآن:

لم تتحدّث آيات القرآن عن موضوع الختان على الإطلاق.

• ما صدقه القرآن وهيمن عليه:

يُعد موضوع الختان موضوعاً مقحماً على موضوع العهد، ولا علاقة، ولا صلة له به.

لا يوجد في القرآن ذكر لكون إبراهيم قد ختن نفسه وأبناءه.

تتجلّى هيمنة القرآن على الموضوع في كون القرآن حرّر الموضوع ممّا لحقه من الزوائد التي لا فائدة من تعدادها؛ فالعهد في القرآن هو ما عهد به الله إلى بني آدم بأن لا يعبدوا الشيطان، كما ورد في سورة يس قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:

(1) سفر التكوين، 17: 9-10-11.

(2) المصدر نفسه، 17: 23-24.

60]. ولا شك في أنّ ما عهد الله به إلى إبراهيم وذريته من بعده؛ بدعوتهم إلى تطهير البيت للطائفين وللعاكفين وللركع السجود؛ يدور في هذا الإطار.

• **ملاحظات:**

الأمر العجيب في نصوص العهد القديم أنّها ربطت الحفاظ على العهد بكثرة النسل، وملكية الأرض من لدن الله لإبراهيم بموضوع الختان.

■ الموضوع: العهد مع إسحاق بن إبراهيم ومع إسماعيل (وفقاً لنصوص العهد القديم):

• **العهد القديم:**

- بخصوص العهد مع إسحاق. جاء في سفر التكوين: «21- ولكن عهدي أقيمه مع إسحق (إسحاق) الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية»[1].

وجاء أيضاً «19- فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً، وتدعو اسمه إسحق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده»[2].

- بخصوص العهد مع إسماعيل جاء في سفر التكوين: «20- وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة»[3].

• **القرآن:**

- كما أشرنا من قبل، إن ما عهد الله به لإبراهيم من إمامة البيت وتطهيره... لا ينال الظالمين، ولو كانوا من ذريته. وقد تحدّث القرآن عن إسماعيل وإسحاق كونهم من الأنبياء، وكونهم على ملّة أبيهم إبراهيم، ولم تتحدث آيات القرآن عن العهد بملكية الأرض، أو غير ذلك. ويضمّ القرآن

---

(1) سفر التكوين، 17: 21.

(2) المصدر نفسه، 17: 19.

(3) المصدر نفسه، 17: 20.

الكريم العديد من الآيات القرآنية، التي تحدثت عن إسماعيل وإسحاق، من أهمها ما جاء في سورة البقرة الآيات (135-136) ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

• **ما صدقه القرآن وهيمن عليه:**

لقد هيمن القرآن على الموضوع المتعلق بإسماعيل وإسحاق، وهيمنته تتجلى في كون القرآن الكريم لا يفرق بين الأنبياء، ومن بينهم إسماعيل وإسحاق ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: 136]. وقد قدّم القرآن الصورة الحقيقية لماهية إسماعيل وإسحاق. وحرّر تاريخ الأنبياء ممّا لحقه من التزييف والتحرير بفعل تمركز بني إسرائيل حول ذواتهم وأهوائهم، وغير ذلك.

• **ملاحظات:**

من الملاحظ، في نصوص العهد القديم، أن الحظ الأكبر من العهد سيكون لإسحاق، بينما ستكون القلة القليلة من عهد الأرض وكثرة النسل لإسماعيل، فنصوص العهد القديم متحيّزة لإسحاق على حساب إسماعيل.

■ **الموضوع: الله رب العالمين وليس رباً لأحد دون آخر:**

• **العهد القديم:**

أشارت نصوص العهد القديم، بمقتضى العهد بين الله وبين إبراهيم، أنّ الله سيصير إلهاً لإبراهيم ونسله من بعده، دون غيرهم من الناس، وهذا أمر فيه امتلاك لله -سبحانه- عما يصفون «7- وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. 8- وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم» [1].

(1) سفر التكوين، 17: 7، 8.

وجاء في حقّ إبراهيم، من خلال نصوص العهد القديم: «4- وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض»[1].

• **القرآن:**

يضم القرآن الكريم الكثير من الآيات؛ التي تبيّن أن الله هو العادل فوق عباده، من بينها ما ورد في سورة البقرة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿80﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البَقَرَة: 80-81].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿18﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائدة: 18-19].

• **ما صدقه القرآن وهيمن عليه:**

تتجلى هيمنة القرآن على الموضوع في بسط المفهوم الحقيقي للألوهية، فمن العبث أن يدّعي قوم ما أن الله -جل وعلا- متحيّز لمصالحهم دون غيرهم من الناس.

وقد كشف القرآن ادّعاءهم أنّهم أبناء الله، وأنّ الله يحبّهم دون غيرهم؛ أي نفس ما جاء في نص العهد القديم من سفر التكوين، الإصحاح (26)، الذي مفاده: «7... لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك». وقد ردّ القرآن على هذا الادعاء الباطل بقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن

(1) المصدر نفسه، 26: 4.

﴿يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المَائدة: 18]. وقد نسب القرآن الكريم إلى نفسه مهمّة بيان حقيقة الفترة، التي بعث فيها الأنبياء؛ إذ ينبغي للناس جميعاً أن يعتصموا به في فهم حقيقة الأنبياء والرسل ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائدة: 19].

• **ملاحظات:**

من البيّن والواضح أنّ نصوص العهد القديم تتحدّث عن إله يتّصف بالتحيّز لقوم معينين، وهم بنو إسرائيل على حساب الناس الآخرين. وهذا يتعارض مع مفهوم الإله الحق الرحمة للعالمين، كما يتعارض مع مفهوم الإله العادل بين عباده.

- نصوص العهد القديم تتحدّث عن الإله كما تصوّره قوم معينون.

خلاصة واستنتاج:

يتّضح، من خلال الجدول السابق، وفقاً لتتبّع الآيات المتعلّقة بالموضوع، من خلال سورة البقرة وغيرها من السور، وكذلك من خلال ما هو وارد في نصوص العهد القديم، كون القرآن يصدّق العهد القديم من حيث عنوان الموضوع الموسوم بعنوان «عهد الله لإبراهيم»، ولكن القرآن الكريم لا يتوافق، بشكل جذري، مع مضامين الموضوع، وحيثياته، وتبعاته، كما هي واردة في العهد القديم؛ إذ هيمن القرآن على الموضوع، وحرّره من كلّ الزوائد والشوائب التي أدخلت عليه، وأبعدته عن كلّ ما هو غائيّ ومقصدي، وله علاقة بالفضائل والقيم والأخلاق الرفيعة التي تفضي إلى البرّ والخير.

ربط القرآن الكريم موضوع ما عهد الله به لإبراهيم بتطهير البيت للطائفين، وللعاكفين، وللركع السجود، وبإمامة إبراهيم للناس، ودعوتهم إلى توحيد الخالق، وحثّهم على الإقبال على عمل الخير، والبر، والسلم، والإعراض عن اتّباع خطوات الشيطان، الذي همّه أن يفسد الإنسان في الأرض، ويسفك

الدماء. والوارثون إمامةَ إبراهيم في هذا الأمر هم الصالحون من أبنائه. أمّا الظالمون منهم، فلا حظّ لهم فيما عهد الله به إلى نبيه إبراهيم ﷺ؛ فالغاية والهدف، في ما عهد الله به لإبراهيم، تدور في سياق الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والإعراض عن الشرك، وذلك بتطهير البيت للطائفين، وللعاكفين فيه، وللراكعين، وللساجدين من حوله؛ فهؤلاء وأمثالهم -لا شك- سيكونون من الموحدين لله، ومن عباده الصالحين.

إنّ هيمنة القرآن على الموضوع بأكمله تتجلّى في تحريره من القيود الحسيّة والمصالح المادية، التي قيّدته بها نصوص العهد القديم؛ إذ جعلت من موضوع العهد موضوع هبة، وملكية للأرض، وما يتبعها من مصالح مالية وغيرها... كما جعلت منه موضوع كثرة في الأولاد، وما يتبع ذلك من قوّة شوكتهم على غيرهم، والغريب في هذا أنّها جعلت حفظ هذا العهد مرتبطاً بالختان، الذي يعني قطع وإزالة جلد مقدّمة العضو التناسلي عند الذكر؛ فإبراهيم، كما ادعت نصوص العهد القديم، قد ختن كلّ أولاده، كما أنه ختن نفسه وهو بعمر (99) سنة. إنّ موضوع الختان هذا، كما هو وارد في نصوص العهد القديم، موضوع باطل، مقحم في أصله على موضوع العهد، فلا حديث عنه في القرآن بأكمله.

وقد صوّرت نصوص العهد القديم، وهي تتحدّث عن العهد مع إبراهيم، أنّ الله متحيّز لفئة من الخلق، وهم بنو إسرائيل من ذرية إبراهيم على حساب غيرهم من الناس ممّن خلق، والغريب في الأمر أنّ تحيّز الله هذا لبني إسرائيل لا ينبني على كونهم أناساً قد استجابوا لأوامره ونواهيه وهديه؛ بل على العكس من ذلك تعالى الله عمّا يصفون. فمن البيّن والواضح أنّ نصوص العهد القديم، وهي تتحدّث عن الخالق، لا تتحدث عنه -سبحانه- كما وصف نفسه -جل جلاله- «الله الرحمن الرحيم الواحد الأحد الخالق المصور...»؛ بل تتحدث عن الله -سبحانه- كما صوره بنو إسرائيل وفقاً لأهوائهم وتحريفهم لما جاءهم من عند الله، كما تقدم، وقد كشف القرآن

هذا الأمر بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [يُونس: 68-69].

المبحث الثالث

من طباع بني إسرائيل في سورة البقرة

ورد الحديث عن بني إسرائيل في القرآن في مواطن عديدة، ولكنّ سورة البقرة تخصّصت، دون غيرها، في بسط قصّة بني إسرائيل في نظرتهم وعلاقتهم بالأنبياء. وبداية تكوّن قوم بني إسرائيل كان مع بعثة موسى فيهم، ومجيئه بكتاب التوراة، وقد تلا موسى العديد من الأنبياء، الذين بُعثوا في قوم بني إسرائيل، وقد بُعث في بني إسرائيل، كذلك، رسول الله عيسى عليه السلام الذي جاء مصدقاً لما جاء به موسى، وقد جاء بكتاب الإنجيل. ومن المعلوم أنّ بني إسرائيل قد اختلفوا حول رسول الله عيسى، واختلفوا من بعده؛ فالمتتبّع لتاريخ بني إسرائيل سيقف -لا شك- عند الكثير من الخصوصيات والطباع التي يتّصف بها قوم بني إسرائيل؛ ولهذا سنتطرّق إلى بعض من الطباع، التي عُرف بها بنو إسرائيل من خلال ما جاء في سورة البقرة.

بنو إسرائيل ونقض العهد:

مضى بنا السياق القرآني، من خلال سورة البقرة، وهو يقر بأنّ الله خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان، وبعده، أخذنا إلى موضوع استخلاف آدم في الأرض، وقد جئنا على بيان ذلك فيما تقدّم من البحث، وبعد هذا أخذنا سياق السورة إلى الحديث عن بني إسرائيل. والمتمعّن في السياق سيدرك الصلة بين قصة استخلاف آدم، وقصة استخلاف بني إسرائيل[1]، ووجه الصلة بينهما هو التذكير بعهد الله؛ فقد سبق أن بينّا أنّ الله عهد إلى آدم وذريته من بعده ألا يعبدوا الشيطان...

---

(1) في ظلال القرآن، (م.س)، ج1، ص65، (بتصرف).

أمّا بنو إسرائيل، فقد عهد الله إليهم أن يؤدوا الأمانة، وهي أمانة العلم بالكتاب، التي حملوها إلى الناس، وألا يكتموا منها شيئاً، أو يحرّفوها على غير الوجه الذي جاءت عليه... جاء في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 40-42] كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عِمرَان: 187]. وكما يشير إليه، أيضاً، قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ [آل عِمرَان: 81][1]. ومن بين ما يتضمّنه ما عهد الله به إلى بني إسرائيل في الكتاب هو بشارته ووصيته بأن «يبيّنوا للناس أمر محمد ﷺ أنّه رسولٌ، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة أنّه نبيّ الله، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند الله»[2]. ولكن أهل الكتاب نقضوا هذا العهد، وكذبوا ببعثة محمد ﷺ إلا القليل منهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: 157-158].

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ج1، 78، (بتصرف).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص557.

بنو إسرائيل وقداسة التاريخ:

نفهم من سورة البقرة أنّ أهل الكتاب أضفوا نوعاً من القداسة على ما مضى من تاريخهم في علاقتهم بالأنبياء الذين بُعثوا فيهم، وما يطبع ذلك التاريخ الطويل من وقائع وأحداث أثروا فيها، وتأثروا بها كثيراً، إلى درجة فهمهم ذلك التاريخ وفق ما تقتضيه أهواؤهم ومصالحهم الشخصية. وعين المشكلة، هنا، أنّ تاريخهم هذا تحوّل، مع مرور الزمن، إلى ضباب يحول بينهم وبين الإيمان برسالة محمد ﷺ، وذلك لحصرهم النبوة في تاريخهم فحسب، ولا يمكن أن تتحقق النبوة والرسالة، من وجهة نظرهم، إلا فيهم فحسب. ويخبرنا سياق الآيات بدعاوى «اليهود والنصارى العريضة في الجنة: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البَقَرَة: 111]... وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى... ليهتدوا ...﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البَقَرَة: 135]»[1]. وفي تقديرنا، ادعاؤهم هذا ناتج عن تعاملهم مع تاريخهم وماضيهم بمنطق القداسة.

وهذا من بين الأسباب، التي حالت بينهم وبين الإيمان بما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم ينظرون إلى الحاضر بعين الماضي، الذي صنعه آباؤهم وأجدادهم، بما فيه من صواب وخطأ. وبقصد إخراجهم من هذه الحالة النفسية، التي جعلت من التاريخ صنماً يُعبد من دون الله، بسط القرآن في وجههم قاعدة أساسية ومهمة جدّاً، وهي قوله تعالى من خلال سورة البقرة الآية (134) والآية (141): ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 134]. ومفاد هذه الآية يعني: «يا معشر اليهود والنصارى دَعوا ذكر إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم... فدعوا انتحالهم وانتحال مللهم، فإن الدعاوَى

(1) في ظلال القرآن، (م.س)، ج1، ص111.

غيرُ مغنيتكم عند الله، وإنما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتم عملتموها، وقدمتموها»[1]. وتؤكد هذه الآية أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره، متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أنّ أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم[2].

لقد جاءت هذه الآية مكررة في سورة البقرة، ونستنتج من السياق القرآني الذي وردت من خلاله، أنها تفيد العمل على تصحيح النظرة الخاطئة عند بني إسرائيل حول الأنبياء والرسل، بدءاً من إبراهيم عليه السلام وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وغيرهم، فبنو إسرائيل يعتقدون في الأنبياء عكس ما جاء به القرآن، وقد سبق أن بينا فيما تقدم أن عهد الله لإبراهيم لا يناله إلا الصالحون من ذريته. أما الظالمون، فلا عهد لهم عند الله سواء من ذرية إبراهيم أم من غير ذريته؛ لأن هذا العهد ينبني على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، إلا أن النظرة الخاطئة لبني إسرائيل حالت بينهم وبين ما جاء به القرآن، فنظرتهم إلى إبراهيم، وما تلاه من الأنبياء، تنبني على العصبية والتمركز حول تاريخ شعب بني إسرائيل كشعب اختاره الله، وفضله على باقي الشعوب، ويحبه، ويتحيز إليه دون الشعوب الأخرى.

إخفاء الحقيقة وكتمانها:

تعدّ قصة البقرة دليلاً من الدلائل، التي تتضح، من خلالها، حقيقة ما كان عليه بنو إسرائيل من العنت والعناد في حقّ آيات الله، حيث لا تزيدهم الآيات إلا كفراً، ولا يزيدهم النور إلا عمى[3]. كما أنّ هذه القصة تبيّن كون بني إسرائيل يتّصفون بإخفاء الحقيقة وكتمانها في غفلة عن أنّ الله -جل وعلا-

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، (م.س)، ج1، ص101.

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (م.س)، ج1، ص194.

(3) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ج1، ص96.

لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: 72-73]. لقد قُتل، في القوم، زمن موسى، قتيل فادّارؤوا فيه: أي اختلفوا في التعرف إلى قاتله؛ إذ رمى بعضهم بعضاً به، ودفع بعضهم بعضاً إلى موقف الاتهام فيه. وبقصد معرفة القاتل لجأ القوم إلى موسى يسألونه آية تنطق القتيل باسم قاتله، وهم يريدون بهذا أولاً، وقبل كلّ شيء، امتحاناً لموسى، واستيقاناً من دعواه أنّه رسول الله، وكليم الله![1]. فأمرهم نبيهم موسى بذبح بقرة لمعرفة القاتل، وقد ترددوا في الأمر كثيراً، إلى درجة اتهام موسى بأنه يستهزئ بهم، والآيات التالية تكشف تردّدهم بكثرة أسئلتهم عن طبيعة البقرة وماهيتها، وبعد ذبحهم البقرة، وضربهم المقتول ببعضٍ من لحمها، كشف الله لهم الحقيقة التي أخفوها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: 67-74].

---

(1) المصدر نفسه، ص96، (بتصرف).

ولا شكّ في أنّ ورود قصّة البقرة، التي سُمّيت السورة باسمها، جاء من باب الاسترجاع النقدي، الذي قام به القرآن الكريم، في علاقته بما سبقه من الكتاب، فقد ورد الحديث عن القصة نفسها في أسفار العهد القديم، كالآتي: «1- إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله. 2- يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل. 3- فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها، لم تجر بالنير. 4- وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي. 5- ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي؛ لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه، ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة. 6- ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي. 7- ويصرحون ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم، وأعيننا لم تبصر. 8- اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب، ولا تجعل دم بري في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم»[1]. هكذا ذُكرت القصة في العهد القديم بإجمال أضاع المقصود، وأبهم الغرض من هذا الذبح، أهو إضاعة ذلك الدم باطلاً أم هو عند تعذر معرفة المتهم بالقتل؟[2].

سفك الدماء في ما بينهم:

سبقت الإشارة إلى تحفظ الملائكة على استخلاف آدم، مخافة أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وقد بينّا أنّ الله أنعم على آدم وذريته بألا يقعوا في هذا المحظور إن أرادوا ذلك. ويُعدّ عنصر النهي عن سفك الدماء عنصراً مهمّاً من بين عناصر «الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات

(1) سفر التثنية، 21: 1 إلى 8.

(2) التحرير والتنوير، (م.س)، ج1، ص547.

-أو الوصايا- العشر[1] المنزلة على موسى عليه السلام»[2]. وقد جاء هذا العنصر تحت عنوان «لا تقتل»، «وهو الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل: أن يحترموا حرمات الدماء والأموال، فلا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يعتدي بعضهم على ما بيد بعض من أموال وديار... وإذ كان هذا الميثاق عاملاً مادياً يحرس أمنهم وسلامتهم، فقد أقروا به، وشهدوا آثاره حين استجابوا له، وعملوا به، فهو قانون يعطي ثماره عاجلة غير موجّلة»[3]. والذي يؤكّد هذا أنّ الأمن والسلام كان من بين أدعية إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

إلا أنّه -مع الأسف- لم يفِ بنو إسرائيل بهذه الوصية، وذلك بسفك الدماء والقتال فيما بينهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿84﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿85﴾

---

(1) انظر: سفر التثنية، 5: من 6 إلى 21، وسفر الخروج، 20: من 1 إلى 17. «1- لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. 2- لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض. 3- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً؛ لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً. 4- احفظ يوم السبت لتقدسه كما أوصاك الرب إلهك ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك. 5- أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. 6- لا تقتل. 7- لا تزن. 8- لا تسرق. 9- لا تشهد على قريبك شهادة زور. 10- ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك».

(2) التحرير والتنوير، ج1، ص586.

(3) التفسير القرآني للقرآن، (م.س)، ص105.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البَقَرَة: 84-86]. إنّ القرآن الكريم، وهو يذكرنا بأخطاء الأولين، ومنهم بنو إسرائيل؛ هو، في الوقت ذاته، يحذرنا ألا نحذو حذوهم، وألا نسلك مسلكهم.

المبحث الرابع

سورة البقرة والمشترك الإنساني

في الوقت الذي نجد فيه نصوص العهد القديم متحيّزة لذرية إبراهيم، ولاسيما نسل إسحاق، على حساب مصالح العباد، وقد جعلت من الخالق -سبحانه- إلهاً متحيزاً لبني إسرائيل دون غيرهم من الناس، نجد نصوص القرآن يطبعها الانفتاح على الناس جميعاً، وتحمل أبعاداً أخلاقية يتساوى، من خلالها، كلّ الناس في علاقة بعضهم ببعض، وفي علاقتهم بالأرض وبالخالق. فكثيرة هي الآيات القرآنية، التي تحيي في الناس الوعي بالمشترك الإنساني، وتذكرهم بأنّ ربّهم واحد، وبأنّهم ينتمون إلى أصل واحد، وبأن الأرض (الكون) وما فيها، ليست حكراً على جنس من الناس دون آخر، فالكون بمثابة البيت الذي يسع الناس جميعاً؛ فإعماره يعود بالنفع على الجميع والإفساد فيه كذلك. وآيات سورة البقرة كغيرها من السور القرآنية، جاءت ملبية لهذه الغاية والهدف، وهو التركيز على المشترك الإنساني.

إنّ الحديث عن المشترك الإنساني، في حدّ ذاته، حديث عن منظومة القيم، وقد ذهب الدكتور طه جابر العلواني إلى حصر منظومة القيم في القرآن الكريم في ثلاثة أساسيات هي: التوحيد، والتزكية، والعمران[1]، ويمكن أن نشتق منها القيم الأخرى التي تتفرّع عنها. فالتوحيد يقتضي توحيد الخالق والتسليم له، والخروج من حالة الفوضى والشركاء إلى حالة وحدة الوجهة،

(1) العلواني، طه جابر، التوحيد والتزكية والعمران، دار الهادي، لبنان، ط1، 2003م، ص7.

والغاية، والهدف. أمّا التزكية، فهي تقتضي تطهير النفس، والارتقاء بها نحو الخير والفضيلة، بدل الظلم والرذيلة. أما الإعمار، فيتصل بإعمار الكون وفقاً لما فيه مصلحة للخلق بتوظيف الطاقات العلمية والعملية في إعمار الأرض، وترقية الحياة البشرية.

1- الرب الإله الواحد الأحد:

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: 163].

قال تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدّخان: 8].

تؤكد نصوص القرآن الكريم، من خلال سردها لقصص الأنبياء والرسل، بدءاً بقصة آدم، التي أوردناها من قبل، أنّ الله هو رب العباد أجمعين، وأنه -سبحانه- له المثل الأعلى، وليس كمثله شيء؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النّحل: 60]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: 11] فهو العادل فوق عباده.

ولا شك في أنّ مفهوم الله، الإله الخالق الواحد الأحد، الذي لم يلد، ولم يولد، ورب العالمين، ومالك الملك، لا شريك له في ملكه وحكمه أبداً، يمثّل رؤية كونية شاملة، لها انعكاساتها في تأسيس المنظومات الأخلاقية، والفلسفية، والعلمية، والاجتماعية أيضاً، غير أنّ مفهوم الله في القرآن ليس، فحسب، وصفاً للذات الإلهية العلية (الله)، وإنّما هو ما يقتضيه من التوحيد، وإرجاع كلّ شيء إلى علّة واحدة أولى منها انبثق الوجود، إنّه ليس مجرّد نفي للشريك، أو الولد، أو المثيل، أو تعريف عدديّ لله جل شأنه؛ بل هي دعوة لجعل الواحد هو العامل المحرك في حياة الفرد والمجتمع[1].

ولهذا، ليس من الغريب أن تكون كلمة (الله) «هي الكلمة المركز العليا في النظام القرآني، التي لا تفوقها كلمة أخرى في المكانة والأهمية. إنّ

(1) الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم، (م.س)، ص144.

الرؤية القرآنية للعالم ذات مركزية إلهيّة بشكل جوهري. وطبيعي، تماماً، أن يهيمن مفهوم الله... على كلّ شيء من الأعلى، ويمارس تأثيراً في البنية الدلالية»[1] للقرآن الكريم.

أمّا في العهد القديم، فيظهر الربّ إلهاً لفئة مخصوصة من الناس دون غيرها من الخلق، كما تجعل منه إلهاً متحيزاً لمصلحة فئة من الناس، وهم بنو إسرائيل من نسل إسحاق بن إبراهيم، دون غيرهم من الناس والشعوب، وبهذا الشكل، نصوص العهد القديم تنفي عن الله -جل وعلا- صفة المثل الأعلى[2].

ويتضح، كذلك، أنّ نصوص العهد القديم، من خلال حديثها عن الأنبياء، وما عهد الله به إليهم، يحكمها تصوّر أناس يعتقدون بأنّ الله إلههم وحدهم فحسب، فهو يحميهم ويعطيهم ما ينزعه من غيرهم، فعهده إلى أنبيائه مرتبط بما هو حسيّ ومصلحي، ويدور في دائرة الحياة الدنيا، ولا صلة له بالقيم، والفضائل، ومكارم الأخلاق، الأمر الذي أظهره القرآن، وبيّنه في مواطن عديدة.

لقد أُرسِيَت دعائم التوحيد، وأقيمت قواعده في فطرة الإنسان، كما أقيمت أسسه في الطبيعة؛ فالنفس البشرية لها نزوع نحو معرفة وحدانية الخالق[3]؛ فموضوع توحيد الخالق في مجمله يمتدّ إلى الكون بأكمله.

2- الإنسان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجرَات: 13].

---

(1) الله والإنسان في القرآن، (م.س)، ص157.

(2) جاء في سفر التكوين: «7- وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. 8- وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم». سفر التكوين، 17: 7، 8.

(3) التوحيد والتزكية والعمران، (م.س)، ص14.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: 1].

من الجلي والواضح أنّ من مهمات الجماعة المؤمنة أن تعيد البشرية لتتطابق مع أصلها، الناس بوصفهم أمة واحدة متساوية في الخلق لرب واحد؛ أي العودة بالجماعة البشرية إلى الأصل الواحد، وهي امتداد ونهاية للمهمّة التي أُرسل من جهتها الأنبياء في تصحيح التاريخ الأرضي البشري، الذي لا يفتأ معوجاً، مقسماً البشر إلى أرباب وعبيد، نبلاء ووضيعين، وعلى آخر الرسالات تنفيذ تلك المهمة، وتحقّقها على الأرض، وتحويلها من وحي متعالٍ لتوضع في سياق التاريخ[1]. وهذا ما أكّده الرسول الكريم في حجة الوداع بقوله ﷺ: «يا أيها الناس، إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب»[2].

ولهذا نجد من مميزات الخطاب القرآني أنّه يذكّر الناس بالأصل المشترك، الذي يجمعهم من حيث النشأة والخلق، وبأنّهم سواسية أمام الخالق، فلا فضل لأحد منهم على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح، الذي مفاده جلب المصلحة للناس جميعاً، بغضّ النظر عن اعتقاداتهم، وأجناسهم، وألوانهم، فطبيعة العلاقة، التي ينبغي أن تسود بينهم، هي التعاون على البر والتقوى، والإعراض عن الإثم والعدوان؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المَائدة: 2]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المَائدة: 8].

(1) السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، دار اقرأ، بيروت - لبنان، (د.ط)، 1974م، ص9.
(2) رواه مسلم.

وعليه، من غايات الأديان (أي الهدى الذي وعد الله به آدم وذريته من بعده، في حالة هبوطه من الجنة) تذكير الإنسان بقيمته في الحياة الدنيا، وبأنّ مسلك التقوى والإيمان لا يكون إلا من خلال الإنسان نفسه؛ أي أنّ طريق العبور نحو الخالق يكون من زاوية ما يعود بالنفع على الإنسان نفسه، فمن اعتدى على نفسٍ وقتلها، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن برّها، وأحسن إليها، وأحياها، فكأنما أحيا الناس جميعاً، فقيمة النفس الواحدة بقيمة الجمع؛ قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة: 32].

ولكن بعودتنا إلى نصوص العهد القديم، فيما يرتبط بموضوع العهد، وقصص الأنبياء، نجد من داخلها التحيز نفسه للجنس والشعب، الذي اختاره الله من بين الشعوب، وعَدّه شعبه، وسيتقرب إليه على حساب الشعوب الأخرى، وهذا الشعب من نسل إسحاق بن إبراهيم، كما تقدّم، وقد ورث عن أبيه وعد وراثة الأرض، التي ستنتزع من ملكيّة أصحابها، وتُعطى لنسله، وسبق أن بينّا أنّ بعض نصوص العهد القديم تستبيح سفك الدماء، والاعتداء على ملكية الغير من أجل الدخول إلى الأرض الموعودة(1). وهذا ما يخالف

(1) انظر، على سبيل الحصر، ما ورد في سفر التثنية: «1- متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك. 2- ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم. 3- ولا تصاهرهم. بنتك لا تعطي لابنه وبنته لا تأخذ لابنك. 4- لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى، فيحمى غضب الرب عليكم، ويهلككم سريعاً. 5- ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار. 6- لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. 7- ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم، واختاركم =

النصوص الأخرى، التي كُتِبت لموسى على لوحي الحجر، وهي الوصايا العشر[1]، التي تدعو إلى الإعراض عن الظلم والعدوان، وبهذا هي تتقارب مع القرآن الكريم.

كما أنّ العهد القديم يصف الأنبياء بكونهم متحيّزين لشعوبهم وأهليهم على حساب الشعوب الأخرى، بدءاً من نوح، الذي جعل من رابطة الدم والقرابة أساساً لمن يركب معه في السفينة. جاء في سفر التكوين: «18- ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك»[2]، بقصد النجاة من الطوفان، بينما يخبرنا القرآن أنّ الذين ركبوا معه هم الذين آمنوا به، وصدقوه من الناس، بغضّ النظر عن رابطة الدم والقرابة، ويكشف لنا القرآن أنّ نوحاً، في لحظة الطوفان وتدفق المياه، أخذته عاطفة الأبوة، واشتكى من عدم ركوب ابنه معه، وخاطبه الحق بأنّ ابنه ليس من أهله، على أساس أنه عمل غير صالح، فالذين ركبوا مع نوح على ظهر السفينة، وكُتبت لهم النجاة، كان العمل الصالح هو قوام وجودهم في الحياة، قبل الطوفان وبعده، أمّا الذين لم يركبوا مع نوح، فإنهم من القوم الظالمين[3].

ويظهر نبيّ الله إبراهيم، كذلك، من خلال النصوص التي أوردناها، متحيزاً لذريته ونسله أكثر مما كان هاجسه الأكبر مصلحة العباد والناس جميعاً، فهو يبدو، في نصوص العهد القديم، حريصاً على تأمين مستقبل ذريته بأن يوفر لهم الأرض والسكن، ويطمح إلى أن يكون نسله كثيراً،

= لأنكم أقل من سائر الشعوب. 8- بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم أخرجكم الرب بيد شديدة، وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر. 9- فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه، ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل». سفر التثنية، 7: من 1 إلى 9.

(1) انظر: سفر التثنية، 5: من 6 إلى 21. وسفر الخروج 20: من 1 إلى 17.

(2) سفر التكوين، 6: 18.

(3) انظر: سورة هود، الآيات من 26 إلى 49.

وتشكّل منه قبائل وشعوب متعددة، ولقد بارك الله إبراهيم، وعهد له بما كان يتمنّى.

بينما يُظهر القرآن أنّ ما جاء به الأنبياء والرسل يشتمل على الناس جميعاً، فالعهد الذي عهد الله به إلى آدم بأن يحذر من الشيطان يشتمل على كلّ ذريته لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 60-62]. ومهمة الأنبياء تكمن في تذكير الناس جميعاً بهذا العهد، الذي يقتضي الإصلاح بدل الفساد والعدوان، فعهد الله لإبراهيم بتطهير البيت يشتمل على كلّ الناس؛ لأنّ البيت بيتهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 96]؛ فالبيت وُضع للعالمين ليتذكروا، من خلاله، معالم الهدى والبركة، ويتجنبوا، بذلك، عبادة الشيطان، ولا ينحصر ما عهد الله به إلى إبراهيم في نسله وذريته، كما هو في العهد القديم.

إنّ نصوص القرآن تذكّرنا بأنّ دعوة الأنبياء والرسل دعوة لكلّ الناس وللعالمين، ولا تقتصر على ذريتهم ونسلهم، كما يدّعي الكثير من نصوص العهد القديم.

3- الأرض (الكون):

يتبيّن، من خلال نصوص القرآن الكريم، أنّ الأرض هي مجال الاستخلاف لآدم ولذريّته من بعده، والخلافة تقتضي الإصلاح في الأرض بدل الفساد، وسفك الدماء.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البَقَرَة: 204-205].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

تؤكّد نصوص القرآن أنّ الأرض ملك لكلّ الناس، وفق قاعدة الاستخلاف التي تشتمل على ذرية آدم، وأنّ وراثة الأرض تقوم على أساس الإصلاح. قال تعالى:

{﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، بغضّ النظر عن نسبهم وجنسهم، والوراثة لا تفضي، بالضرورة، إلى الملكية، بقدر ما هي وراثة من حيث الإصلاح في الأرض، بينما الكثير من نصوص العهد القديم تجعل من وراثة الأرض محوراً لما عهد الله به إلى إبراهيم ونسله من بعده، والغريب أنّ هذه النصوص يحكمها حبّ الملكية، ولا تعطي أية أهمية لطبيعة التصرّف الأخلاقي في تلك الملكية.

جاء في سفر التثنية: «8- انظر قد جعلت أمامكم الأرض ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم واسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم»(1).

جاء في سفر التثنية: «21- انظر. قد جعل الربّ إلهك الأرض أمامك، اصعد تملك كما كلمك الرب إله آبائك. لا تخف ولا ترتعب»(2).

تشير هذه النصوص إلى أرض معيّنة، وهناك نصوص أخرى في العهد القديم تشير إلى الأرض بشكل عام، ولكن لم تُعطِ أهمية لطبيعة العلاقة التي ينبغي للإنسان أن يحدثها مع المجال الذي هو فيه، الأمر الذي بيّنه القرآن في مواطن عديدة؛ فالفساد في الأرض يُعدّ مدخلاً رئيساً لنقض العهد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27].

---

(1) سفر التثنية، 1: 8.

(2) سفر التثنية، 1: 21.

خاتمة البحث:

الكتاب، الذي أُنزل على محمد ﷺ، كتابٌ واحد اسمه القرآن، ومن أعظم الغايات والمقاصد الكبرى، التي يتضمّنها، أنه تذكير للناس بالحق، الذي خُلقت به السموات والأرض وما بينهما. كما أنّه فرقان بين الحق وغيره لمن أراد أن يتدبر؛ فبالقرآن نهتدي، وبه نفهم ما قبله، ونستغني عمّا سبقه، فهو خطاب عالمي لكلّ الناس؛ فالنبي الخاتم جاء بالكتاب الخاتم رحمةً للعالمين. والعلاقة، التي أسسها القرآن الكريم، بما سبقه من الكتب، فيها اعتراف صريح وتصديق لتلك الكتب، وفيها، في الوقت ذاته، هيمنة على ما تتضمّنه تلك الكتب بفعل نسخ أحكامها وشرائعها، وتبيين ما تمّ إخفاؤه، أو تبديله منها، باطلاً وزوراً، والكشف عمّا تتضمنه من الحق.

وقد أكد جلّ مفسري القرآن أنّ القرآن شاهد على ما قبله من الكتب السماوية، ومؤتمن عليها. كما بينّا في هذا البحث أنهم، على الرغم من وعيهم بهذا المعطى المنهجي الخاص بالقرآن دون غيره، لم يكرّسوا جهدهم في العمل على إظهار القضايا والموضوعات، التي عمل القرآن، من خلال سوره وآياته، على تصديقها، والهيمنة عليها؛ أي استرجاعها بمدخل نقديّ ينفي عنها ما لحقها من التبديل والتحريف. كما أنّهم، عند حديثهم عن موضوع التصديق والهيمنة، لم يشغلوا أنفسهم بالحديث عن الآليات، التي وظّفها أهل الكتاب في تحريفهم وتبديلهم ما جاءهم من الكتاب، والتي جاء القرآن على ذكرها.

ولقد عملنا، من خلال هذا البحث، على بيان أهمية الوعي المنهجي بموضوع التصديق والهيمنة في القرآن الكريم، وقد بينّا الخصوصيات المنهجية، التي اتصف بها الخطاب القرآني عن غيره من الكتب؛ من بينها أنّه خطاب عالمي يشمل كلّ الناس، كما أنه خطاب مفتوح على الكون والإنسان، فجلّ آيات القرآن الكريم تتحدّث عن الكون (عالم الطبيعة).

وحديثه هذا يلتحم بما توصل إليه العلم في كثير من حقول العلم والمعرفة. ومن خصوصياته، كذلك، أنّه كتاب يتصف بالخاتمية؛ فالرسول الخاتم جاء بالكتاب الخاتم، فلا رسول، ولا كتاب، بعد بعثة محمد بن عبد الله ﷺ، إلى غير ذلك من الخصوصيات المنهجيّة، التي خص الله بها كتابه (القرآن) دون غيره من الكتب. وفي تقديرنا أنّ هذه الخصوصيات، وغيرها، هي ما جعلت منه كتاباً يتّصف بالتصديق والهيمنة على ما قبله.

وقد أجرينا التطبيق، فيما بسطنا القول حوله، على سورة البقرة مثالاً تطبيقياً، يظهر، من خلاله، بشكل جلي، الاسترجاع النقدي، الذي قام به القرآن، من خلال سورة البقرة، لما هو وارد في الكتاب المقدس حول قصّة الخلق، واستخلاف آدم، وغير ذلك، وقد بينّا، وفقاً لمنهج المقارنة، ما أخفته وبدّلته نصوص الكتاب المقدس، وتمّ بيانه، وإظهاره من لدن الآيات القرآنية من الحقّ، الذي يعني الناس جميعاً؛ في موضوع يعنيهم جميعاً، وهو قصة أبيهم آدم.

فكلّ سور القرآن الكريم ينبغي أن يتمّ التعاطي معها وفقاً لهذه الرؤية والمنهج، ولاسيما التي تتحدّث عن القصص النبوي، بقصد تجلية نظرة القرآن لكثير من الحقائق التي تعني الناس جميعاً. على رأسها تاريخ الرسل والأنبياء ببيان حقيقتهم، والغاية التي بعثوا من أجلها، وهذه مهمّة الباحثين والدارسين، طمعاً في أن يكون القدر حليفاً لنا لنسهم بالقدر المتواضع في هذا الأمر.

إنّ هذا المنهج (منهج التصديق والهيمنة) ستزداد أهميته، بشكل أكبر، في الوقت الراهن وما بعده. فنحن لم نأتِ في هذا البحث إلا على الجزء اليسير منه؛ ولهذا ينبغي على المتخصصين في الدراسات القرآنية وغيرهم في مختلف التخصصات العلمية؛ العمل على تقوية وتقويم أركان هذا المنهج، وتفعيل مداخله المعرفية، فهو المنهج المعوّل عليه في التأسيس للتعاطي

العلمي مع النصوص المؤسسة للديانات السماوية بالوقوف عند نقاط التلاقي والاختلاف فيما بينها بشكل عام، و بشكل خاص، الوقوف عند المراجعات النقدية، التي يتضمنها القرآن الكريم في علاقته بما سبقه من الكتب، كما أنّ هذا المنهج معوّل عليه ليخرج التعاطي والتعامل مع القرآن الكريم من الفهم الضيق إلى الفهم الموسع، ومن الفهم المحلي إلى الفهم الكوني والعالمي.

ولا ينبغي فهم أنّ منهج التصديق والهيمنة ينحصر في علاقة القرآن بما قبله من الكتب، فحسب، بل يمتد إلى الكون بأكمله؛ فالقرآن الكريم كتاب مفتوح على الكون والإنسان؛ فنحن، اليوم، في حاجة إلى دراسات وأبحاث تتجلى، من خلالها، طبيعة التكامل المعرفي بين الحقائق الكونية في الطبيعة، وبين الحقائق والإشارات القرآنية. والعمل على بيان ما صدقه القرآن، وهيمن عليه في علاقته بالحركة الكونية. وهذا عمل لا يتأتى إلا لمن أوتي حظاً وافراً من العلم بالقرآن وحقائقه، والعلم بالكون وأسراره.

فما صاحب هذا البحث من التوفيق والسداد فمن الله، وما فيه من النقص فمن نفسي، والكمال لله وحده، عسى أن تتوسع مساحات البحث والحفر المعرفي من لدن الدارسين والمتخصصين في الفكر الإسلامي في هذا الموضوع المتعلّق بالمنهج في شتى حقول المعرفة، التي تلتقي، بشكل أو بآخر، بالمساحة المعرفية لمنهج التصديق والهيمنة.

والله أعلم.

❊ ❊ ❊

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**، رواية حفص عن عاصم.
- **الكتاب المقدس**، ط2006م.
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، منشورات مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/ 1995م.
- ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي بن محمد، التجليات الإلهية، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2002م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1418هـ/ 1998م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/ 1993م.
- أبو زيد، سمير، العلم والنظرة العربية إلى العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

- أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، 2008م.
- أبو سليمان، عبد الحميد، الرؤية الكونية الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، ط1، 2009م.
- أبو الفضل، منى، التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م.
- أبو القاسم حاج حمد، محمد:
  - إبستمولوجية المعرفة الكونية: إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، ط1، 2004م.
  - الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، ط1، 2004م.
  - تشريعات العائلة في الإسلام، دار الساقي، ط1، 2011م.
  - الحاكمية، دار الساقي، ط1، 2010م.
  - حرية الإنسان في الإسلام، دار الساقي، ط1، 2012م.
  - العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط2، 1996م.
  - منهجية القرآن المعرفية، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003م.
- أدونيس، الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ط1، 1979م.
- أركون محمد:
  - أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط1، 1993م.
  - قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، ط4، 2009م.
  - الهوامل والشوامل، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2010م.

- إقبال، محمد، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، (د.ت).
- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، حققه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1419هـ/ 1998م.
- أوبرو، طارق، إمام في فرنسا، نقله إلى اللغة العربية سعيد بن سعيد العلوي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2014م.
- الباش، حسن، القرآن والتوراة، دار قتيبة، دمشق، ط2، 2013م.
- باقر الصدر، محمد، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، الدار العالمية، ط1، 1989م.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، (د.ت.ط).
- البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد، تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ترجمة محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1418هـ.
- توشيهيكو، إزوتسو، الله والإنسان في القرآن، ترجمة محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م.
- الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7، 1998م.
- الجرجاني، أبو بكر ابن عبد الرحمن بن محمد عبد القاهر، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1995م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الحسن، التعريفات، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ/ 1983م.

- الحاج، عبد الرحمن، الخطاب السياسي في القرآن، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2012م.
- الحافظ ابن كثير، مختصر تفسير القرآن العظيم، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر، ج1، دار الوفاء، ط1، 1424هـ/ 2003م.
- الحسني، إسماعيل، نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2005م.
- الخراط، محمد، تأويل التاريخ العربي، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المركز الثقافي العربي، 2013م.
- الخطيب، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
- دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط6، 1405هـ/ 1984م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسن بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- رضا، رشيد، تفسير القرآن الحكيم، المنار، دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ/ 1999م.
- الزّركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، 1988م.
- زكريا، إبراهيم، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، (د.ت).
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، تفسير الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبها وضبطها محمد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/ 2003م.

- زمرد، فريدة، مفهوم التأويل في القرآن الكريم، مركز الدراسات القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المغرب، ط1، 2013م.
- سعيد، إدوارد، الاستشراق، مؤسس الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط7، 2005م.
- السيد، رضوان، الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، دار اقرأ، بيروت - لبنان، (د.ط)، 1974م.
- السّيوطي، جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا - بيروت، 1407هـ/ 1987م.
- الشاطبي، أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات، ج3، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ت).
- الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث، القاهرة، (د.ط)، 2005م.
- شحرور، محمد، تجفيف منابع الإرهاب، دار الأهالي، دمشق - سورية، ط1، 2008م.
- الشرفي، عبد المجيد، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط2، تموز/ يوليو 2008م.
- الشوكاني، محمد بن علي، تفسير فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق - سورية، ودار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ.
- الصافي، لؤي، إعمال العقل، دار الفكر، سورية، ط1، 1998م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:
  - تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ.
  - جامع البيان في تأويل القرآن، م4، دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ/ 1999م.

- عابد الجابري، محمد:
- بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط2، 1993م.
- تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط11، 2011م.
- فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الثالث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م.
- مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسة الوحدة العربية، ط1، 2006م.
- عبادي، أحمد:
- مفهوم الترتيل في القرآن الكريم النظرية والمنهج، رسالة دكتوراه، السنة الجامعية 1422-1423هـ/ 2001-2002م، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش-المغرب.
- مفهوم الترتيل في القرآن الكريم «النظرية والمنهج»، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2007م.
- الوحي والإنسان، دار النيل، مصر، ط1، 2013م.
- عبد الرحمن، طه:
- بؤس الدهرانية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014م.
- حوارات من أجل المستقبل، كتاب الجيب، العدد 13، منشورات الزمن، الرباط، نيسان/أبريل، 2000م.
- سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان (الدار البيضاء، المغرب)، 2006م.

- عبد الله، إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1997م.
- العلواني، طه جابر، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 2006م.
- غارودي، روجيه، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة ونشر ذوقان قرقوط، توزيع دار النفائس، ط1، 1990م.
- الغزالي، محمد:
  - كيف نتعامل مع القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ط1، 1992م.
  - المحاور الخمسة للقرآن الكريم، دار القلم، ط2، 2000م.
- فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، دار شرقيات، باب اللوق - القاهرة، ط1، 2000م.
- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط3، 1420هـ.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق، مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د.ت).
- فضل الرحمن، الإسلام وضرورة التحديث نحو إحداث تغيير في التقاليد الاجتماعية، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، بتعاون مع مؤسسة تعزيز الديمقراطية والتغيير السياسي في الشرق الأوسط، ط1، 1993م.
- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط2، 1420هـ/ 2000م.
- القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض- السعودية، ط3، 2000م.

- قطب، سيد، تفسير في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط17، 1412هـ.
- لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط2، 2001م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، تفسير النكت والعيون، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.ط).
- مختار، أحمد، علم الدلالة، دار العروبة، الكويت، ط1، 1982م.
- المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1998م.
- المسدي، عبد السلام، قضية البنيوية دراسة ونماذج، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991م.
- المسيري، عبد الوهاب:
  - فقه التحيز، إعداد المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991م.
  - الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق - سورية، ط1، 2002م.
- المناصرة، عز الدين، علم الشعريات، قراءة مونتاجية في أدبية الأدب، دار مجلاوي، عمان، ط1، 2007م.
- موران، إدغار، تربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، منشورات اليونسكوا، دار توبقال، ط1، 2002م.
- نولدكه، تيودور، تاريخ القرآن، تعديل فريدريش شفالي، ترجمة جورج تامر، منشورات الجمل، بغداد، العراق، (د.ط)، 2008م.

- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ.
- النيلي، عالم سبط، النظام القرآني، إعداد فرقان محمد تقي مهدي الوائلي، ط2، 2003م.
- هوفمان، مراد، الإسلام كبديل، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بفاريا، ط1، 1993م.
- ولد عبدي، محمد، السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية، دار نينوى، دمشق - سورية، 2009م.

المجلات:

- مجلة الإحياء، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العددان 27-28.
- مجلة الترتيل، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد 1.
- مجلة إسلامية المعرفة، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا - أمريكا، العددان 73 و75.
- مجلة التسامح، وتصدر الآن باسم التفاهم، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، العدد 17.
- مجلة التأويل، مركز الدراسات القرآنية، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، العدد 1.
- مجلة الكرمل، العدد 62.
- مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العددان 220- 221.

الندوات:

- أعمال الندوة العلمية التي نظمتها جامعة قطر في الذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني، 1999م.

- أعمال الندوة الدولية، السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام، التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2007م.
- أعمال الندوة العلمية، التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء في موضوع: «سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر»، التي أقيمت أيام: 21 و22 و23 جمادى الثانية 1432هـ، الموافق لـ 25 و26 و27 أيار/ مايو 2011م، مدينة الدار البيضاء - المملكة المغربية.
- أعمال ندوة الأسس المرجعية والمنهجية لتجديد الفكر الإسلامي، التي نظّمت في رحاب كلية الآداب، مدينة بني ملال - المغرب، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2014م.

❋ ❋ ❋

الفهرس

الإباحة: 14

إبراهيم، عبد الله: 170

إبليس: 209، 229، 231، 235، 237، 244، 245، 246، 247، 248، 250، 251، 255، 256، 262

ابن أبي طلحة، علي: 105

ابن عاشور، محمد الطاهر: 108، 110، 182، 241، 242، 279، 281، 282، 332

ابن فارس، أبو الحسين أحمد: 92

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: 105، 107، 134، 234، 235، 236، 237، 242، 278، 279، 281، 332، 333

ابن معاذ، بشر: 102، 276

أبو زيد، نصر حامد: 10، 24، 190، 193، 194، 196

الاحتلال الغربي: 169

الأحكام الشرعيَّة: 206

الأخلاق: 57، 156، 166، 171، 189، 252، 309، 319، 320، 325

أرض كنعان: 269، 270، 271، 274، 275، 302، 303، 304، 307، 320

أركون، محمد: 9، 24، 190، 191، 192، 330

الأساطير اليهودية: 175

الأسباط: 148، 173، 215، 286، 307، 314

الاستخلاف: 10، 11، 21، 24، 25، 28، 171، 206، 208، 209، 216، 219، 240، 243، 248، 251، 261، 262، 324، 325

استخلاف آدم: 11، 68، 206، 209، 217، 227، 228، 229، 234، 237، 242، 243، 244، 245، 254، 255، 256، 261، 262، 265، 267، 268، 301، 311، 316، 327

الاسترجاع النقدي: 9، 11، 21، 23، 116، 167، 179، 191، 192، 196، 216، 256، 295، 302، 316، 327

الإسرائيليات: 198

الأسرة المسلمة: 204

الإسلاميات التطبيقية: 190

الأصفهاني، الراغب: 40، 297

الألوسي، شهاب الدين محمود: 106

أم الكتاب: 55، 77، 197، 208، 297

الإمامة: 9، 23، 118، 147، 148، 149، 216، 279، 280، 281، 282، 284، 285، 286، 304

الأمة الوسط: 297، 298، 299، 300

الإنجيل: 19، 27، 44، 55، 56، 66، 72، 73، 75، 79، 104، 106، 107، 108، 109، 113، 114، 115، 116، 143، 146، 148، 149، 173، 174، 185، 191، 192، 197، 198، 296، 301، 311، 312
أندريه، تور: 175
أهل البيان: 92
أهل الرأي: 80
أهل العرفان: 92
أهل الكتاب: 23، 30، 31، 36، 60، 69، 70، 73، 74، 75، 84، 85، 113، 114، 115، 116، 138، 144، 174، 176، 179، 180، 181، 184، 186، 187، 189، 190، 192، 196، 197، 204، 229، 235، 280، 282، 283، 289، 290، 293، 296، 298، 299، 308، 309، 312، 313، 326
أوربا: 41، 163، 171
آيات محكمات: 77
إيزوتسو، توشيهيكو: 125
بروكلمان، كارل: 175
البصري، الحسن: 236
بعثة محمد: 113، 136، 144، 146، 151، 297، 299، 312، 327
البقاعي، أبو بكر إبراهيم: 106
البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم: 124، 331
البنائية القرآنية: 8، 10، 20، 22، 24، 35، 36، 49، 51، 53، 87، 88، 89، 93، 115، 119، 125، 127، 142، 168، 199، 219، 220
بنو إسرائيل: 10، 11، 25، 30، 56، 58، 68، 71، 100، 143، 148، 158، 173، 203، 206، 210، 211، 213، 216، 237، 269، 280، 284، 287، 307، 310، 311، 312، 314، 317، 318، 322
البيت الحرام: 206، 216، 287، 288، 289، 294، 295، 296، 299
بيت المقدس: 294، 295، 299
البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير محمد: 104، 241
بيكون، فرانسيس: 170
التجربة اليهودية: 78
تحريف كلام الله: 184، 185، 186
التحريم: 14، 252
التحليل البنيوي: 119
التدين الإنساني: 205
التزكية: 318، 319
التشريع القرآني: 78
التعددية الدينية: 139، 140
تغييب العقل: 9، 23، 185
التلاوة: 9، 126، 146، 179، 180، 181، 184
التوحيد: 14، 16، 33، 119، 122، 128، 129، 130، 131، 133، 173، 289، 300، 318، 319، 320
التوراة: 9، 19، 25، 27، 31، 42، 44، 55، 56، 66، 71، 72، 73، 75، 78، 79، 104، 106، 107، 108، 109، 113، 114، 115، 116، 143، 146، 148، 173، 174، 179، 180، 185، 191، 192، 197، 198، 229، 233، 235، 241، 243، 256، 263، 296، 301، 304، 311، 312
الثقافة الدينية اليهودية: 24
ثقافة السلم: 148
الثقافة الكتابية: 205

الثورة المعلوماتية: 32
الثوري، سفيان: 105
الجابري، محمد عابد: 10، 24، 79، 156، 190، 196، 197، 198، 199، 334
الجاحظ، أبو عثمان: 80، 81، 82
جاكبسون، ليونارد: 120
الجاهلية: 54، 205
الجبرية الغيبية المطلقة: 153
الجرجاني، الشريف: 47، 92
الجرجاني، عبد القاهر: 119، 121
الجزيرة العربية: 50، 287
حاج حمد، محمد أبو القاسم: 125، 126، 146، 152، 299، 330
حجة الوداع: 321
الحداثة الغربية: 171
الحضارة البابلية: 164
الحقل الدلالي القرآني: 50، 51، 130
الحقل الدلالي للشعر: 49
الحقيقة الدينية: 15
الحنيفية المسلمة: 282
حوار الحضارات: 138
خاتمية الرسالة المحمدية: 9، 23، 118، 147، 150، 198، 327
الختان: 271، 276، 277، 278، 279، 305، 306، 310
الخصوصية الإسلامية: 169
الخطاب الإقناعي: 81
الخطاب القرآني: 11، 14، 34، 35، 41، 42، 117، 122، 136، 137، 139، 153، 159، 166، 204، 220، 256، 321، 326
الخطيب، عبد الكريم يونس: 239، 250
الخلافة: 10، 24، 172، 206، 209، 210، 214، 216، 217، 218، 219، 237، 238، 244، 245، 246، 248، 253، 254، 255، 262، 265، 268، 324
خلق آدم: 27، 76، 110، 219، 220، 228، 235، 236، 256، 258
الخليفة عثمان: 29
الخوارزمي، محمد بن موسى: 40
دار الإسلام: 134، 135
دار الحرب: 134
دار الصلح: 134
دار العهد: 134
دراز، محمد عبد الله: 122، 123، 124
دلالة المفردات: 36، 199
دي سوسير، فرديناند: 120
الديانات التوحيدية: 14، 33
الديانة الإسلامية: 27
الديانة المسيحية: 19، 27
الديانة اليهودية: 19، 27
الذات الإلهية: 319
رابطة الدم: 323
الرازي، فخر الدين: 104
الرأسمالية الاستعمارية: 169
الرحمن، فضل: 128
رضا، محمد رشيد: 107، 110، 208
الرؤية القرآنية للعالم: 320
الرؤية الكلية القرآنية: 9، 22، 118، 127، 133
رينان، أرنست: 169
الزمخشري، محمود بن عمر: 103، 233، 234، 242
زمرد، فريدة: 93
سعيد، إدوارد: 170
السلفية القتالية: 15
السنن الدينية الشرعية: 16
السنن الكونية القدرية: 16
سنّة الاختلاف: 134
السنة الثانية للهجرة: 65

السنة النبوية: 26، 34
سؤال القيم: 171
السور المدنية: 204
السياق اللغوي: 184، 185
سيف، لوسيان: 119
السّيوطي، جلال الدين: 43، 124
الشافعي، محمد بن إدريس: 43، 80، 81، 134، 333
الشام: 276، 299
شبكة العلاقات المفهومية: 15
شتراوس، ليفي: 119
الشعر الجاهلي: 50
الشوكاني، محمد بن علي: 107
الصدر، محمد باقر: 124
صراع الحضارات: 141
صوفية: 40، 92
الطبري، محمد بن جرير: 101، 133، 134، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 237، 242، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 333
الطهارة البدنية: 278
الطوفان: 73، 323
الظاهرة الدينية: 33
عالم الشهادة: 86، 99، 118، 149، 165
عالم الصفات: 160
عالم الغيب: 86، 99، 118، 145، 165، 166
عالم المادة: 118
العالمية: 9، 22، 34، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 167، 331
عالمية الخطاب: 117، 137، 139، 198
عالمية الرسالة المحمدية: 133، 135
عبادة الأصنام: 291، 301
عبادة الشيطان: 268، 301، 303، 324
عبادة الكواكب: 276
عبادي، أحمد: 162، 167، 169، 247، 325، 334
العصبية: 314
علم أصول الفقه: 80، 182
علم الغيب: 100
علم اللاهوت: 163
العلم الوضعي: 160
العلواني، طه جابر: 127، 146، 152، 318
العمران: 318
العمل الصالح: 172، 252، 321، 323
عملية الإخفاء: 186
العنصرية: 138
العهد الجديد: 19، 27، 28، 29، 32، 76
العهد القديم: 10، 11، 19، 24، 25، 27، 28، 29، 32، 36، 76، 176، 198، 219، 220، 222، 223، 224، 225، 226، 229، 231، 232، 233، 241، 242، 243، 256، 257، 258، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 275، 278، 302، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 316، 318، 320، 322، 323، 324، 325
العولمة: 140
عيسى ابن مريم: 28، 56، 71، 72، 73، 113، 114، 148، 214
الغرب الاستعماري: 170
الغزالي، محمد: 124، 146
غزوة بدر الكبرى: 65
غولدتسيهر، إغناتس: 31، 169، 175، 176

الفارابي، أبو النصر: 40
الفارسي، أبو عليّ: 107
الفرق الإسلامية: 92
فطرة الإنسان: 320
الفكر العربي المعاصر: 9، 24، 190
الفلسفة المادية: 172
الفلسفة الماركسية: 164
الفلسفة اليونانية: 129
القبائل الأمية: 280
قبيلة قريش: 280
القرابة: 323
القرآن المحمدي: 176
القرآن المكي: 205
القرن التاسع عشر: 162، 169
القرن الخامس عشر: 169
القرن السابع عشر: 170
القرن السابع الميلادي: 64
القرن العشرون: 41، 120
القصص التلمودي: 175
قصة الخلق: 10، 21، 24، 25، 61، 219، 220، 327
قطب، سيد: 109، 237، 238، 239، 240
القمي النيسابوري، الحسن بن محمد: 102
القوانين الطبيعية: 141، 159
قوانين كونيّة: 141
الكاشاني، عبد الرزاق: 40
الكتاب الخاتم: 23، 33، 72، 117، 149، 300، 326، 327
الكتاب السماوي: 191
الكتاب المبين: 55، 74، 77، 82، 83
الكتاب المقدس: 21، 23، 27، 28، 29، 30، 32، 76، 110، 111، 116، 127، 163، 175، 193، 197، 218، 220، 327
الكتب السماوية: 9، 19، 20، 21، 22، 24، 33، 57، 67، 77، 79، 106، 109، 151، 172، 176، 190، 196، 199، 326
الكلبي الغرناطي، أبو القاسم محمد: 44
كونت، أوغست: 163
لالاند، أندريه: 158، 159
اللوح المحفوظ: 197
ماهيّة العهد: 280
الماوردي، أبو الحسن علي: 103
مبدأ التمركز حول ثقافة: 137
مبدأ التوحيد: 129، 130، 133
مبدأ الكونية: 117
المجاز: 92
مجتمع المدينة: 205
المجتمع المسلم: 204
المحاربي، محمد بن عبيد: 102، 279، 281
المذهب الشافعي: 134
المراغي، أحمد مصطفى: 109
المرجعية الإسلامية: 169
المركزية الغربية: 169، 170
المسيري، عبد الوهاب: 171، 336
المشترك الإنساني: 11، 25، 76، 138، 318
مصادر الوحي: 169
المعادل الموضوعي للخلق الكوني: 152
المعتزلة: 241
المفاهيم القرآنية: 14
مفردة البيان: 79، 82
المفردة القرآنية: 35، 51، 53، 54
مفهوم التّأويل: 41، 92، 94، 99
مفهوم التّفسير: 88، 92، 99
مفهوم النسخ: 78

ملة إبراهيم: 206، 215، 216، 282، 283، 284، 286، 289، 290، 291، 294، 307
مناسك الحج: 276، 277
المناهج الغربية الحديثة: 193
المنطق الوضعي: 163
منظومة القيم: 318
المنهج البنيوي: 117، 119، 120، 121
المنهجية القرآنية: 153
موران، إدغار: 132
الموروث الثقافي الديني: 54
موس، مارسيل: 184
موضوع الاستخلاف: 11، 21، 24، 25، 28، 206، 243، 261
موضوع الخلق: 36، 76، 155
الناسخ والمنسوخ: 78، 196
النبوة: 14، 55، 83، 133، 135، 136، 149، 150، 151، 246، 281، 298، 313
النبي أبرام: 269، 272، 302، 303
النبي إسحاق: 55، 96، 102، 105، 148، 173، 215، 228، 229، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 279، 280، 286، 290، 304، 306، 307، 313، 314، 318، 320، 322، 333
النبي إسماعيل: 147، 148، 173، 206، 215، 216، 234، 271، 272، 273، 274، 275، 280، 283، 284، 286، 287، 288، 289، 297، 299، 300، 303، 304، 305، 306، 307، 313، 314، 332
النبي عيسى: 28، 30، 55، 56، 71، 72، 73، 77، 107، 113، 114، 136، 143، 144، 146، 148، 149، 151، 173، 214، 215، 286، 289، 307، 311، 314
النبي موسى: 27، 28، 30، 44، 55، 56، 57، 58، 62، 66، 67، 73، 74، 77، 82، 83، 93، 94، 99، 107، 136، 143، 144، 146، 148، 149، 151، 173، 179، 185، 186، 203، 211، 212، 214، 215، 264، 285، 286، 289، 293، 297، 298، 307، 311، 314، 315، 317، 323، 333
النبي يعقوب: 55، 96، 99، 148، 173، 215، 283، 284، 286، 290، 307، 313، 314، 325
النصارى: 84، 114، 186، 189، 282، 295، 296، 308، 313
النصرانية: 282، 313
النظام اللغوي للثقافة: 193
نظرية النظم: 119، 121
النظم القرآني: 122، 123
النقد البنيوي: 121
نيتشه، فريدريش: 164
الهجرة: 204، 276
هنتنغتون، صامويل: 140
هيغل، جورج فيلهلم: 170
الوثنية: 205
وحدانية الخالق: 320
الوحي الإلهي: 191
اليهودية: 19، 24، 27، 78، 175، 176، 191، 282، 313
يوم القيامة: 58، 98، 150، 152، 161، 186، 213، 234، 247، 267، 318

✽ ✽ ✽

ما يشدّك إلى كتاب د. صابر مولاي أحمد هو قبل كل شيء، وعلى امتداد كامل صفحاته، نقاوة أسلوب الكتابة، ووضوحها وضوحاً آسراً، ولعل وضوح حجته من وضوح عبارته أولاً، ومن ميلها إلى عدم التعويل على البلاغة تعويضاً عن الحجاج العقلي والعقلاني. وما أحوجنا إلى ذلك في الدراسات القرآنية والدينية. ولكن الكتاب قد أخذ نفسه فوق ذلك بأن يعالج منهج التصديق والهيمنة في القرآن الكريم معالجة غير مسبوقة؛ فهو قد محّض الجهد لضرب من الاسترجاع النقدي والتأويلي، داخل التنزيل الحكيم، لعلاقة القرآن بالعهد القديم، فنحا في ذلك منحى لا يجري وراء مسلمة الهيمنة القرآنية، وإنما يرسم تلك العلاقة في أفق المشترك الإنساني الذي يجتهد في بنائه التاريخ، فتبدو سورة البقرة في هذا المنظور المبدع، وكأنما نكتشفها من جديد آية آية، وإنما ينشد القرآن هذا المشترك الإنساني، ولذلك جاء مصدّقاً... ومهيمناً...

أ. د. محمد محجوب

أستاذ التعليم العالي والتأويلية وتاريخ الفلسفة في الجامعة التونسية

لا يشتغل محدد «التصديق والهيمنة» في منظومة المفاهيم القرآنية مفرداً، بل يشتغل في نسق من العلاقات مع سائر المفاهيم الأخرى إمداداً لها، واستمداداً منها. وهذه مسألة في غاية الأهمية؛ لأن كثيرين من دارسي مفردات ومفاهيم القرآن ينتقون آحاداً منها، ويدرسونه وحدة مستقلة، حيث يتم تغييب معان ودلالات أخرى لها علاقة بسائر بنية المفاهيم، ومن ثم يكون عرض ذلك المفهوم، أو تلك المفردة، أبعد ما يكون عن روح الإسلام، وإن زعم صاحبه أنه يعالجه من منظور إسلامي.

فالباحث صابر مولاي أحمد؛ يتصف بالقدرة على التتبع والقراءة، وعلى نظم المفردات والبناء عليها، وعلى النقد والمراجعة، وعلى الامتداد بالوعي وبالمدركات في مجالات المعرفة الفسيحة.. ما يجعله مجدداً مبدعاً باستمرار.

د. سعيد شبار

أستاذ التعليم العالي والفكر الإسلامي في الجامعة المغربية

صابر مولاي أحمد: باحث مغربي متخصص في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر

ISBN 978-614-8030-41-3

9 786148 030413

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للنشر والتوزيع